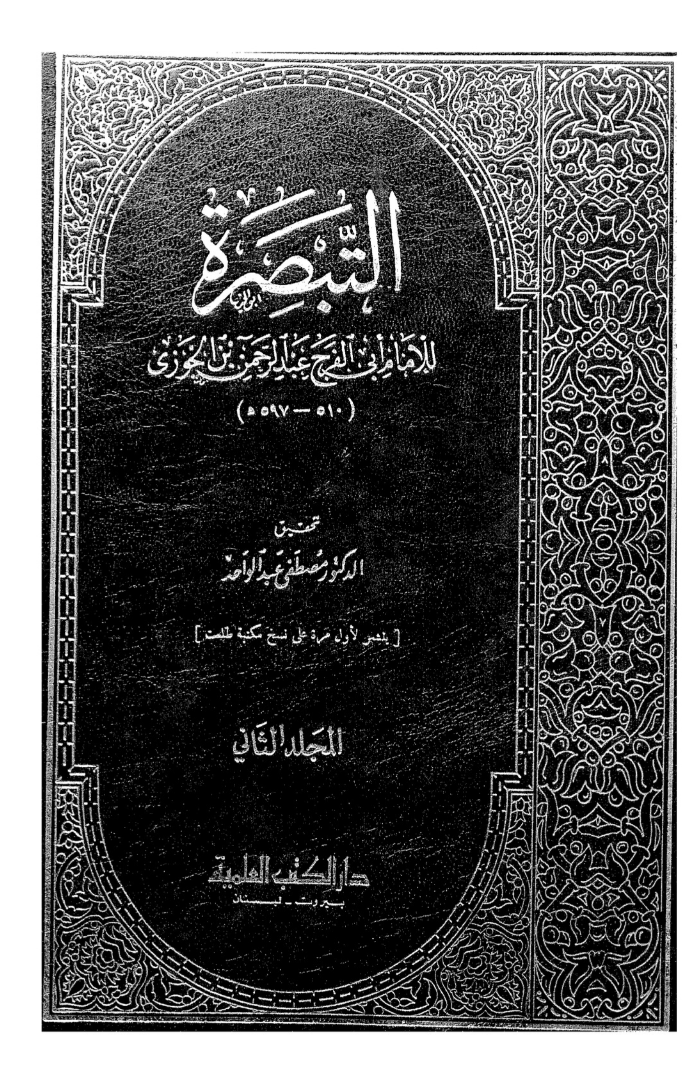


التبصرة
للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
(٥١٠ – ٥٩٧ هـ)
تحقيق
الدكتور مصطفى عبد الواحد
[ينشر لأول مرة على نسخ مكتبة طلعت]
المجلد الثاني
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



(٥١٠ — ٥٩٧ هـ)

تحقيق
الدكتور مصطفى عبد الواحد

[ينشر لأول مرة على نسخ مكتبة طلعت]

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

الطبعـــة الأولى
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

الطبعـــة الثانيـة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣ / ٠٠/١٢١٢

الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ

فيها مجالس تشتمل على فضائل أيام السَّنة ولياليها المذكورات

فِيهَا أَحَدَ عَشَرَ مَجْلِسًا



المجلس الأول

فى ذكر عاشوراء والمحرَّم

الحمد لله الذى طَّهر بتأديبه من أهل تَقْريبه نفوساً ، وسقى أرباب مصافاته من شراب مناجاته كؤوسًا ، ودفع كَيْد الشيطان عن قلوب أهل الإيمان فأصبح عنها محبوسا ، وصرف عن أهل وداده بلطفه وإسعاده أذًى وبُوسًا ، وأذلَّ بقَهْره من شاء من خلقه أعناقا ورءوسا ، وأعادَ ذِكْر الأصنام بعزّ التوحيد والإسلام مَطْموسا ، وجعل عدَد السنين بجَريان الشمس والقمر للحاسبين محروسا ، وكرَّم عَشْر المحَرم وكلَّم فى عاشوراء منه نبيَّه موسى .

أحمده على نِعم لاتُحصَى عدَدا وما أقضِى بالحمد حَقّا ، وأشكره ولم يزل للشكر مستحِقّا ، وأشهد أنه المالك للرقاب كلها رِقّا ، كوَّن الأشياء وأحْكَمها خَلْقا ، وفتَق السماء والأرض وكانتا رَتْقا ، وقسم العِباد فأسعَد وأشقَى « هو الذى يريكم آياته وينزِّل لكم من السماء رزقا [1] » .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف الخلائق خَلْقا وخُلقا ، صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبه أبى بكر الصديق الذى حاز كل الفضائل سَبْقا ويكْفيه : « وسَيُجَنَّبها الأتقَى » وعلى عمر العادل فما يُحَابِى خَلْقا ، وعلى عثمان الذى استسلم للشهادة فما يَتوقَّى ، وعلى علىّ بائع ما يَفنى ومشترِى مايبقى ، وعلى عمه العباس صِنْو أبيه حقًّا .

* * *

---

(١) سورة غافر ١٣ .

اعلموا رحمكم الله إخوانى أن شهر المحَرَّم شهر شريف القَدْر ، وإنما سمِّى المحرم لأن القتال كان يحرم فيه . وقد روى عن جماعة من المفسرين فى قوله تعالى : « والفَجْرِ وليالٍ عَشْر » أنها العَشْر الأوائل من المحرَّم وقال قتادة : أراد بالفجر فجر أوّل يوم من المحرَّم .

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقى البزار ، حدثنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرىّ ، أنبأنا على بن أحمد بن محمد بن كيسان ، أنبأنا يوسف بن يعقوب القاضى ، حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا أبو عَوانة عن عبد الملك بن عُمَيْر ، عن محمد بن المُنْتَشِر [1] عن حُمَيْد ابن عبد الرحمن الحِمْيرى ، عن أبى هريرة قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أفضلُ الصوم بعد رمضان شهر الله الذى تَدْعونه المحرَّم [2] » .

أخبرنا ابن الحُصَيْن ، أنبأنا ابن المُذْهِب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبيد الله ابن أحمد ، حدثنى خيثمة ، حدثنى أبو معاوية ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان ابن سعد ، عن على قال أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يارسول الله أخبرنى بشهرٍ أصومه بعد رمضان فقال : « إن كنت صائمًا شهرا بعدَ رمضان فصُم المحرم فإنه شهر الله ، وفيه يومٌ تاب فيه على قوم ويُتاب فيه على آخرين » .

وقد روى ابن شاهين من حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صام يومًا من المحرم فله ثلاثون يوما » .

ومن حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له عبادة تسع مائة سنة » .

ورويت أحاديث من هذا الجنس لاتَثْبت فلهذا تركناها .

ويستحب صيام التاسع والعاشر ، أمّا التاسع فمذهب ابن عباس أنه هو عاشوراء قال

---

(١) فى المشتبه ٦١٦/٢ : منتشر بن الأجدع روى عنه ولده محمد .

(٢) روى نحوه مسلم فى صحيحه كتاب الصيام حديث رقم ٢٠٢ ، ٢٠٣ . وأخرجه أيضا أبو داود والترمذى وابن ماجه والدارمى وأحمد .

الأزهرى : كأنه تأوّل فيه عَشْر الوِرْد والعرب تقول : وردت الإبلُ عَشْرًا إذا وردت يومَ التاسع .

وأما يوم عاشوراء ففى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فرأى اليهودَ يصومونه ويقولون : هذا يومٌ عظيم أَنْجَى الله فيه موسى وقومَه وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شُكْرًا فنحن نصومه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فنحن أحقُّ وأَوْلَى بموسى منكم » فصامه وأمر بصيامه [١] .

وفيهما من حديث سلَمة بن الأكوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلا مِن أَسْلم أن أذِّن فى الناس : من كان أكل فليصم : يعنى بقية يومه . ومن لم يكن أكل فليصم فإن اليوم يوم عاشوراء [٢] .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى البزار ، أنبأنا الحسن بن على أنبأنا أبو الحسين على بن محمد ابن كيسان ، أنبأنا يوسف بن يعقوب ، حدثنا إبراهيم بن بشَّار ، حدثنا سفيان بن عُيَيْنة ، حدثنا عُبَيْد الله ابن أبى يزيد ، قال سمعت ابن عباس سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال : « ما رأيت النبى [٣] صلى الله عليه وسلم صام يومًا يتحرَّى فضلَه على الأيام إلا هذا اليوم . يعنى يوم عاشوراء . وهذا الشهر ، يعنى شهر رمضان [٤] » .

قال يوسف : وحدثنا عبد الواحد بن غِيَاث ، حدثنا حمَّاد بن سلَمَة عن قَتَادة ، عن غَيْلان بن جرير ، عن عبد الله بن مَعْبَد الزِّمَّانِىّ ، عن أبى قَتَادة الأنصارى أن رسول الله عليه وسلم قال : « صوم عاشوراء يكفر العام الذى قَبْله » .

انفرد بإخراجه مسلم .

---

(١) صحيح البخارى ١/٢٧٩ (ط الأميرية سنة ١٢٨٠ هـ) كتاب الصوم (باب صوم يوم عاشوراء) وصحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ١٢٧ — ١٣٠ .

(٢) صحيح البخارى ١/٢٨٠ ، وصحيح مسلم ٣/١٥١ ط استامبول (كتاب الصوم)

(٣) ت : ما رأيت رسول الله .

(٤) صحيح مسلم ٣/١٥٠ ط استامبول (كتاب الصوم)

وقد روى فى فضائل عاشوراء أحاديث موضوعة فلا فائدة فى ذكرها ، مثل : من اغتسل ومن اكتحل ومن صافح . وكله ليس بشىء .

وقال معاوية بن قُرَّة : صام نوح ومن معه فى السفينة (١) قال ابن شاهين : وممن بلَغنا أنه كان يصوم يوم عاشوراء على بن أبى طالب وأبو موسى الأشعرى وعلىّ بن الحصين وسعيد بن جُبَيْر وطاوس . وفى الجملة هو يوم عظيم فينبغى أن يُفعل فيه ما يمكن من الخير . [فهو وأمثاله مواسم الخيرات فاغتنموها واحذروا الغفلات(٢)] .

﴿ الكلام على البسملة ﴾

خُلِقْنا لأحداث الليالى فرائساً ... تزفّ إلى الأجداث منا عرائساً
تجهِّز منا للقبور عساكرًا ... وتُرْدِف أعوادَ المنايا فوارساَ
إذا أَمَلٌ أرْخَى لنا من عنَانه ... غَدا أجَلٌ عما نحاوِل حابساَ
أرى الغُصْن لما اجتُثّ وهو بمائه ... رَطيباً وما أصبح الغُصْن يابساَ
نَشيدُ قصورًا للخلود سفاهةً ... ونصبر ما شئنا فتورا دَوَارسا
وقد نَعت الدنيا إلينا نفوسنا ... بمن مات منا لو أصابت أكايِساَ
لقد ضَربتْ كسرى الملوك وتُبَّعًا ... وقيصر أمثالا فلم نر قائساَ
نرى مانرى منها جِهَارا وقد غدا ... هواها على نور البصيرة طامِساَ
وقد فضح الدنيا لنا الموتُ واعظا ... وهيهات ما نزداد إلاتقاعُساَ

غيره :

أبداً تفهِّمنا الخطوب كرورها ... ونَعودُ فى عَمَهٍ كمن لا يفهمُ
تَلْقَى مَسَامِعَنا العِظاتُ كأنما ... فى الظل يَرْقُم وعظَه من يرقمُ
وصحائف الأيام نحن سُطورها ... يقرا الأخير ويَدْرج المتقدِّمُ

---

(١) ذكره فى اللآلىء المصنوعة ١١٦/٢ ، وهو غريب .   (٢) من : ت .

لَحْد على لحــدٍ يُهَالُ ضريحه　　وبأعظم رِمَمٌ عليهـــا أعْظُمُ
مِن ذا توقّاه المنون وقَبْلنا　　عادٌ أطاحَهم الحِمَامُ وُجُرْهُمُ
والتُّبّعان تَلاحقَا ومُحَرِّق　　والمنذران ومالك ومتمِّمُ

* * *

كأنك بما يُزْعج ويَرُوع، وقد قلع الأصولَ وقطع الفروع، ياناْئما إلى كم هذا الهجوع، إلى متى بالهوى هذا الولوع، أينفعك وقتَ الموت الدموع، كم لك إلى التُّقَى عند النَّزْع نُزُوع، هيهات لاينفع الذل إذًا والخضوع، يقول فرِّقوا المال فالعجب لجُود المَنُوع، هذا وملَك الموت يسلُّها من بين الضلوع، رشَقك سهمُ المنون فما أغنت الدروع، وأتى حاصدُ الزرع وأين الزُّروع، وخلَت منك المساكن وفرغت الربوع، وناب غرابُ البَيْن عن الوَرْقاء السُّجُوع، وتمنيت أن لو زدت من سجود وركوع، فاحذر مكر العدو ولاتقبل قول الخَدُوع.

ضيَّعْت وقتك فانقضى فى غفلةٍ　　وطويتَ فى طَلب الخوادع أدْهُرَا
أفهمت عن هــذا الزمان جوابَه　　فلقد أبانَ لك العِظاتِ وكرَّرَا
عاينتَ ما ملأ الصــدور مخافةً　　وكفاك ماعاينتَه من أخْــبَرا

* * *

ياعجبا كيف أنِس بالدنيا مفارقها، وأمِن النارَ واردُها، كيف يغفل من لا يُغْفل عنه، كيف يفرح بالدنيامن يومُه يهدم شهرَه، وشهره يهدم سَنَته وسَنته تَهْدِم عُمره، كيف يلهو من يقوده عمُره إلى أجله وحياته إلى موته.

إخوانى: الدنيا فى إدْبار، وأهلُها منها فى استكثار، والزارع فيها غير التُّقَى لايحصد إلا الندم.

قال لقمان لابنه : يابنى لكل إنسان بيتان : بيتٌ شاهد وبيت غائب ، فلا يُلْهينك بيتُك الحاضر الذى فيه عُمْرك قليل عن بيتك الغائب الذى عمرك فيه طويل .

إخوانى : أنفاس الحىّ خُطَاه إلى أجَله وربما أَوْرد الطمعُ ولم يُصْدر . يامن يَفْنى ببقائه ويَسْقَم بسلامته ويُؤْتَى من مَأمنه تيقَّظ ، الجدَّ الجد قبل بَغتات المنايا ومجاورة أهل البلى ، ليَحُلَّن بكم من الموت يوم ذو ظلم ينسيكم معاشرة اللذات والنِّعَم ، ولا يبقى فى الأفواه إلا طعم الندم .

* * *

سَلْ بالزمانِ خَبيرا إنه به لَعَلِيمُ
داعِى الإماتةِ ظاعِنٌ بالمرء وهو مُقيمُ
ووراءَ ضيق حياته نَفَس وليس يدومُ
ياسادِرًا فى غيِّه حتَّام أنت مُليمُ
لاتُخْدعنَّ بِمُنْيَة أمُّ الخلود عَقِيمُ
حتَّام يَجْذبك المشيب بكفّه وتَهِيمُ
وإذا المنية أبرقتْ فرجاؤك المهزومُ
عُشِق البقاء وإنما طولُ الحياة همومُ

أين الذين ملكوا الدنيا ونالوا ، زالوا سبقوك ياهذا إلى ما إليه آلوا ، أين المغرورون بالآلِ آلُوا إلى الشَّتات ، أين المسرورن بالمال مالوا إلى الكِفَات ، غَلِق رَهْن أعمالهم وما عَلِقوا إلا بالوبال ، وصارت آصارهم فى مصيرهم كالجبال ، فندموا إذ لا ندم ينفع ، وندبوا على المصاب ولكن بعد المصْرَع ، وتجرَّعوا كؤوس البأس من كل مَطْمع ، وضُربوا بسيوفٍ من الحسرات إذ تُهَزّ تَقْطَع .

ظلٌّ من الدنيا تقلَّص زائلاً ومُنًى يُذاق على جنَاها العَلْقَمُ
ماهــذه الآمال إلا رَقْدة فيها بأضغــاث الأمانى تَحلمُ

والكل فى رِقّ الفَناء وإنما ... للنائبات مُعرَّض من يَهْرَمُ
أبدًا تفهمنا الخطوبُ كرورها ... ونعود فى عَمَهٍ كمن لا يفهمُ
تَلْقى مسامعنا العِظات كأنما ... فى الظل يَرْقم وعظه من يَرْقمُ
وصحائف الأيام نحن سُطورها ... يقرا [1] الأخير ويَدْرج المتقدمُ
لحدٌ على لحد يُهَال ضريحه ... مع [2] أعظم رِمَم عليها أعظم
من ذا توقَّاه المنون وقبلنا ... عاد أطاحهم الحِمَام وجُرْهُمُ
والتُّبعَّان تلاحقا ومحرّق ... والمُنْذِران ومالك ومُتَممَّ
ومَمَالكٌ مُنعت بها أربابها ... فتجبَّروا ثقةً بها وتعظَّموا
سُلبوا ثياب الخُنْزوانَةِ [3] عَنْوةً ... فهوَوْا وشامِخُ عِزِّهم متهدِّمُ

الكلام على قوله تعالى

﴿ ولا تَقْتلوا النفسَ التى حرَّم الله إلا بالحق [4] ﴾

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما من حديث أبى بكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم النحر بمكة : « دماؤكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضُلَّالا يضرب بعضكم رقاب بعض [4] » .

أخبرنا هبة الله بن الحصَيْن، أنبأنا الحسن بن علىّ ابن المذْهِب ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق، قال قال عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يُقْضَى بين الناس يوم القيامة فى الدماء » .

---

(١) ت : يعنى . (٢) ت : أو أعظم . (٣) الخنزوانة : الكبر . (٤) سورة الإسراء ٣٣

(٤) صحيح البخارى ٢٤٤/١ (كتاب الحج) ، وصحيح مسلم كتاب الحج حديث رقم ٣١١ ، ٣٢٩

قال أحمد : وحدثنا أبو النضر ، حدثنا إسحاق بن سعيد ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله عليــه وســلم أنه قال : « لن يزال المرء فى فسحة من دينه ما لم يُصِبْ دماً حراما » .

انفرد بإخراج هذا الحديث البخارى (١) واتفقا على الذى قبله (٢) .

أخبرنا على بن عبيد الله ، أخبرنا أبو الحسين ابن النَّقُور ، أخبرنا أبو حفص الكنانى ، حدثنا البغوى ، حدثنا محمد بن عبَّاد المكى ، حدثنا حاتم يعنى ابن إسماعيل ، عن بَشِير يعنى ابن المهاجر ، عن ابن بُرَيْدة عن أبيــه أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : « لَقتلُ المؤمن أعظمُ عند الله من زوال الدنيا » .

* * *

واعلم أن الله عز وجل اختار هذا اليوم لاستشهاد الحسين .

أخبرنا ابن الحصَين ، أخبرنا ابن المذْهِب ، أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا أبو النَّضر ، حدثنا مهدى ، عن محمد بن أبى يعقوب ، عن ابن أبى نعم ، قال جاء رجل إلى ابن عمر وأنا جالس عنده فسأله عن دم البعوض فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق . قال : انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « هما رَيْحانتاى من الدنيا » .

انفرد بإخراجه البخارى (٣) .

أخبرنا الكَرُوخى ، أنبأنا أبو عامر الأزْدِى . وأبو بكر الغُورَجِىّ ، أنبأنا الجرَّاحى ، حدثنا المحبوبى ، حدثنا الترمذى ، حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو داود

(١) صحيح البخارى ٣/٢٤٦ (كتاب الديات) .
(٢) صحيح البخارى ٣/٢٤٦ (كتاب الديات) وصحيح مسلم كتاب القسامة حديث ٢٨ .
(٣) صحيح البخارى ٢/١٦٩ (كتاب المناقب)

الحفرى ، عن سفيان ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن ابن أبى نُعْم ، عن أبى سعيد الخدْرى ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين سيَّدا شبابِ أهل الجنة » .

قال الترمذى : هذا حديث صحيح(١) .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، أنبأنا الجوهرى ، حدثنا ابن معروف ، حدثنا ابن صاعِد، حدثنا يوسف بن موسى القطَّان ، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش ، عن عاصم بن بهدلة ، عن أبى ذرٍّ ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذان ابناى فمن أحبَّهما فقد أحبَّنى » يعنى الحسن والحسين عليهما السلام .

أخبرنا على بن عبد الله ، أخبرنا على بن أحمد بن البسْرى ، أخبرنا عبيد الله بن محمد ابن ريطة إذناً ، قال : حدثنى أبو صالح محمد بن أحمد ، حدثنا محمد بن عبيد الله البصرى ، حدثنا عبيد الله بن محمد العبشى ، حدثنا أبَان بن أبى عيَّاش ، عن شهر بن حَوْشَب ، عن أم سلمة ، قالت : كان جبريل عند النبى صلى الله عليه وسلم وحسين معى فبكى فتركته فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخذته فبكى فأرسلته فذهب إليه فقال له جبريل : أتحبه يامحمد فقال : نعم . فقال : إن أمَّتك ستقتله فإن شئت أريتك تربة أرضه التى يُقتل بها . فبسط جناحه إلى الأرض التى يُقتل بها يقال لها كربلاء وأخذ بجناحه فأراه إياه . قال حماد : فأخبرنى أبَان أو غيره أن الحسين لما نزل كربلاء شمَّ الأرض وسألهم عن اسمها فقالوا : كربلاء فقال : كربٌ وبلاء فقتل بها(٢).

وروى عبد الله بن نَجِىّ ، عن أبيه أنه سار مع على عليه السلام وكان صاحب مِطْهَرَته فلما حاذَى نِينَوى وهو منطلق إلى صِفِّين نادى على : اصبر أبا عبد الله ، اصبر أبا عبدالله بشط الفرات . قلت : وما ذاك ؟ قال : دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم

---

(١) صحيح البخارى ٢/٣٠٦ (كتاب المناقب . باب مناقب الحسن والحسين) .

(٢) مجمع الزوائد ٩/١٨٩

وعيناه تفيضان قلت : يانبي الله أغضبك أحدٌ ماشأن عينيك تفيضان ؟ قال : قام من عندى جبريل قبلُ فحدثنى أن الحسين يُقتل بشط الفرات وقال لى : هل لك أن أُشمّك من تربته قلت : نعم فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عينيَّ أن فاضتا (١) .

وروى عمار بن أبى عمار عن ابن عباس قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام نصف النهار أشعث أغْبَر معه قارورة فيها دم يلتقطه أو يتتبع فيها شيئا ، قلت : يارسول الله ماهذا ؟ قال : دم الحسين وأصحابه لم أزَلْ أتتبعه منذ اليوم . قال عمار : فحفظنا ذلك اليوم فوجدناه قُتل ذلك اليوم (٢) .

* * *

إنما رحل الحسينُ إلى القوم لأنه رأى الشريعة قد رُفضت ، فجدَّ فى رفع قواعد أصلها الجدّ [صلى الله عليه وسلم (٣)] ، فلما حضروه حصروه فقال : دعونى أرجع . فقالوا : لا ، انزل على حكم ابن زياد . فاختار القتلَ على الذلّ ، وهكذا النفوس الأبية .

تأبَى الدناءة لى نفسٌ نفاستُها ... تَسْعَى لغير الرِّضا بالرِّىِّ والشِّبَع
فلاكتساب العُلا حِلِّى ومُرْتحلِى ... وفى حِمِىَ المجْدِ مُصْطَافِى ومُرْتَبعى
لى هِمّةٌ ما أظن اللَّحظَ يُدْرِكها ... إلا وقد جاوزتْ فى كل مُمْتَنِع
لاصاحبَتْنِىَ نفسٌ إن هَمَمت بأن ... أرمِى بها لَهواتِ الموت لم تُطِع (٤)

ولقد تَبِع طريقَ الحسين عبدُ الله بن الزُّبَيْر ، فإن الحجاج عرض عليه الأمان فقال : والله لَضَرْبة بسيف فى عِز أحبّ إلىّ من حياة فى ذل ! وكان يحاربهم وينشد :

اصبر عصام إنه شِبْرَاق (٥) قد سَنَّ أصحابك ضَرْبَ الأعناقْ
وقامت الحربُ بنا على ساقْ

(١) مجمع الزوائد ١٨٧/٩ (٢) مجمع الزوائد ١٩٠/٩ (٣) من : ت
(٤) الأبيات لعبد الواحد بن نصر الببغاء ، وقد أورد بعضها ابن الجوزى فى ذم الهوى ص ٦٤٣ .
(٥) الشبراق : من كل شىء شدته .

فقيل له قد لحق فلانٌ وفلان بالحجاج . فأنشد :

فرّت سَلَامان وفرت النَّمِر ‌‌ ‌‌ قد[٢] نتلاقى معهم فلا نفِرّ

وكانوا يرمون بالحجارة فيقال له ما تأمن أن يصيبك حجر ؟ فيقول :

هوِّن عليك فإن الأمورَ ‌‌ ‌‌ بكفِّ الإلهِ مَقَاديرُها

فليس بآتيك مَنْهِيُّها ‌‌ ‌‌ ولا قاصرٌ عنك مأمورُها

ولبس درعاً وجاء يودِّع أمّه أسماء فقالت : ما هـذا الدرع ؟ فقال : والله مالبسْته إلا لأقوِّى نفسك !

فإنى ليُغْنينى عن السيف عَزْمتى ‌‌ ‌‌ فهل فيه ما يغنيه عن كفِّ ضاربِ

إذا عرضُ الدنيا ألَان صِلاَبها ‌‌ ‌‌ شمَخْتُ بأنفى عنه وازورَّ جانبى

فلا تنتَسبْ إلا إلى بُعْد هِمّة ‌‌ ‌‌ ولا تكتسب إلا بحُرِّ المَناقبِ

فإن دَنِيّات السجايا إذا هَوى ‌‌ ‌‌ بها المرء لم يَنْفعه عِزُّ المناصبِ

لله در هذه الأنفس فما أعزّها وهذه الهمم فما أرفعها !

ولما رأوا بعضَ الحياة مَذلّةً ‌‌ ‌‌ عليهم وعِزَّ الموت غير محرّمِ

أبَوْا أن يذوقوا العيشَ والذمُّ واقعٌ ‌‌ ‌‌ عليه وماتوا ميتةً لم تُذَمَّمِ

ولا عجب للأُسْد إن ظفرتْ بها ‌‌ ‌‌ كلابُ الأعادِى من فصيح وأعجمِ

فحَرْبة وحْشىٍّ سقَتْ حَمْزة الردَى ‌‌ ‌‌ وحَتْف علىٍّ فى حُسَامِ ابن مُلْجَمِ

* * *

أخبرنا على بن عبيد الله ، أخبرنا على بن أحمد السرىّ ، أنبأنا عبد الله بن بَطّة ، حدثنا أبو حامد محمد بن هارون الحضْرَمى ، حدثنا هلال بن بشر ، حدثنا عبد الملك

---

(٢) ب ، ج : وقد .

ابن موسى عن هلال بن ذَكْوان ، قال لما قتل الحسين مُطِرْنا مطرا بقى أثره فى ثيابنا مثل الدم .

قلت : لما كان الغضبان يحمرُّ وجهه فيتبين بالحمْرة تأثير غضبه ، والحقُّ سبحانه ليس بجسم ، أظْهَرَ تأثير غضبه بحمرة الأفق حين قُتل الحسين .

وبالإسناد قال ابن بطة : وحدثنا إسماعيل ابن إسحاق القاضى ، حدثنا سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، عن هشام ، عن محمد بن سيرين ، قال : لم ترهذه الحمرة فى السماء حتى قُتل الحسين .

قال ابن بَطَّة : وحدثنا أبو ذر الباغَنْدى ، حدثنا حماد بن الحسين الوراق ، قال سمعت على بن أخى شعيب بن حرب يقول : ناحت الجنُّ على الحسين ابن على فقالت جِنّية :

جاءت(١) نساء الحىّ يبكين شَجِيّاتِ ويلْطمن خدودًا كالدنانير نقياتِ
وَيلْبَسنَ ثياب السُّود بعد القَصبِيّاتِ

وروينا فى حديث أنه حفِظ من قول الجن :

مَسَح النبىُّ جبينَه فله بَرِيقٌ فى الخدودِ
أبَواه من عَلْيا قريش وجَدُّه خيرُ الجدود(٢)

وقال جنىٌّ آخر(٣) :

أبكِى قتيلا بكربلاء مضرَّج الجسم بالدماء
أبكى قتيلاً بكى عليه حُزْنًا بنو الأرض والسماء
أبكى قتيلَ الطغاةِ ظلماً بغير جُرْم سوى الوفاء
هتَّك أهلوه فاستحلوا ما حرَّم الله فى الإماء

---

(١) ب ، ج : جئن .   (٢) أورد الهيثمى هذا الخبر فى مجمع الزوائد ١٩٩/٩ وقال : رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفه وأبو جناب مدلس .   (٣) ب ، ج : وقالت .

يا بأبى جِسْمه المُعَرَّى إلا من الدِّينِ والحياء
كل الرزايا لهـــا عَزاء ومالِذَا الرُّزْء من عزَاء

وروينا أن صخرة وجدت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث مائة سنة وعليها مكتوب باليونانية:

أيرجو مَعْشَرٌ قتلوا حسينا شفاعةَ جَدِّه يومَ الحسابِ

ويح قاتل الحسين ! كيف حاله مع أبويه وجده !

لابد أن ترد القيامة فاطِمٌ وقميصها بدم الحسين ملَطَّخُ
ويلٌ لمن شفعاؤه خصماؤه والصُّور فى يوم القيامة يُنْفَخُ

إخوانى : بالله عليكم من قَبُح على يوسف بأى وجهٍ يَلْقَى يعقوب !

لمّا أُسر العباس يوم بدر سمع رسول الله صلى عليه وسلم أنينه فما نام ، فكيف لو سمع أنين الحسين ؟

لما أسلم وحشىٌّ قال له : غَيِّب وجهك عنى . هذا والله والمسلم لا يؤاخَذ بما كان فى الكفر ، فكيف يَقْدر الرسولُ صلى الله عليه وسلم أن يُبْصر من قتَل الحسين ؟

***

قوله تعالى : « ومن قُتِل مظلوما فقد جعَلْنا لوليِّه سُلْطانا »

لقد جمعوا فى ظلم الحسين ما لم يجمعه أحد ، ومنعوه أن يرد الماء فيمن ورَد ، وأن يرحل عنهم إلى بلد ، وسبُوا أهلَه وقتلوا الولد ، وما هذا حَدٌّ[١] دَفَع عن الولاية هذا سُوء مُعْتقَد .

نبع الماء من بين أصابع جَدّه فما سقَوْه منه قطرة !

كان الرسول صلى الله عليه وسلم من حُب الحسين يقبل شفتيه ويحمله كثيرا على

(١) ب ، ج : جد دفع .

عاتقيه(١) ، ولما مشَى طفلا بين يدى المنبر نزل إليه ، فلو رآه مُلْقًى على أحد جانبيه والسيوف تأخذه والأعداء حواليه والخيل قد وطئت صدره ومشت على يديه ودماؤه تجرى بعد دموع عينيه لضجَّ الرسول صلى الله عليه وسلم مستغيثا من ذلك ولعَزَّ عليه .

كربلاء زِلْت كرباً وبَلَا ... مالقِى عنــدكِ أهل المصطفَى
كم على تُرْبِك لمّا صُرعوا ... من دمٍ سالَ ومن دَمْع جرَى
يارسول الله لوعايَنْتَهم ... وهمُ ما بين قتْل وسِباَ
من رَمِيض(٢) يُمْنَع الظّلّ ومِن ... عاطش يُسْقَى أنابيبَ القَنا
نرأتْ عيناك فيهم منْظرا ... للحشَا شَجْواً وللعين قَذَى
ليس هذا لرسول الله يا ... أمــة الطغيان والمَيْن جزَا
غارسٌ لم يَألُ فى الغَرْس لهم ... فأذاقوا أهــلَه مُرَّ الجنَى
جَزروا جَزْرَ الأضاحى نَسْله ... ثم ساقوا أهلَه سَوْق الإما
هاتفاتٍ يارسول الله فى ... بُهر(٣) السَّعْىِ وعثرات الخُطَا
قتلوه بعد عِلْمٍ منهم ... أنه خامسُ أصحاب الكِسَا(٤)
ياجبال المجد عزًّا وعُلَا ... وبدورَ الأرض نورا وسناَ
جعل الله الذى نالــكم ... سبب الوجْد طويلاً والبُكَا
لا أرى حُزنــكم يُنْسَى ولا ... رُزْأكم يُسْلَى ولو طال المدى

***

سبحان من رفع للحسين بقتله مكانا ، ودَمغ من عاداه فعاد بعد العز مُهاَنا ، ما ضرَّه

(١) ت : على كتفيه . (٢) الرميض : من أصابته الرمضاء ، وهى شدة الحرِ بالهاجرة .
(٣) البهر : انقطاع النفس من الإعياء .
(٤) أى الذين غطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ببردته وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى . وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى وفاطمة والحسن والحسين .

حين الشهادة من أوسعه خذلانا « ومن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليّه سلطانا » هلَكَ[١] أهلُ الزّيْغ والعناد وكأنهم ما ملكوا البلاد وعاد عليهم اللعنُ كما عاد على عاد ، أين يزيد أين زياد ، كأنهما ما كانا لا كانا « فقد جعلنا لوليه سُلْطانا »

تمتعوا أيامًا يسيرة ، ثم عادت أجنحة الملك كسيرة ، وبقيت سيرةُ الحسين أحسنَ سيرة ، ومن عزّتْ عاقبته والسِّيرة[٢] فكأنْ لم يلق هَوانا « فقد جعلنا لوليّه سُلْطانا »

مُزِّقوا والله كلَّ مُمَزّق ، وتفرقوا بالشتات أيّ مُتَفَرّق ، وظنوا أنهم رَفَوْا[٣] ما جَنَوْا فتَخرّق ، إن ناصر المظلوم لايتوانى « فقد جعلنا لوليّه سلطانا »

تعززوا على [مثل][٤] الحسين وطالوا ، وظنوا بقاء الملك لهم بما احتالوا ، وكِيلَ لهم من الذم أضعافَ ما كالوا ، وعجِّل قلعهم من السلطة فزالوا سُلْطانا سلطانا « فقد جعلنا لوليه سلطانا » .

ويلهم لو دبروا أمرهم لرفعوا بطاعة الحسين قَدْرهم ، ملكوا أياما ثم بقى الخزى دَهْرهم ، اشتغلوا اليوم بتسبيحكم ودعوا ذكرهم أهوانا « ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطانا » . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) ب، ج : هكذا . محرفة . (٢) ب،ج : والسريرة . (٣) ت : وظنوا رفوا. (٤) ليست فى ت

المجلس الثانى

فى ذكر رجب

الحمد لله الذى فلق[(١)] النوى والحب ، وخلق[(٢)] الفاكهة والأبّ ، وأبغض وكره وأحبّ ، وأمرض وداوى وطبّ ، أنشأ الحيوان بقدرته فدبّ ، وبناه فأحسن تدبيره حين ربّ ، فالعجب لمربوب يجحد الرب ، عمّ إنعامه فلم ينس فى البحر الحوت وفى البر الضب. أحمده على تبليغنا هذا الشهر الشريف الأصبّ ، وأشكره على إيمان به فى القلوب صبّ ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له شهادةً اجتمع بها مراد التوحيد واستتبّ ، وأن محمداً عبده ورسوله المسمىّ الأمينَ صغيرا وما شب ، ثم قهر الأعداء فألبسهم الزنّار والقبّ[(٣)] وأجيب عنه لكل من عابه وسبّ « تبّتْ يدَا أبى لهب وتبّ » وعلى صاحبه أبى بكر الذى خلق صافيا فى الصحبة ولب ، وعلى عمر الذى قمع كلّ جبارٍ على الكفر أكبّ فكبّ ، وعلى عثمان المناجى طويلَ ليلته مناجاةَ الصب، وعلى علىٍّ أشجع من حامىَ عن الإسلام وذبّ ، وعلى عمه العباس الذى أتته السحاب لما ذكر اسمه وهبّ.

اللهم باركْ لنا فى شهر رجب الأصمّ واحفظنا فيه من موجبات السُّخْط والذم ، وحُطْنا حياطةً ننسى بها لطف الأب والعمّ ، عُمَّنا بأياديك ياخير من أعطى وعمّ .

***

اعلموا إخوانى أن شهركم هذ شهر محرّم[(٤)]. وقد أخبرنا أبو على بن محبوب ، أنبأنا طراد ابن محمد ، أنبأنا الحسين بن عمر بن برهان[(٥)] ، حدثنى عثمان بن أحمد ، حدثنا إسحق ابن إبراهيم الحبلىّ ، حدثنا الحسن بن على بن يزيد الصّدائى ، [قال][(٦)] حدثنا أبى ،

(١) ت : فالق النوى (٢) ت : وخالق . (٣) القب : مايدخل فى جيب القميص من الرقاع .
(٤) ؟: شهر محترم . (٥) ؟ : ابن بهران . (٦) من ؟ .

عن هارون بن عنترة ، عن أبيه عن على بن أبى طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن شهر رجب شهر عظيم من صام منه يوما جزى [الله][١] له ألف سنة ومن صام منه يومين جزى [الله][١] له ألفى سنة ومن صام منه ثلاثة أيام جزى [الله][١] له [صوم][٢] ثلاثة آلاف سنة ، ومن صام من رجب سبعة أيام غُلقت عنه أبواب جهنم ، ومن صام منه ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية فيدخل من أيها شاء ، ومن صام منه خمسة عشر يوما بدِّلت سيئاته حسنات ونادى مناد من السماء قد غُفر لك فاستأنف العمل »[٣] .

وروى من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة نهرا يقال له رجب من صام يوما من رجب سقاه الله عز وجل من ذلك النهر »

وروى من حديث أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :« رجب من الشهور الحرم وأيامه مكتوبة على أبواب السماء السادسة ، فإذا صام الرجل منه يوما وجرَّد صومَه لتقوى الله نطق الباب ونطق اليوم وقالا : يارب اغفر له . وإذا لم يتم صومه بتقوى الله لم يستغفرا له وقيل له خذ حظ نفسك » .

وقد رويت أحاديث كثيرة فى فضائله من هذا الجنس غير أنها لاتثبت ولاتصح ، فلذلك تجنبنا ذكرها .

[وما يروى فيه من صلاة الرغائب فحديث لاأصل له وإنى لأغار لصلاة التراويح من صلاة الرغائب وإنما يتهم بوضعها ابن جَهْضم][٤] .

وقد روى عن على ابن أبى طالب أنه قال يعجبنى أن يفرِّغ الرجلُ نفسَه فى أربع ليال: ليلة الفطر ، وليلة الأضحى ، وليلة النصف من شعبان وأول ليلة من رجب .

وروى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عَدِىّ بن أرْطاة : إن عليك بأربع ليال ، فإن الله يُفْرِغ فيهن الرحمةَ إفراغا . فذكر هذه الليالى الأربع .

(١) من ت (٢) من ب، ج . (٣) ذكره فى اللآلىء المصنوعة ٢/١١٥ وقال : لايصح ، الفرات متروك . (٤) ليست فى ا .

وقال قيس بن عَبَّاد : فى اليوم العاشر من رجب يمحو الله ما شاء ويُثبت .

وقد أغرى القُصَّاص والمتزهدون بالتحريض على صومه [١] ، وإنما يصومه كلَّه من يصوم السَّنة . قال حنبل سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن صيام رجب فقال : من كان يصوم السنة وإلا فلا يصمه متواليا يكره له ذلك ولا يشبه برمضان .

وقد كان عمر بن الخطاب يضرب أكفَّ الناس فى رجب حتى يضعوها فى الطعام ويقول: كلوا فإنما هو شهر كانت الجاهلية تعظِّمه .

ودخل أبو بَكْرة على أهله فرأى عندهم سِلاَلا وكيزانا فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجب نصومه . فقال : أجعلتم رجبا كرمضان فألقى السلال والكيزان . قال عمرو الزاهد : حدثنا ثعلبة ، عن سلمة ، عن الفرَّاء ، عن الأصمعى وعن ابن الأعرابى عن الفضل قال : كلُّ العرب تقول : رجَبْتُ فلاناً أرْجُبه رَجْبا ورجُوبا إذا عظَّمته . قال ثَعْلب : وإنما سمِّى رجبا [٢] لتعظيمه . قال سليمان الشاذَكُونى : إنما سمِّى الأصم لأن العرب كانت لا يُغير بعضها على بعض فيه ولا تحمل فيه السلاح ، وكانوا لا يسمعون قَعْقعة السلاح فسمى أصَمَّ به . وأما تسميته برجب مضر فلأنها كانت تعظِّمه أشد من جميع العرب فأضيف إليها .

وقد خصه خَلْق كثير من العوامّ بإخراج الزكاة فيه . وهذا جهل منهم فإن الزكاة إنما تجب فى المال إذا حالَ الحولُ عليه ، فمتى ملك النصاب فى المحرَّم مثلا وجبت الزكاة فى المحرم ، فمتى أخرَّها إلى صَفَر أَثِم لأنها حقوق الفقراء فُرِضت لحاجتهم فلا وجه للتأخير . وقد يروى القُصَّاص فى رجب من الفضائل وأفضال الطاعات أشياء كثيرة لا نرى ذكر شىء منها لعِلْمنا بعدم صحته ، بل نقول : ينبغى للإنسان أن يبادر [إلى] [٣] فعل الخير على الدوام والله الموفق .

---

(١) ا : على صيامه (٢) ا : رجب . (٣) من ا .

﴿ الكلام على البسملة ﴾

ألا ياغافلا يُحْصَى عليه　　من العمل الصغيرةُ والكبيرَهْ
يصاح به ويُنذَر كلَّ يوم　　وقد أنْسَتْه غفلتُه مَصِيرَهْ
تأهَّبَ للرحيل فقد تدانَى　　وأنذَرك الرحيلَ أخٌ وجيرَه
وأنت رَخِيّ بال فى غرور　　كأن لم تقترفْ فيها صَغِيرَهْ
وكم ذَنْبٍ أتيت على بصيرة　　وعينُك بالذى تأتى قريره
تحاذر أن تراك هناك عينٌ　　وإنّ عليك لَأعْيُنُ البصيرهْ
وكم حاولتَ من أمرٍ عظيم　　مُنعتَ برحمةٍ منه وخيرَه
وكم من مَدْخل لو مِتّ فيه　　لكنت به نَكَالًا فى العشيره
وُقيت السوء والمكروه فيه　　ورُحْت بنعمة فيه سَتِيره
وكم من نعمةٍ لله تُمْسِى　　وتصبح ليس تعرفها كثيره

* * *

يامن بين يديه الموت والحساب ، والتوبيخ الشديد والعتاب ، وعليه بأفعاله وأقواله كِتاب ، وقد أذنب كثيرا غير أنه ما تاب ، وكلما عُوتب خرج من باب إلى باب ، إلى متى هذا الجهل وإلام هذا العاب ، ماأظنك حاضرا عدوك فيمن غاب .

أيَقْظان أنت اليومَ أم أنت نائمُ　　فكيف يطيق النومَ حيرانُ هائمُ

ألست الذى دُمْت على الخطايا وعصيت ، وبارزت بالقبيح وما استحيت ، وعلمت تحريمَ الذنب ثم أتيت ، وعرفت عظيم الجزاء وتناسيت ، ستُكَفّ [منك][1] الحسُ بعدَ الحركة واللّمس ، وسيذهب اليومُ كما ذهب أمْس ، وسيُبدَّل النطق بالسكوت

(١) من أ .

والهمْس ، وستعدم نورَ القمر وضوء الشمس ، وسيُقْلَع البستان ويَيْبس الغَرْس ، وقد قَرُب وقت الغَمْس فى بحر الرَّمْس ، وسيَنْسى ذو العلم الدَّرْس [بالدَّرْس][1] :

لا تَلْبس الدهرَ على غِرّة فما لموتِ الحىِّ من بُدِّ
ولا يخادعك طويلُ البقَا فتَحْسب الطولَ من الخُلْدِ
يَنْفَدُ ما كان له آخرٌ ما أَقْربَ المهْد من اللَّحْد

يامن يُنْصَح وليس منه إلا الإباء ، أين الأجداد أين الآباء ، أين الإخوان أين الأقرباء ، أدركَ القومَ بعد القهر السِّبَاء ، فبكى لسوء مُنْقَلبهم الغرباء ، تالله لقد قامت بالمواعظ الخطباء ، ولقد أذَّنتْ برحيل الجيش النُّقَباء ، ولكن قد عمَّت[2] الغفلة والغَباء ، وكأن قد كفت عن الدواء الأطباء ، وهل مرض القلوب إلا حُبّ الدنيا ، فعلى الدنيا العَفاء :

أقلُّ قليلها يكفيك منها ولكن لست تَقْنع بالقليلِ
ومن هذا الذى يَبْقى وتَبْقَى مَضاربه بمَدْرَجةِ السُّيولِ

ويحك أنت فى القبر محصور إلى أن ينفخ فى الصُّور ، ثم راكب أو مجرور ، حزين أو مسرور ، مُطْلَق أو مأسور ، فما هذا اللهو والغرور . الحازم من تزود لما به قبل أن يصير لمآبه .

إخوانى إنكم تَغْدون وترُوحون فى آجال قد غيِّبت عنكم ، فانظروا لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم ، الوحَا الوحَا ، فالطالب حثيث ، تذكروا تلك الصَّرْعة بين الأهل وهم لا يقدرون على ضرّ ولا نَفْع ، والله ما بات عاقلٌ قط إلا على فراش حَذر ، إنما هو دَبيب من سُقْم ثم تؤخذون بالكظم ، فإن زلّت القدم لم ينفع ندم ، لا توبة تُنال ولا عثرة تُقَال ولا فداء بمال .

أأَغْفَلُ والدهر لا يَغفل وأنسَى الذى شأنُه أعْضَلُ

(١) ليست فى ؟ (٢) ت : قد غرت .

ويُطْمعنى أننى سالمٌ وداء السلامة لى أقْتَلُ
ويمضى نهارى وليلى معاً بما غيره الأحسَن الأجْمَلُ
وآمل[١] أنى أفوت الحمام أمانٍ[٢] لعَمْرك لى ضُلَّلُ[٣]
وكيف يرى آخِرٌ[٤] أنه سيَبْقى وقد هلكَ الأولُ
فحتى متى أنا لا أرْعَوى وكم ذا أقول ولا أفعل
أياذاهِلًا ونداء الحتوفِ فى الناس توقظ من يَذْهل[٥]
ألا أين أهلُ النعيم العزيز وأين الأجَالدُ والبُزَّلُ[٦]
تناولهم من قِلاَل القُصور فأهلكهم مُزْعِجٌ مُعْجِلُ[٧]

***

قلْ للذين أعرضوا عن الهدى فما تبعوا ، وخوِّفوا يوم الردَى فما ارتدعوا ، وسمعوا المواعظ فكأنهم ما سمعوا ، تقلبوا كيف شئتم وما شئتم فاصنعوا .

غداً توفَّى النفوسُ ما كسبت ويَحْصد الزارعون مازَرَعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤوا فبئس ماصنعوا

لله دَرّ أقوام بادروا الأعمالَ واستدركوها ، وجاهدوا النفوس حتى ملكوها ، وتأهبوا لسبيل[٨] التوبة ثم سلكوها ، وعرفوا عيوب العاجلة فتركوها ، استعمالهم الأدب[٩] فى جُمادى كرجب .

ياهذا إذا هممت بخير فبادر هواك لئلا تُغْلب ، وإذا هممت بشر فسوِّف هواك لعلك تَغْلب .

---

(١) ا : أؤمل . (٢) ب ، ج : أمانا . (٣) ا: ظلال . ب ، ج يضلل وما أثبته من ت .
(٤) ا : أحد . (٥) ا : تذهل من يذهل .
(٦) البزل : جمع بازل وهو الرجل الكامل فى تجربته . (٧) ب ، ج : يعجل . (٨) ا : لسبل .
(٩) ا ، ب ، ج . للأدب . وما أثبته من ت .

الحكمة نور الفطرة ، والصواب فرع الرويّة ، والتدبير قيمة الهمة ، والهوى ضد الحزم ، ثقّف نفسك بالآداب قبل صحبة الملوك ، فإن سياسة الأخلاق[1] مَراقى المعالى .

قال بَزَرْجَمْهر : أخذتُ من كل شىء أحسنَ مافيه حتى من الكلب والغراب والهرة . قيل : وما أخذتَ من الكلب ؟ قال : ذَبُّه عن حَريمه وإلْفه لأهله . قيل : فمن الهرة ؟ قال : رِفْقها[2] عند المسألة ولين صِياحها . قيل فمن الغراب ؟ قال : شدة حَذَره .

يا هذا صُنْ حياةَ عقلك عن مخالطة غَوْغاء نفسك ، من طلب المعالى استَقْبل العَوالى ، من لازم الرُّقاد فاته المراد ، من دام كسَله خاب أمله .

من صَغُرت نفسُه فهِمّته أبلغُ فى قَصْده من المِحَنِ
وقلّ ما التذّ بالسرور فتىً لم يَجْنه من عَواقب الحزَنِ

لولا سخط نفس أبى بكر عليه لمفارقة هواها مانال مرتبة « أنا عنك راضٍ » لولا عُرْى أُوَيْس مالَبِس حُلّة « يشفع فى مثل ربيعة ومضر[3] » .

الكلام على قوله تعالى :
﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله[4] ﴾

قال المفسرون : نزلت هذه الآية من أجل النسىْ الذى كانت العرب تفعله . والنسىْ تأخير الشىء وكانت العرب تحرّم الشهورَ الأربعة . هذا مما تمسكت به من ملة إبراهيم ، فربما احتاجوا إلى تحليل المحرّم لحرب تكون بينهم فيؤخّرون تحريمَ المحرّم إلى صفر ثم يحتاجون إلى تأخير صفَر ، ثم كذلك حتى تتدافع الشهور فيستدير التحريم على السَّنَة . فكانوا يَسْتنسئون الشهرَ الحرام ويَسْتقرضونه .

قال الفرّاء : كانت العرب فى الجاهلية إذا أرادوا الصَّدَر من مِنًى قام رجل من بنى كنانة

---

(١) ت : من مراق (٢) ب ، ج : رقتها .
(٣) هو أويس القرني الصحابى . (٤) سورة التوبة ٢٦ .

يقال له نعيم بن ثعلبة ، وكان رئيس الموسم فيقول : أنا الذى لا أُعَاب ولا أُخَاب ولا يُردُّ لى قضاء . فيقولون : أنسِئْنا شهراً يريدون أخِّر عنا حرمةَ المحَرَّم فاجعلها فى صفر . فيفعل ذلك . وقال مجاهد : أول من أظهر النسىء جُنَادة بن عوف الكِنَانى فوافقت حجة أبى بكر الصديق ذالقعدة ، ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم فى العام القابل فى ذى الحجة فذلك حين قال : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خَلق الله السموات والأرض .

أخبرنا عبد الأوَّل ، أنبأنا الداودى ، أنبأنا ابن أَعْيَنَ ، حدثنا الفَرَبْرِىّ ، حدثنا البخارى ، حدثنا محمد بن سلام ، أخبرنا عبد الوهاب ، أنبأنا أيوب ، عن محمد بن أبى بَكْرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلَق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حُرُم ثلاثة متواليات : ذو القَعْدة وذو الحِجّة والمحرَّم ورجب مضر [الذى] [1] بين جمادى وشعبان .

أخرجاه فى الصحيحين [2] .

قال العلماء : أعلم الله عز وجل بهذه الآية أن عدد شهور المسلمين التى يعدونها [3] اثنا عشر شهرا على مَنازل القمر . وقوله : « فى كتاب الله » أى فى اللوح المحفوظ الذى كتبه الله يوم خَلق السموات والأرض « منها أربعة حرم » وإنما سماها حُرُما لمعنيين : أحدهما تحريم القتال فيها . والثانى : لتعظيم انتهاك الحرمات فيها .

وقوله تعالى « ذلك الدين القيِّم » قال ابن قتيبة : يعنى الحساب الصحيح والعدد المستوى .

« فلا تظلموا فيهن أنفسكم » اختلفوا فى هذه الكناية على قولين : أحدهما أنها تعود على [4] الاثنى عشر شهرا . قاله ابن عباس . فيكون المعنى : لاتجعلوا حرامها حَلالا ولا حلالها حراما كفعل أهل النسىء . والثانى : أنها ترجع إلى الأربعة الحرم وهو قول

(١) من أ (٢) صحيح البخارى ١٦٩/٢ وصحيح مسلم كتاب القسامة حديث رقم ٢٩ .
(٣) ب ، ج : التى يسمونها (٤) أ : إلى .

قتادة والفرّاء واحتج بأن العرب تقول لما بين الثلاثة إلى العشرة : لثلاث خلون وأيام خلَوْن . فإذا جازت [1] العشرة قالوا : خلَتْ ومضت . ويقولون لما بَيْن الثلاثة إلى العشرة هن وهؤلاء فإذا جزت [2] العشرة قالوا : هى وهذه ، إرادة أن يُعْرَف اسمُ القليل من الكثير .

وفى المراد بهذا الظلم قولان : أحدهما : أنه خص النهى عن الظلم بهذه الأشهر لأن شأن المعاصى يُعَظَّم فيها أشدَ من تعظيمه فى غيرها لفضلها على ما سواها كما عظِّمت طاعة الحرَم ومعصيته وإن كان العبد مأمورا بذلك فى غيرها . هذا قول الأكثرين . والثانى : أن المراد بالظلم فيهن فعل النسىء قاله ابن إسحاق .

* * *

واعلم أن تفضيل بعض الشهور على بعض ليكون الكف عن الهوى ذريعة إلى استدامة الكف فى غيرها ، تدريجا للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعا .

فبادروا فى هذا الشهر من الخير كل مُمكن مادام الأمر يمكن ، واعلموا أن العمر لا قيمة لأوقاته وزمان الصحة لامِثْل لساعاته ، فحاسبوا أنفسكم قبل الحِسَاب وأعِدُّوا للسؤال صحيحَ الجواب ، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام واغسلوا عن الأَجْرام قبيح الإجرام ، قبلَ ندم النفوس حين سِيَاقها ، قبل طَمْس شمس الحياة بعد إشراقها ، قبل ذوق كأس مُرّة فى مذاقها ، قبل أن تدور بُدور السلامة فى أفلاك مِحَاقها ، قبل أن تُجْذَب الأبدانُ إلى القبور بأطواقها ، وتَفْتَرِش فى اللحود أخلاق أخلاقها ، وتنفصل المفاصل بعد حُسْن اتساقها ، وتشتد شدة الحسرات حاسرةً عن ساقها ، وتظهر مُخَبَّآت الدموع بسرعة اندلاقها ، وتتقلب القلوبُ فى ضنك ضِيق خناقها ، ويطول جزَع من كان فى عمره [3] ناقها ، وتبكى النفوس فى أَسْرها على زمان إطلاقها :

(١) ب ، ج : فإذا جزت (٢) أ : فإذا حضرت . (٣) أ : طول عمره .

ألا يالقومى لحىٍّ رَدِى ... وللمرء يَجْهل مافى غدِ
وللميْت جَمّع أمواله ... لآخر فى الحىِّ لم يَجْهَدِ
سيُلْقيك أهلك والحاملون ... وأعضاء جسْمك لم تبردِ
ويصبح مالكُ للوارثين ... وأنت شَقِيت ولم تُحْمَدِ

هذا حادى المات قد أسرع ، هذه سيوف المنّات قد تقطع ، هذه قصور الإخوان بَلْقَع ، مال صاحبُ المال فإذا المال يُوزَّع ، أنفعه حرصه حين سلب ماجمع أجمع ، إنما هذه الدنيا تخذ منها أودع ، إن وصلتْ فعلى نية أن تقطع ، وإن بذلت فبعزيمة أن تمنع ، انتظر سَلْبها يامشغولا[1] بهـا ، وتوقع أسفا لِكَبدٍ على حبِّها تتقطع ، أتراها أنهـا ماعلمت أنها تخدع ، أفيها حيلة أم فى وَصْلها مَطْمَع ، أين كسرى أين قيصر أين تبَّع ، أين حاتِم الُجود أين من كان يجمع ، أين قيس وسَحْبان أين ابن المُقَفَّع ، إنها لتمحو العيْن ثم للأثر تَقْلع ، إن لك مَقْنَعا فى وعظها لو كفاك المقنع ، يامفرِّقا فى البِلَى قل لمن تجمع ، إذا خلوتَ وخُلِّيت فكيف تصنع ، أترى أنت عندنا أو ماتسمع ، ياأُطْروش الشَّقْوة أما الحديث معك أماَ التخويف لك ، واعجبا رجَب الأصم أم أنت[2] :

أدْمعى لفُرقتكم ... فى انهمالها سُحُبُ
مَسْمَعِى إذ عـذَلوا ... فى صبابتى رَجَبُ

***

من مُبْلغ قومى على قرْبهم ... وبُعْد أسماع من الواعظينْ
هُبُّوا فقد طالت بكم نومة ... وانتبهوا من رقدة الغافلينْ
حثُّوا مطايا الجد ترْفل بكم ... ناجين فى الناجين أو مُعْذرين
سلُوا قِبَاب الملْك عن مَعْشرٍ ... كانوا لها من قَبْلكم مُبْتَنين

(١) أ : يامشغوفا . (٢) ب ، ت : أو أنت .

تُخْبِرُكم عن زمنٍ لم يزَل   يَحْدو لقوم مضَوْا لاعبينْ
قد شاخ جدُّ النـاس فى باطل   وضربوا فى غمْرة حائرين
وأطبق الشرُّ على جَمْعهم   ودقَّ شخصُ الحقِّ فى العالمين
وركضوا فى الَجْور ركضاً فما   تحسبهم تقوى حياء ودين
تسرُّهم خضراء دنياهمُ   قد أمِنوا الدهر وبئس القَرين
فإن يكونوا من أُناس درَوْا فإننى   كنت من الناصحين
مَعْذرةً منى إلى حاضر   وأثرٍ فى صحف الغابرين
ياعجباً من ناصح لم يُطَعْ   كم حازم قد ضاع فى الجاهلين

لله درّ قومٍ فهموا من الوجود ، وتأملوا المقصود واشتغلوا بطاعة المعبود ، وانتبهوا والخلق رقود ، يصفّون الأقدام [يناجون الملك العلام][1] ويصفّون الهمم ، ويَصِفون تقصيرهم ويصفون الشكر للنعم ، تحملوا تعب السهر وكابدوا مشقة الظّما ، وأخلصوا العمل فزاد عملهم[2] ونماَ ، وجرى القدَر فرَضُوا ولم يعترضوا بلِمَ ولما ، فياحسن مُجْتهدِهم يَذْكر الذنب فيبكى ندَما .

إخوانى : اسلكوا جادَّة القوم لعل مشاعِلهم تلوح لكم ، تعلقوا بغبارهم لعل الحادى ينوّه بكم ، صوِّتوا بالقوم عسى يقف بعض الساقة لكم ، ابكوا على تأخركم لعل عطف الرحمة تنْعطف نحوكم .

أوْمَض لى على الغُويرْ بارق   فهاج من وميضه التأسّفُ
لهفى على عيش مضى برامة   أوردَ مشتاقا به تلُّهفُ
يامالكى رِقَّ الحب قَسَمًا   عليكمُ بحبه تعطّفوا
وياحُداة الظّعْن قد أسلَمنى   إلى الضّنَا فِراقكمْ لى فقِفُوا

(١) من : ت (٢) ا : فزاد عليهم .

لعلّنى أن أشتفى بنظرةٍ يَبلُّ منهـا السّهـامُ المدْنَفُ
فنى الضلوع جَمْرة ماتنطفى وفى الشئون عَبْرة ماتُنْزَفُ

* * *

إخوانى : كأنكم بالحافظ الذى حَرسكم وقد حصَدكم بعد أن غرسكم ، وبعث الموت فسيَّب فرَسكم وفرَسكم ، فلينوا إلى التقى فى هذه الأشهر وخلوا شَرسكم « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » .

هـذه أوقات مُعَظَّمة وساعات مكرَّمة وقد صيَّرتم ضُحاها بالذنوب عَتمة ، فبيِّضوا بالتوبة صحفكم المظْلمة ، فالملَك يكتب خطاكم ونفَسكم « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » .

لقد ضيعتم مُعْظم السَّنَة فدعوا من الآن هذه السِّنَة ، واسمعوا المواعظ قد نطقت بألسنة ، ودَعُوا الخطايا يا فيكفى ما قد وكَسَكم « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » .

البدار البدار قبل الفَوْت ، الحذار الحذار فقد قَرُب الموت ، اليقظة اليقظة فقد أسمع الصوت ، قبل أن يضيق الحساب مَحْبسكم « فلا تَظْلموا فيهن أنفسكم » لابد أن تنطق الجوارح وتشهد عليكم بالقبائح ، فاملأوا الأوقات بالعمل الصالح ، فإنكم إذا نزلتم بطون الصفائح آنسكم « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » .

اعزموا اليومَ على ترك الذنوب ، واجتهدوا فى إزالة العيوب ، واحذروا سخَط علاَّم الغيوب ، واكتبوا على صفحات القلوب مجلسكم « فلا تَظْلموا فيهن أنفسكم » .

المجلس الثالث

فى ذكر المعراج

الحمد لله فالق الحبِّ والنَّوَى ، وخالق العبد ومانَوى ، المطَّلع على باطن الضمير وما حوَى ، بمشيئته رشَد من رشَد وغوى من غوى ، وبإرادته فسد مافسد واستوى ما استوى ، صَرف من شاء إلى الهدى وعطف من شاء إلى الهوى ، قرَّب موسى نَجِيًّا وقد كان مَطْويًّا من شدة[1] الطوى ، فمنحه فَلاحا وكلَّمه كِفاحا وهو بالواد المقدس طُوًى . وعَرج بمحمد إليه فرآه بعينيه ثم عاد وفراشه ما انطوى . فأخبر بقربه من ربه وحدث بما رأى وروى ، فأقسم على تصديقه من حَرسه بتوفيقه عن قوَى « والنجم إذا هَوى ما ضلَّ صاحبُكم وما غوى[2] » .

أحمده على صَرْف الهم والجوَى ، حمد من أناب وارعوى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له فيما نشَر وطوى ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله وعُودُ الهُدَى قد ذَوى ، فسقاه ماءَ المجاهَدة حتى ارتوى ، صلى الله عليه وسلم وعلى أبى بكر الصديق صاحبه إن رحَل أو ثوَى ، وعلى الفاروق الذى وسَم بجِدّه[3] جبينَ كل جبار وكَوَى ، وعلى ذى النورين الصابر على الشهادة ساكناً ما التَوى ، وعلى علىّ الذى زهد فى الدنيا فباعها وما احتوى[4] ، وعلى عمه العباس الذى منع الله به الخلافة عن غير نبيّه وزَوى .

***

قال الله عز وجل : « والنجم إذا هَوى » .

هذا قَسم . وفى النجم خمسة أقوال : أحدها أنه الثريا . رواه العَوْفى عن ابن عباس . قال ابن قتيبة : والعرب تسمى الثرّيا وهى ستة أَنْجم نجماً . وقال غيره : هى سبعة أنجم ،

(١) أ : بشدة الطوى . (٢) سورة النجم
(٣) أ : وسم بجده وحيز كل جبار . (٤) كذا فى ا وفى ب ، ج : فباعها واجتوى .

فستةٌ ظاهرة وواحد خَفِيٌّ يَمْتحن الناسُ به أبصارهم .

والثانى : الرُّجوم من النجوم ، وهى ما يُرْمَى به الشياطين . رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنه القرآن نزل نُجوماً متفرقة . رواه عطاء عن ابن عباس . وقال مقاتل : كان ينزل نجوماً ، ثلاث آيات وأربع آيات ونحو ذلك .

والرابع : نجوم السماء كلها . روى عن مجاهد . فعلى هذا هو اسم جنس .

والخامس : أنها الزُّهَرة قاله السُّدّى . فعلى قول من قال : النجمُ [هو][1] الثريا يكون « هوَى » بمعنى غاب . ومن قال : هى الرجوم يكون هويّها فى رجْمِ[2] الشياطين ومن قال القرآن يكون هوى نزل[3] . ومن قال نجوم السماء كلها ففيه قولان : أحدهما أن هويّها حين تغيب . والثانى : أن تَنْتَثر يوم القيامة .

قوله تعالى : « ما ضلَّ صاحبُكم » هذا جواب القسم. والمعنى : ما ضلَّ عن طريق الهدى والمراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما غوى » .

قوله « وما يَنْطِق عن الهَوَى » أى ما يتكلم بالباطل . وقال أبو عبيدة : عن بمعنى الباء . وذلك أنهم قالوا : إنه يقول القرآن من تِلْقاء نفسه .

« إنْ هو » أى ما القرآن إلا « وحىٌ » من الله « يُوحَى . عَلَّمه شَدِيدُ القُوَى » أى علم جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم . وكان من قوّته أنه قلع قُرَيات قوم لوط وحملها على جناحه فقَلَبها عليهم . وصاح بثمود فأصبحوا خامدين .

« فاستوَى وهو بالأُفق الأعْلَى » فيه قولان : أحدهما فاستوى جبريل ، وهو يعنى النبي صلى الله عليه وسلم . والمعنى أنهما استويا بالأفق الأعلى لمّا أُسرِىَ برسول الله

---

(١) من ا . (٢) كذا فى ت . وفى ا : يكون هوى بمعنى رمى الشياطين : وفى ب ، ج : يكون هويها فى رمى الشياطين .

(٣) ا : بمعنى نزول القرآن .

صلى الله عليه وسلم . قاله الفرَّاء . والثانى : فاستوى جبريلُ وهو ، يعنى جبريل ، بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية ، لأنه كان يتمثل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هبط عليه بالوحى فى صورة رجل ، وأحبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يراه على حقيقته فاستوى فى أفق المشْرِق فملأ الأفق فيكون المعنى : فاستوى جبريل بالأفق الأعلى فى صورته قاله الزجَّاج . والأفق الأعلى : مَطْلع الشمس وإنما قيل له الأعلى لأنه فوق جانب المغرب فى صعيد الأرض لا فى الهواء .

قوله تعالى : « ثم دنَا فتدَلَّى » قال الزجاج دنا : بمعنى قَرُب . وتدلى : زاد فى القُرْب ومعنى اللفظين واحد .

وفى المشار إليه بقوله : « ثم دنا » ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الله . روى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث شَريك ابن أبى نمر عن أنس قال : « ثم دنا[1] الجبّار ربُّ العزة »[2] وقد قال الخطَّابى : هذا من غَلط شريك راوِى[3] أنس .

قال ابن الجوزى : قلت : وإذا كان الدنوّ لا على ما يُعْقَل فى الأجسام كان المراد به القُرْب المذكور فى قوله تعالى : « من تقرَّب منى شِبْرا تقربتُ منه ذِرَاعاً » فإن قيل : كيف يصح هذا وقد حُصِر قَدْر المسافة ؟ قلنا : إنه مثل بأقرب الأشياء كما قال : « ونحن أقربُ إليه من حَبْل الوَريد »[4] .

والثانى : ثم دنا محمد من ربه . قاله ابن عباس .

والثالث : أن جبريل دنا من محمد . قاله الحسن .

والقابُ : القَدْر . وقال ابن فارس : القاب ما بين المَقْبَض والسِّيَة ، وهى ما عُطف من

(١) ب ، ت ، ج : قال دنا . وما أثبته من أ .
(٢) صحيح البخارى كتاب التوحيد باب قوله : « وكلم الله موسى تكليما »
(٣) كذا فى ت وهو الصواب . وفى أ : وراء أنس . وفى ب ، ج : ورأى أنس .
(٤) سورة ق ١٦ .

طَرَفى القَوْس . وقال ابن قتيبة : قَدْر قَوْسين . وقال الكسائى : أراد بالقوسين قوساً واحدا .

« أو أدْنَى » بل أدنى . « فأوحى » الله عز وجل « إلى عَبْده ما أَوْحَى ما كَذَب الفُؤادُ ما رأى » قال ابن عباس : رأى ربه عز وجل والمعنى : ماأوهمه فؤادُه أنه رأى ولم يَرَ .

«ولقد رآه نَزْلةً أخرى » قال ابن عباس : رأى محمد ربه . وبيان هذا : أنه لما تردّد لأجل الصلوات رأى ربه مرة أخرى . وقال كعب : قسمَ الله عز وجل كلامَه ورؤيته بين محمد وموسى فرآه محمد مرتين ، وكلمه موسى مرتين .

قوله تعالى : « عند سِدْرة المُنتَهى » السِّدْرة : شجرة النَّبْق وهى فوق السماء السابعة . وهو فى الصحيحين من حديث مالك بن صعصعة . وقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود أنها فى السماء السادسة . وإنما سميت بسدرة المنتهى لأن إليها ينتهى ما يُصْعَد به من الأرض فيُقْبَض منها ، وإليها ينتهى ما يُهْبَط به من فوقها فيقبض منها ، وإليها ينتهى عِلم الملائكة .

« عندها جَنّة المأْوَى » قال ابن عباس : هى عن يمين العرش وهى منزل الشهداء .

« إذ يَغْشَى السِّدْرَة ما يَغْشَى » قال ابن مسعود : غشيها فراش من ذَهب « مازاغ البصرُ » أى ماعدَل بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمينا ولا شمالا « وما طَغَى » أى ماجاوز مارأى .

وهذا كان فى ليلة المعراج . واتفق العلماء على أن هذا المعراج كان بمكة قبل الهجرة ، واختلفوا فى المدة التى كانت بينهما على أربعة أقوال : أحدها : سنة . قاله ابن عباس . والثانى : ستة أشهر . قاله السُّدى . والثالث : ثمانية عشر شهرا . قاله الواقدىّ . ذكر

هذه الأقوال عنهم أبو حفص بن شاهين . والرابع : ثمانية أشهر .

فأما الهجرة فإنها كانت فى يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول ، أعنى اليوم الذى قدم فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة . فعلى القول الأول يكون المعراج فى ربيع الأول . وعلى الثانى والثالث يكون فى رمضان . وعلى الرابع يكون فى رجب . وقد ذكر محمد بن سعد عن الواقدىّ عن أشياخ له قالوا : كان المعراج ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلَتْ من رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا[١] . إلا أنه لما اشتهر ذكر المعراج برجب ذكرناه فيه .

أخبرنا هبة الله بن محمد بن الحصين ، أنبأنا أبو على الحسن بن على التيمى ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عفان ، حدثنا همّام بن يحيى ، قال سمعت قتادة يحدِّث عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صَعْصَعة حدثه أن النبى صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أُسْرِى به قال : بينما أنا فى الحطيم وربما قال قتادة فى الحِجْر مضطجع إذ أتانى آتٍ فجعل يقول لصاحبه : الأوسط بين الثلاثة . قال فأتانى فقدَّ . وسمعت قتادة يقول : فشَقَّ ما بَيْن هذه إلى هذه . قال قتادة : فقلت للجارود وهو إلى جنبى[٢] مايعنى ؟ قال : من ثُغْرة نَحْرِه إلى شِعْرته . وقد سمعته يقول من قَصِّه إلى شعرته قال فاستخرج قلبى . قال : فأتيت[٣] بطَسْت من ذهب مملوءة إيمانا وحِكْمة فغُسل قلبى ثم حُشِى ، ثم أعيد ثم أُتيت بدابّة دون البغل وفوق الحمار أبيض . فقال له الجارود : أهو البراق ياأبا حمزة ؟ قال : نعم . يقع خَطْوُه عند أقصى طَرْفه .

قال : فحملت عليه فانطلق بى جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد قيل : أو قد بُعث إليه ؟ قال : نعم فقيل مرحبا

(١) طبقات ابن سعد ١/١٤٣ (القسم الأول) ط ليدن .
(٢) ب ، ث ، ج : وهو فى جنبى . (٣) أ : ثم أتيت .

به ونعم المجيء جاء . قال : ففُتح له[١] فلما خلصْتُ إذا فيها آدم قال : هذا أبوك آدم فسلِّمْ عليه . قال : فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبيِّ الصالح .

ثم صعِد حتى أتى السماء الثانية ، فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل :ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو[٢] قد أُرسل إليه ؟ قال نعم قيل : مرحبا به ونعم المجيء جاء. قال : ففتح [لنا][٣] فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة ، قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما . قال فسلمتُ عليهما فردَّا السلام ثم قالا : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد قيل : وقد أُرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل مرحبا به ونعم المجيء جاء . قال : ففتح فلما خَلَصْتُ إذا يوسف. قال : هذا يوسف فسلِّمْ عليه فسلمتُ عليه فردَّ السلام ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة ، فاستفتح فقيل: من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال: محمد . قيل أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم . قيل : مرحبا به ونعم[٤] المجيء جاء قال : ففتح فلما خلصت إذا إدريس ، قال : هذا إدريس فسلِّمْ عليه . فسلمت عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل : من هذا ؟ قال: جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال: محمد . قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبا به ونعم المجيء جاء . ففتح له[٥] ، فلما خَلَصْتُ إذا أنا بهارون قال : هذا هارون فسلِّم عليه . فسلمتُ عليه فرد السلام ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل : من هذا ؟ قال : جبريل

(١) أ : ففتح لنا . وفى ت : ففتح . (٢) ب ، ت ، ج : وقد . وفى صحيح مسلم : « فأرسل إليه ؟ » . (٣) من أ . (٤) أ : ولنعم. (٥) أ : ففتح لنا .

قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم قيل : مرحبا به ونعم المجيء جاء ففتح له [1] فلما خلصت إذا أنا بموسى ، قال : هذا موسى فسلِّمْ عليه ، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح . قال : فلما جاوزتُ بكى فقيل له : مايبكيك ؟ قال: أبكي لأن غلاما بُعث بَعْدِي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي !

قال : ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك قال : محمد . قيل : أو قد أُرسل إليه ! قال : نعم . قيل : مرحبا به ونعم المجيء جاء . قال: ففتح فلما خلصت إذا إبراهيم قال : هذا إبراهيم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح .

قال: ثم رُفعت إلى سِدْرة المنتهى فإذا نَبْقها مثل قِلَال هَجَر وإذا ورقها مثل آذان الفيَلة ، فقال: هذه سِدْرة المنتهى . قال : وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ماهذا ياجبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات .

قال : ثم رفع لى البيت المعمور . قال قتادة : وحدثنا الحسن عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون فيه إلى يوم القيامة .

ثم رجع إلى حديث أنس . ثم أُتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، قال : فأخذت اللبن قال : هذه الفطرة أنت [2] عليها وأمتك .

قال : ثم فرضت علىّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم وليلة ، قال : فرجعت فمررت على موسى فقال : بم أُمرت ؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم . قال : إن أمتك لاتستطيع

(١) ا : التى أنت عليها .

خمسين[١] صلاة ، وإنى قد خَبَرْت[٢] النـاسَ قبلك وعالجتُ بنى إسرائيل أشـدَّ المعالجة ، فارجع إلى ربك عز وجل فاسأله التخفيف لأمتك قال : فرجعت فوضع عنى عَشْرا ، فرجعت إلى موسى فقال : بم أُمرت ؟ قلت : بأربعين صلاة كلَّ يوم . قال : إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة [فى][٣] كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك [وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة][٤] فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال فرجعت فوضع عنى عَشْرا آخر فرجعت إلى موسى فقال : بم أُمرت ؟ قلت : أمرت بثلاثين صلاة كل يوم قال : إن أمتك لا تستطيع ثلاثين[٥] كل يوم ، وإنى قد خَبَرْت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشدَّ المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمتك . قال : فرجعت فوضع عنى عَشْرا آخر فرجعت إلى موسى فقال : بم أمرت ؟ فقلت : بعشرين صلاة كل يوم . فقال إن أمتك لا تستطيع عشرين صلاة كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال : فرجعت فأمرت بعَشْر صلوات صلوات كل يوم قال : فرجعت إلى موسى قال : بم أمرت ؟ قلت : بعشر صلوات كل يوم . فقال : إن أمتك لا تستطيع عشر صلوات كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشدَّ المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال : بم أُمرت قلت : أمرت بخمس صلوات كل يوم قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال : قلت : قد استحييْتُ من ربى ولكنى أرضَى وأسلِّمَ فلما جاوزت[٦] نادى منادٍ : قد أمضَيْتُ فريضتى وخفَّفْتُ عن عبادى .

(١) ب ، ج : لخمسين . (٢) ا : قد اختبرت . (٣) من ا . (٤) من ا . (٥) ب ، ج : لثلاثين .
(٦) كذا فى ا وفى بقية النسخ : فلما نفذت .

أخرجاه فى الصحيحين[١] وليس لمالك بن صعصعة فى الصحيح غيره .

وفى الصحيحين من حديث أبى ذرعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر أنه مرَّ بآدم وعن يمينه أسْودة[٢] وعن يساره أسْودة فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قِبَل يساره بكى فقال: ياجبريل من هذا ؟ قال آدم وهذه الأسودة التى عن يمينه وشماله[٣] نَسم بنيه ، عن يمينه[٤] أهل الجنة وعن يساره أهل النار .

وفى أفراد مسلم من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أُتيت بالبراق فركبته فسار بى حتى أُتيت بيت المقْدس فربطت الدابة بالحلقة التى يرْبط فيها الأنبياء ثم دخلت فصلّيت ركعتين[٥] .

وقد روى حديث المعراج جماعة منهم على بن أبى طالب وابن مسعود وحذيفة وأبو ذر وابن عباس وأبو سعيد وأبو هريرة وجابر وأُم هانئ فى آخرين .

الكلام على البدع

يا صاح إن كنت لبيبـــاً حازما فكن لأسباب الهوَى مُرَاغِمَا
وإن أردت أن تفوز فى غـــدٍ فكن تقيّـــا واهجر المحَارِمَا
لا تَهْوَ دنيــاك فإن حُبَّها رأسُ الخطايا يُكْسب المآثمَا
غَدَّارة فكل من حلَتْ له لا بد أن تذيقـــه العَلاقِمَا
وإنها[٦] تَخْدم من أهانهـــا كما تهين من أتاها خادمَا
فكُنْ بهـــا مثلَ غريب مُصْلحٍ أَزْوادَه على الرحيل عازِمَا

(١) صحيح البخارى ٢/١٨٧ « كتاب بدء الخلق باب المعراج » وصحيح مسلم ١/٩٩ (ط استامبول) .
(٢) الأسودة : يكنى بها عن الشخص .
(٣) من أ .   (٤) أ : فالذى عن يمينه .
(٥) ب، ج : فصليت الركعتين . والحديث فى صحيح مسلم كتاب الإيمان (١/٩٩ ط) استامبول
(٦) ت : فإنها .

فإنمـــا عُمْر الفتى سوقٌ له يروح عنها خاسراً وغانِمَاً
يا عجباً لمعشر أتَتْهم الـــدنيا فلم يَبْنوا بهـــا المكارماَ
ولا شَرَوْا مع عِلمهم زوالهـــا بهـــا جِنَانا ونعيا دائماَ
إياكَ والتسويف فالعاقل من يُنْجز ما كان عليـــه عازماَ
وإنما الموت مُغِير هائل أَعْظِم به على النفوس هاجماَ
والقبر إمّا روضةٌ للمتقِى أو حفرة النار تصيب الظالماَ
يا لَهْفتى من اشتقاق حُفْرتى ومحشرى إلى الحساب راغماَ
وموقفى أُسْأَل عما قد جنَتْ يداى من سوء فأبْقَى واجماَ
وحين يأتينى كتابى فأرى فيه الذى أتيته مُكاتِماَ
فإن يُناقِشْنى فعبدٌ هالك وإن عفَا نَجَوْتُ[١] منها سالماَ

***

إخوانى : هذا شهر رجب قد رحَل أكثره وبان[٢] ، ونور شعبان قد لاح وبان ، وقد سار إلى ديار الفوز رُكْبان ، وأقْدَمَ[٣] الشجاعُ وولَّى الجبان[٤] ، هذا الشهر الأصَمّ يُؤْذنكم بإقلاعه ويخبركم برحيله ووداعه ، فأيكم ودَّعه وقد أوْدَعه ما ينفعه غدا ، وأيكم داوم المعاصى فلم يُقْلع حتى غدا ، ويلٌ لمن ذهب عنه شهر رجب وانصَرم وهو فى عِدَاد من هجَر الهدَى وصَرم ، كيف يرجو الفضلَ والكرم من اجترم وما احترم .

أكثر هذا الشهر قد مضى وتولى عنكم معرضا ، وباقيه قد نادى للتوبة مُعْرِضا ، فاحذروا أن يفوتكم الغفران مع الرضا . أين من استدرك باقى ساعاته وقضى ، وطالب نفسه بالإنابة واقتضى ، أين من خاف لهبَ السعير وحرَّ لظى ، فبادر إلى ما يُؤْثَر من الخير ويُرْتضَى ، أين من جرَّد سيف التوبة على الخطايا وانتضَى ، قبل أن يعود بعد التحريض حَرَضا[٥] .

(١) ت : وإن عفى عنى نجوت سالما . (٢) بان : بعد (٣) ا : وتقدم .
(٤) كذا فى ا . وفى بقية النسخ : وما تقدم جبان . (٥) الحرض : الفاسد المريض .

آه لأوقات مضت من رجب لاسبيل إلى رجوعها ، وأهلاً بنفوس صَبرت فيه على عَطشها وجوعها ، ويا أسفا لأعمال ما يُقْبَل شيء من مرفوعها ، ولأصوات رُدَّت لعدم صِدْق مَسْموعها .

إخواني: فارقوا خطاياكم قبل مفارقته ، وسابقوا بالتوبة رحيله قبل مسابقته ، واعلموا أن الأوقات عليكم شاهدة بما هي منكم مُشاهِدة ، فالحذار الحذار أن يفوت وقت الاقتدار ، فما زالت الدنيا تخدع وتغر ثم ترحل وتمرّ .

غَنَّتْك دنياك الخَلُوب وحُبُّها في الكفّ عُودْ
أما إساءتها فقد كانت وحُسْناها وُعودْ

لغربان الموت على ديارنا نَعِيب ، ونحن نحرص على ما لطالبه[1] نَعِيب ، الخلق بأسْرهم في قبضة التلَف أَسْرى ، وما يعُدّونه إرباحا يعود غداً خُسْرا ، سيف المنون ما يَنْبو ولا يقنع ، وبطن الأرض يأكل الخلائق وما يشبع .

إخواني : لا للموت بالاستعداد تنتظرون ، ولا بالقلوب في الذكر تحضرون ، وكأنكم للتلف تأمنون أو بالوعيد ما تؤمنون ، أمَا علمتم أنكم ترحلون ، أما ترون الأقران أين ينقلبون ، كأننا والله بنا إذ قدمنا وقد ندِمْنا ، ووضع الحساب وقدِّمنا ، وطلبنا ما يرضى من العمل فَعَدِمْنا ، وربح المتقون بالتقى وحُرِمْنا ، وأُقِمْنا لقراءة الصحف فلما فَهِمْنا هِمْنا ، فرحم الله عبدا استدرك بقية هذا الشهر فربما لا يَرى مثلَه في الدهر ، قبل أن يؤخذ بشدة القهر ويحاسب على فعل السر والجهر .

***

واعلموا أن اليوم السابع والعشرين منه يوم معظَّم .

أخبرنا أبو الحسن الأنصاري ، أنبأنا عبد الله بن على الآبنوسي ، أنبأنا عبد الملك

---

(١) ت : على ما لطالبها . وفي ا : لطالبنا .

ابن عمر البزّاز ، أنبأنا أبو حفص بن شاهين ، حدثنا أحمد بن عبد الله البزار ، حدثنا علي بن سعيد الرَّقّي ، حدثنا ضَمْرة ، عن ابن أبي شَوْذب ، عن مطر الورّاق ، عن شهر ابن حَوْشب ، عن أبي هريرة قال : « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب له صيام ستين شهرا[1] » . وهو اليوم الذي نزل فيه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وأول يوم هبط فيه .

قوله تعالى

« سبحان الذي أسْرى بعبده ليلاً »

معنى التسبيح : التنزيه عن كل سُوء . واعلم أن الله تعالى سبح نفسه عند كل عظيم لمّا كان اختلاف الليل والنهار من عجائب الأمور ومما لا يَقْدر عليه غيره ، ثم ادعى المشركون وجود شَريك معه نزّه نفسه عن ذلك فقال : « فسبحان الله حين تُمْسون وحين تُصْبحون »[2] ولمّا اختار عائشة لنبيه فقُذفت سبَّح نفسه أن يختار للمختار إلا خِيرة فقال : « سبحانك هذا بهتانٌ عظيم »[3].ولما أسْرى بنبيه صلى الله عليه وسلم فكذبه الكفار سبَّح نفسه لأن قدرته لا تَعْجز . والمنعَم عليه بذلك أهْلٌ فقال « سبحان الذي أسْرَى بعبده لَيْلًا » .

وأسْرَى بمعنى سيرَّ[4] عبده . ويقال: سرَيْت وأسْريت، إذا سرت ليلا . وقد جاءت اللغتان في القرآن . قال تعالى : « والليل إذا يَسْرِ » .

والمراد بعبده ها هنا : محمد صلى الله عليه وسلم

قوله سبحانه وتعالى : « من المسجدِ الحرام » فيه قولان : أحدهما أنه من نفس المسجد قاله الحسن وقتادة ويؤيده[5] ما ذكرنا في حديث مالك بن صَعْصعة : « بَيْنا أنا في الحَطيم أو في الحِجْر » .

(١) أحاديث فضائل صيام الأيام أكثرها موضوع أحسن مافيها ضعيف . (٢) سورة الروم ١٧ .
(٣) سورة النور ١٦ (٤) ا : يعني ستر عبده . (٥) كذا في ا . وفي بقية النسخ : ويشيده

الثانى : أنه أُسْرى به من بيت أم هانئ . ذكره جماعة من المفسرين فعلى هذا يعنى بالمسجد الحرَم والحرم كله مسجد .

وأما المسجد الأقْصَى فهو بيت المقدس. وقيل له الأقصى لبُعْد المسافة بين المسجدين .

ومعنى « بارَكْنا حوله » أن الله تعالى أجرى الأنهار وأنبت الأشجار . وقيل إنه مقرّ الأنبياء ومَهْبط الملائكة . قال أبو هريرة دخل بيت القدس وصلَّى فيه بالأنبياء ثم عُرج به إلى السماء .

***

واعلم أن الإسراء كان إلى بيت المقدس والمعراج من هنالك إلى السماء ، وإنما جعل كذلك لأربعة فوائد :

الفائدة الأولى : أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء فى بدء الحديث لاشتد إنكارهم ولو وصفها لهم لم يكن عندهم عِلْم بذلك ، فلما أخبرهم ببيت المقدس ووصفَه لهم دلَّ صِدْقُه فى ذلك على صدقه فى حديث المعراج .

وفى الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لما كذَّبتنى قريش قمت فى الحِجْر فجَلَا الله لى بيتَ المقْدس فطفِقْت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه[1] » . وروى عروة عن عائشة قالت : لما أُسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح يحدِّث الناس بذلك فسعى رجال من المشركين إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أُسرى به إلى بيت المقدس ؟ قال : وقد قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : إن كان قال ذلك لقد صدَق . قالوا : تصدقه أنه ذهب إلى الشام فى ليلة وجاء قبل أن يُصْبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فى خبَر السماء فى غَدْوة أورَوْحة . فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق .

الفائدة الثانية : أنه سيَّره فى الأرض يستأنس ثم درج إلى الصعود إلى السماء ، فهو

---

(١) صحيح البخارى ٢/٢٦٤ (ط الأميرية) وصحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٢٧٦ (ط الحلبى) .

نظير قوله : « وما تلكَ بيمينك ياموسى »[١] فلما أنِس بالخطاب حُمِّل الرسالة إلى فرعون.

الفائدة الثالثة : أن الأنبياء جُمعوا هنالك فصلى بهم فبان فَضْله بالتقديم عليهم فى دار التكليف . وكان ائتمامهم به مشيراً إلى نَسْخ شرائعهم بشَرْعه .

الفائدة الرابعة : أنه مرَّ بالنواحى التى كُلِّم عندها موسى، ثم صعد فكُلِّمَ فى السموات ليظهر التفاوتُ بتقديمه .

***

ومذهب أهل السُّنة أنه أنه رأى ربَّه ليلة المعراج . وقد ذكرنا ذلك عن ابن عباس وكعب .

أخبرنا ابن المُذْهِب أخبرنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ربى تبارك وتعالى »[٢] .

وقد تعلَّق من أنكر ذلك بإنكار عائشة أن يكون رآه . والجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه رأىٌ منها لارواية ، فلا يقاوِم روايةَ من رَوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « رأيتُ ربِّى » .

والثانى : أنها نفَتْ والعمَل على الإثبات .

والثالث : أنها كانت فى زمن المعراج صغيرة ولم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقول الرجال العلماء من الصحابة مقدَّم .

وقد زعم قومٌ أن المعراج كان مناماً . ويرد قولَهم أن المشركين أنكروا عليه ماقال، ولو كان مناما لم ينكره أحد .

---

(١) سورة طه ١٧ .

(٢) تراجع روايات مسلم فى صحيحه التى تنفى الرؤية « كتاب الإيمان » .

وقد رأى تلك الليلة الجنةَ والنار .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن على ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبدالله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا وَكِيع ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلةَ أُسرى بى على قومٍ تُقْرَض شفاههم بمقاريض من نار ، قلت من هؤلاء قال : خطباء أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون .

* * *

إخوانى : قفوا ليلة المعراج على قدم الشكر ، تارةً لما أنعم الله على نبيكم من إسرائه ، . نارة للإنعام عليكم بالإيمان بمعْراجه ، والذى ناله المصطفى من الارتفاع والعلوّ يحث امته على التماس القرب والدنوّ ، فالسعيد من تأهَّب للقاء ربه بتأديب نفسه وتطهير قلبه .

بأىّ عينٍ ترانى يامن بارزَنى وعصانى ، بأىّ وجهٍ تَلْقانى ، يامن نَسِى عظمة شانى خاب المحجوبون عنى وهالك المبعَدون منى :

يامن يحدِّث نفسه بدخول جناتِ النعيمِ
إن كنت مُتَّقِياً فأنـ ـت على الصراط المستقيمِ
لاترجوَنَّ سلامـــة من غير ما قَلْبٍ سليمِ
فاسلك طريق المتَّقيـ ـنَ وظن خيرا بالكريمِ
واذكر وقوفك خائفا والناسُ فى أمرٍ عظيمِ
إمّا إلى ذل الشقا وة أو إلى العِز المقيمِ
فاجعل تُقَاك وقايةً فى الحشر من نار السَّمومِ
واغنم حياتك واجتهد وأنِبْ إلى الربِّ الرحيمِ

* * *

سبحان من أسْرَى بعبده[١] فأصبح الحُسّاد أسْرَى ، قصرت دولته قيصر وكسَرتْ هيبتُه كِسْرى ، أقامه بالليل من وِطَائه ودِثاره ، ورفعه فوق السموات بقوّته واقتداره ، وأراه مافى جنته وما فى ناره ، وأوحى إليه ما أوحى من أسراره ، ثم أعاده فى الليل إلى مسكنه وقراره ، وجاوز أفق الشمس والقمر ، وعلا على الملائكة والبشر ، وفاز بالتقريب والنظر ، وما حضر أحد قط حيث حضر ، ارتقى إلى مقام القُرْب بقدميه ، والأملاك تحفُّ به من جانبيه ، وجبريل يمشى خادماً بين يديه ، والرب قد أنعم بتقريبه إليه ، وكشف له الحجاب حتى رآه بعينيه ، لحماه بألطافه من الزَّيْغ فى طريقه ، وأيّده بإسعافه وإسعاده وتوفيقه ، وعضَّده فى صدقه بتصديق صِدِّيقه ، سبحان من رفعه فوق الأفلاك ، وقدَّمه على الأنبياء والأملاك ، وإنه والله أهْلٌ لذاك ، لأنه أطول القوم فى جهاد أهل الإشراك ذيلًا « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » .

طيَّبه بأزْكى الخلائق ثم رفعه [على أزكى الخلائق][٢] فوق السَّبْع الشِّداد الطرائق ، فيا فَخْر ذاك المقدَّم السابق رَجْلا وخَيْلا « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » .

أوْقد لهداية الخلق سِراجه ، وشاد قواعد دينه وأبراجه ، وقوّى دليله وأظهر احتجاجه ، فالخزى كل الخزى لمن جَحَد معراجه ويلًا له ويلًا « سبحان الذى أسْرَى بعبده ليلا » .

كلَّمه كِفَاحا ، ومنحه فَلاحا ، وسقاه من شراب المحبة راحا يميل بأعطافه مَيْلا « سبحان الذى أسْرَى بعبده ليلا » .

أصلح بتدبيره طباع المرضَى ، وجعل طاعته على الخلق فَرْضا ، وضمن أن يعطيه حتى يرضَى ، كَيْلا يحْصَر ما يُعْطَى وزناً وكيلا « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » .

عاش فى الدنيا بالقناعة ، وصبرَ على الفقر والمجاعة ، ويكفيه فخراً شرفُ الشفاعة ، وشغله ذِكْرُ القيامة والساعة أن يكون ملكا أو قَيْلا « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » .

---

(١) ت : سبحان من أسرى بعبد أسرى . و ب ج : سبحان من أسرى بأسرى عبد . وماأثبته من أ .
(٢) من ب ، ج .

كان يجوع فيشد الحجرَ ، ويفتقر فيصابر الضرر ، راضيا بالظمأ وقَطْرُا المطر من سحاب الدنيا يجزى سَيْلا « سبحان الذى أسرى بعده ليلا » .

سبحان من شرّفنا بهذا الرسول ، ورزقنا موافقة المنقول ، فنحن أهل السُّنة لا أهل الفُضول ، لا تزال[1] على الصراط ولا نزول ، ما نعرف ميلًا « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » .

فخر نبينا أجلّ وأعلى ، ومناقبه من الشمس أجْلَى ، وذكره فى قلوبنا والله أحلى عند قيس من ليلى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » .

والحمد لله وحده .

(٢) أ : لا نزل

المجلس الرابع

فى ذكر فضائل شعبان

الحمد لله أحقّ منْ شُكر وأَوْلى من حُمد، وأكرم من تفضَّل وأرحم من قُصد، المعروف بالدليل وبالدليل عُبِد، القديم لم يولَد ولم يَلِدْ، أحاط علماً بالمعلومات وحواها، وأنشأ المخلوقات بالقدرة وبناها، وأظهر الحِكَمَ فى الموجودات إذ بَراها، ومن يتَّح حِكَمها لمارآها فلينظر بالفهم وَليفتقد، تعرَّف إلى[1] خَلْقه بالبراهين القاهرة، وأظهر فى مصنوعاته العجائبَ الباهرة، وتفرَّد فى ملكه بالقُدرة القاهرة، ووعد المتقين الفوزَ فى الآخرة، فالبشرى للموعود بما وعد. تعالى أن يُشْبه ما صنعه[2] وأن يقاس بما جمَعَه، سبحانه لا وزير له ولا شريك معه، نادَى موسى ليلة الطُّور فأسمعه، فاعلمْ هذا واعتقد وتمسَّك بالكتاب والسُّنة ولا تَمِل عنهما وسلِّم إليهما وتسلَّمَ العِلْمَ منهما ولا تنطق برأيك وظنك فيهما، هذا مذهب أهل السُّنة لا تَنْتقص ولا تَزِد.

أحمده حمداً إذا قيل صعد، وأصلى على رسوله محمد خير مولود وُلد.

***

عن أبى سلمة قال: «حدثتنى عائشة: قالت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من شهرٍ من السنة أكثر من صيامه من شعبان كان يصومه كله»

أخرجاه فى الصيحين[3].

وفيهما من حديث عائشة قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يُفْطر ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيامَ شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيته فى شهر أكثر منه صياما فى شعبان[4]»

وفى لفظ انفرد به مسلم قالت: كان يصومه إلا قليلا[5]

(١) ب ج: فى خلقه. (٢) أ: أن يشبه بما صنعه.

(٣) صحيح البخارى ١/٢٧٥ (ط الأميرية وصحيح مسلم ٣/١٦١ بروايات مختلفة (ط استامبول).

(٤) صحيح البخارى ١/٢٧٥. وصحيح مسلم ٣/١٦١ ط استامبول (٥) صحيح مسلم ٣/١٦١. (التبصرة ٤/٢)

أخبرنا محمد ناصر بسنده عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم شعبان كله حتى يَصِله برمضان ، ولم يكن يصوم شهرا تامًّا إلا شعبان ، فإنه كان يصومه كله ، فقلت : يارسول الله إن شعبان لَمِن أحب الشهور إليك أن تصومه . فقال : « نعم ياعائشة ، إنه ليس من نفسٍ تموت فى سَنة إلا كُتب أجلها فى شعبان، فأحب أن يُكتب أجلى وأنا فى عبادة ربى وعمل صالح » .

وعن أسامة بن زيد ، قال:قلت يارسول الله رأيتك تصوم فى شعبان صوماً لا تصومه فى شىء من الشهور إلا فى شهر رمضان ، قال : « ذاك شهرٌ يَغْفَل الناسُ عنه بين رجب وشهر رمضان تُرْفع فيه أعمالُ الناس ، فأحب أن لا يُرفع عملى إلا وأنا صائم »(١)

***

واعلم أن الأوقات التى يغْفل الناس عنها معظّمة القَدْر لاشتغال الناس بالعادات والشهوات ، فإذا ثابَرَ عليها طالبُ الفضل دلّ على حرصه على الخير . ولهذا فضّل شهودُ الفَجْر فى جماعة لغفلة كثير من الناس عن ذلك الوقت ، وفضّل ما بين العشاءين وفضل قيام نصف الليل ووقت السحر .

عن عائشة قالت : ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناسٌ يصومون رجباً فقال : « فأين هم عن صيام شعبان » .

قالت لؤلؤة مولاة عمّار : كان عمّار يتهيأ لصوم شعبان كما يتهيأ لصوم رمضان .وكان عمرو بن قيس الملائى إذا دخل شعبان أغلق حانوته وتفرّغ لقراءة القرآن فى شعبان ورمضان.

وعن الحسن بن شُهَيل (٢) ، قال : قال شعبان : يارب جعلتنى بين شهرين عظيمين فالى ؟ قال : جعلت فيك قراءة القرآن .

وقد ذكرنا فى حديث أن الآجال تكتب فى شعبان .

وعن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(١) أخرجه النسائي وأحمد وأبو داود وصححه ابن خزيمة . شرح المواهب ١٢٦/٨
(٢) ب ج : ابن سهيل .

« تقُطع الآجل من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل ينكح ويولَد له ولقد خرج اسمُه فى الموتى » .

فهذا الحديث وحديث عائشة لم يبيِّن فيهما متى يكون ذلك من شعبان وقد روى فى حديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ليلة النصف من شعبان تنْسخ فيها الآجال والأرزاق .

وقال أبو هريرة ، إذا كان هلال شعبان دُفع إلى ملك الموت صحيفة يقبض من فيها إلى شعبان من قابل ، فإن الرجل ليغْرس الغرسَ ويبنى البنيان وينْكح ويولد له ويظْلم ويفْجر وما له فى السماء اسم وما اسمه إلا فى صحيفة الموتى إلى أن يأتى يومه الذى يُقبض فيه أو ليلته

***

فيا أيها الغافل تنبَّه لر حيلك ومسْراك ، واحذر أن تُسْتلب على موافقة هواك ، انتقل إلى الصلاح قبل أن تُنْقَل ، وحاسب نفسك على ماتقول وتفعل ، ولا تغفل عن التدارك اللهَ اللهَ لا تغفل .

الكلام على البسملة

قد آنَ بعد ظلام الجهل إبصارى   الشيبُ صُبْحٌ يناجينى بإسفارِ
ليلُ الشباب قصيرٌ فاسْرِ مُبْتدراً   إنّ صباح قُصَارَى الُمدْلِج السارِى
كم اغترارىَ بالدنيا وزُخْرفها   أبنى بِنَاها على جُرُفٍ لها هارى
ووعْدِ زُورٍ وعَهْدٍ لا وفاء له   تعلَّمَ الغَدْرَ منها كلُّ غدّارِ
دارٌ مآ تُمها تَبْقى ولذتُها   تفْنى ألا قُبِّحَتْ هاتيك من دارِ
فليت إذ صَفِرتْ مما كسبتُ يدِى   لم تعتلقْ من خطاياها بأوزارِ

ليس السعيدُ الذى دنياه تُسْعده إنّ السعيد الذى ينجو من النار

***

لقد بالغت المواعظ و بلّغت أىّ إبلاغٍ وأىّ بلوغ، وأنت تتلون هكذا وهكذا ثم تَرُوغ إياك وسُؤْر[1] الهوى فسُؤْر الهوى مايَسُوغ ، وقد رأيت غيرك أفلا يتعظ الملدوغ ، يامُمْحِلا قد أجْدَب عامُه ، يامُغْرِقًا قد أهلَكَ قَلبَه سامُه ، يامقتول الهوى قد قطعه حُسامُه. أماعلمت أن الرامى لاتطيش سهامه ، أين الظِّباء الكُنَّس ، أين الكَمِىّ الأشْوَس ، أين من تكبَّر وعبس تساوى فى القبور اللَّيِّن والأحمس[2] ، واعتدل فى اللُّحود النَّطُوق والأخرس ، ورمى الكلَّ سهمُ المنون فقَرْطَس[3] ، وعرَّوْا فى العراء من حُلَلهم فتماثَل الملبَس .

وناَدَتْنا الرسومُ وهُنَّ صُمٌّ ومَنْطِقها المعاجِم والسِّطَارُ[4]
وكان اليأسُ أجمَلَ فانصرفنا ودمعُ العين مَجْراه انحِـدارُ[5]

زار عمرُ بن عبد العزيز قبورَ آبائه ثم رجع وهو يبكى ، فقال لأصحابه : نادانى التراب: ألاَ تسألُنى عمّا صنعتُ بأحبابك ؟ فقلت : ما فعلتَ ؟ قال : فصَلْت الكفَّين من الساعدين والقدمين من الساقين ، وفعلتُ وفعلت . فلما ولَّيت نادانى : ألا أدلك على كفَنٍ لا يبلى ؟ قلت: بلى . قال : التقوى .

إخوانى : سَلُوا المقابر بألسنة الفِكَر تجبكم بكلام العِبَر :

عُوجوا نُحَيُّوا لنُعْم دِمْنة الدار ماذا تُحَيُّون من نُؤْىٍ وأحجار[6]
أقْوَى وأقفر من نُعْم وغيَّرها هُوجُ الرياح بهارِى التُّرْب مَوّارِ[7]
وقفتُ فيها سَراةَ اليوم أسألها عن آل نُعْم أمُونًا عُبْرَ أسفارِ[8]

(١) السؤر : البقية والفضلة .
(٢) الأحمس : الصلب . (٣) قرطس : أصاب . (٤) كذا فى أ ت . وفى ب ج : النطار .
(٥) ب ج : الشه الحدار . (٦) ب ج : لنعمى . والدمنة : آثار الدار .
وفى أ : دمنة الوادى . والنؤى : الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل .
(٧) هارى الترب : ماانهال منه وتبدد . (٨) الأمون : الناقة الوثيقة الخلق
وناقة عُبْرأسفار : مثلثة قوية تشق مامرت به يريد: أنه وقف ناقته أول اليوم على أطلال نعم يسألها .

فاستعجمتْ دارُ نُعْمَى ما تُكلِّمنا والدارُ لو كلَّمتنا ذاتُ أخبارِ
فما وجدتُ بها شيئاً أَعِيج به إلا الثُّمامَ وإلا مَوْقدُ النارِ (١)

***

أما يكفى العاقلَ تجاربه ، أما أيقظ الفَطِنَ نوائبه ، غلَب الموتُ فمن ذا يغالبه ، قهر الخلقَ فمن ذا يحاربه ، كأنكم به قد دبَّت عقاربه ، قل للمفرط وقد حانت مصائبه ، القلب غائب فكيف نعاتبه ، لقد قتل الهوى آلة بلا آلة فما لكم وماله ، خلوا له ماله ، كم طالبُ مرادٍ مانالَه ، كم لذة أُفنيت وأُبقِيت (٢) قاله ، إياكم وإيا الدنيا فإنها محتالة .

ومَكَاسبُ الدنيا وإن كَثُرَت فما يبقى سِوى تبعاتها والمأثم
فعليك بالفعل الجميل فإنه أُنْس (٣) المقيم غداً وزادُ المُعْدم

كان حبيب العجمى إذا أصبح بكى ، وإذا أمسى بكى فسئلت زوجته عن بكائه ، فقالت : يخاف والله إذا أمسى أن لا يصبح وإذا أصبح أن لا يمسى ، يقول لى : إن مِتُّ فافعلى كذا واصنعى كذا .

وكان شُمَيْط بن عَجْلان يقول : أيها المغترّ بصحته أمَا رأيت ميتاً من غير سقم أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذاً من غير عِلّة ؟ !

كان شيخ متعبد فى تَيْم الله يجتمع إليه فتيان الحى فيعظهم فإذا أرادوا أن يتفرقوا قال : يا إخوتاه قوموا قيامَ قومٍ قد يئسوا من المعاودة لمجالسهم خوفاً من ورطات الذنوب وخوفاً من خطفات الموكَّل بالنفوس فيَبْكى . ويبكُّى .

وكان يزيد الرَّقَاشِيّ يقول : إلى متى تقول غداً أفعل كذا وبعد غدٍ أفعل كذا أغْفلتَ سَفرك البعيد ونسيت الموتَ ، أمَا علمت أن دون غدٍ ليلةً تُختَرم فيها أنْفُس ، أما رأيت صريعاً بين أحبابه لا يقدر على ردّ جوابهم ؟ !

---

(١) أعيج به : أرضى . والثمام : نبت . (٢) أ : وبقيت قاله . (٣) ت : فإنه لبس المقيم .

مضى الناسُ وأصبحنا على ثقة　　أنّا سنُتْبَعُ بالأشجان نُفتاجُ
إن أدلجوا وتخلّفنا وراءهم　　وما نسير فإنا سوف نَدَّلِجُ

الكلام على قوله تعالى

« أم حَسِب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات[1] »

قام تميم الدارى ليلةً إلى الصباح بهذه الآية وكذلك الربيع بن خُثَيْم قام بها ليلة لم يزد .

قال الحسن : لا يجعل الله عبداً أسرعَ إليه كعبدٍ أبطأ عنه .

وقال شُمَيْط بن عَجْلان : الناس ثلاثة : فرجل ابتكر الخير فى حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا المقرّب . ورجل ابتكر عُمْره بالذنوب وطولِ الغفلة ثم راجع بتوبة ، فهذا صاحبِ يمين . ورجل ابتكر الشرّ فى حداثة سنه ثم لم يزل فيه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب شِمال .

إخوانى : المعاصى تنكس الرأس وما مخالِّط كمن كاس[2] ، ولا بانٍ على رمل كمحكِم الأساس ، إن بينهما كما بين الطهارة والأنجاس ، وعلى وجه الطائع نور طاعته وعلى وجه العاصى ظلام مخالفته ، وعند الموت يُتلقّى هذا بالبشارة ويقع هذا فى الخسارة ، وفى القبر يَفْترش هذا مِهادَ الفَلَاح ويُلْقى ذاك على حسك[3] القِباَح، وعند الحشر هذا يَرْكب وذاك يُسحَب ، ثم يقال للعصاة : هلّا ذَكرتم وللطائعين : سلامٌ عليكم بما صبرتم . كم بين خَجِل يَذِلّ وبين طائع يُدِلّ . إياكم إياكم والذنوب ، احذروا عواقب العيوب ، لقد ورّطت الذنوبُ أربابها أىَّ إيراط ، وأسْعطت أصحابها أىَّ إسعاط ، وأبعدتهم عن أغراضهم أشواطا بعد أشواط ، وضربت عليهم سرادقا من الندم بعد فُسطاط ، هذا جنَى

---

(١) سورة الجاثية ٢١ .　(٢) كاس : عقل .　(٣) الحسك : الشوك .

الجناية فأين التقى المحتاط . تنبهوا لهذا يا أصحاب اللِّمَم الشَّمَاط [١] ، تيقظوا فهذا الموتُ بكم قد أحاط ، إياكم والزلل فكم من دم قد أشاط ، آذيتم أنفسكم بالذنوب فهلا كم إفراط ، هذا العدوُّ مُرَاصِد فعليكم بالرِّبَاط ، هذا الفتور وإنما مَهْر الجدّ النشاط ، سار الصالحون وقد سلكتم غير الصراط ، ما الذى شغلكم عن أهل المحبة ؟ جَمْع الحَبَّة والقيراط ، كانوا يصومون وأنتم مُفْطرون ، ويقومون وأنتم نائمون ، ويبكون خوفاً وأنتم تضحكون .

روى عن هشام ، قال : بلغنى أن منادياً ينادى من أول الليل : أين العابدون . فيقوم ناس فيصلّون ثم ينادى فى وسط الليل : أين الفائزون فيقوم ناس فيصلون . ثم ينادى فى السحَر أين المستغفرون فيقوم ناس فيصلون . فإذا أصبح قال : أين الغافلون .

يا من إذا صلى خفَّف وإذا كال طفَّف ، وإذا دعى تخلَّف ، وإذا قيل له تُبْ سوَّف ، ما يؤثِّر عنده قول من حذَّر وخوف ، ثم يطمع فى لحاق الصالحين فما أنصف ، جدَّ القومُ وأنت قاعد ، وقرُبوا وأنت متباعد ، كم بين راغب وزاهد ، كم بين ساهر وراقد ، شغلهم حُبُّ مَوْلاهم عن لذات دنياهم ، اسمع حديثهم إن كنت ما تراهم ، خَوْفهم الشديد قد أزعج وأقلق ، وحذَرهم العظيم قد أتلف وأحرق ، وحادِى جِدّهم مُجدّما يترفّق ، كلما رأى طول الطريق نَصَّ [٢] وأعْنَق ، وكيف يَحْسُن الفُتور وأوقات السلامة تُسْرَق ، دموعهم فى أنهار الخدود تجرى وتتدفق ، يكاد حزنهم لكثرة الذنوب يَشْرَق ، يشتاقون إلى الحبيب والحبيب إليهم أشْوَق ، يا حُسْنهم فى الدجى ونورهم قد أشرق ، والحياء فائض [٣] والرأس قد أطْرَق والحنين والأنين قد أخرسا الحمَام المطوَّق ، والأسير يبكى ويشكو ويرجو أن يُعْتَق ، فإذا جاء النهار دخلوا سُوراً من التُّقَى بعد خندق ، تَعْرِفهم بسيماهم وللصدق رَوْنق ، اسلك طريقهم وسَلْ مُعِينهم تُوَفَّق . احذر من الهوى فالهوى عدوّ أزرق ، يا من كلما أتْهَم

---

(١) اللمم : جمع لمة وهى الشعر المجاوز لشحمة الأذن . والشماط : جمع شمطاء وهى ما خالط بياض الشعر فيها سواده .
(٢) نص : أسرع . وكذا أعنق . (٣) كذا فى ا وفى ب ت ج : والحياء قابض .

ناصحُه أنجد ، وكلما غرّب شرّق ، قد بقي القليل وهذا الرّهْن يَغْلَق .

***

أستغفر الله الذي بقضائه مطَر السحابُ وأخْصَب الأبُّ
تَبًّا لقوم أذهبوا أوقاتهم لعباً وأشْهد أنهم تَبُّوا
وصَبُوا إلى الدنيا فكلهم بها كَلِف يُغرّ بحُبّها صَبُّ
شنُّوا الحروبَ على حُطَام زائل وعلى فسادِ غرائزٍ شَبُّوا
رقدوا فما فقدت كرَى أجفانُهم حتى إذا حان الردَى هَبُّوا
لبَّوا وقد دعت الدعاة إلى الخنا فجميعهم خَطئوا فما لَبُّوا

يا قليل النظر فى أمره ، يا غافلا عن ذكر قبره ، أما نَقل الموتُ واحداً واحداً ، وها هو قد أضحى نحوك قاصدا ، كم سلب ولداً وأخذ والدا ، إلى متى تصبح جاهلا وتُمسى ماردا ، وتُحَثّ على انهوض وما تبرح قاعدا ، متى يذوب دمعٌ ما يزال جامدا ، متى ينقص جهل ما يَفْتأ زائدا ، يا من إذا قاربه النُصْح أضحى متباعدا ، لقد نظرت لنفسك نظراً فاسداً ، كم أشمتَ بك عدوا وأفرحت حاسدا ، يا نائما عن خَلاصه راقدا ؛ يا مريضا ما نرى له عائدا ، كم نوضح الأمثال ونضرب حديداً بارداً ، أترضى هذا الحال أن يكون زادا لارتحال ، تذكَّر عبثَ اليمين والشمال إذا خابت جميع الآمال ورأيت حسرة ما جمعتَ من مال ، وتيقنت فراق الأيتام والأطفال ، وحملت همًّا خفَّت عنده الجبال ، وبان لك أن حديث المنَى مُحَال ، يا مؤثر الغَيّ تأمل رشدك ، يا راحلا عن قليل تعرَّف قَصْدك ، أَصْلح بالتقى يومك قبل أن تاتى غدك ، إياك والهوى ودَعْ متعوَّدك :

أصبحتَ عادَيْت للصِّبا رُشْدك جهلًا وأسْلمت للهوى قَوْدَكْ
حتى متى لا تُفيق من سِنَة ولا يداوِى مُفَنِّدٌ فَنَدك(١)

---

(١) المفند : اللائم . والفند : الضلال ، والخطأ .

نُعْمِل فى صَيْدِ كلٍّ صائدة خَتْلَكَ طَوْرًا وتارةً طَرَدكْ[١]

ترمى التى إن أصاب ظاهرها سهمُك شكَّت بحدِّه كَبِدكْ

كان الحسن يقول : حادِثوا[٢] هذه القلوب فإنها سريعة الدُّثور ، واقْرَعوا هذه الأنفس فإنها طُلَعة ، وإنها تنازِع إلى شرغاية ، فتبصروا وتشدَّدوا ؛ فإنما هى أيام قلائل وإنما أنتم رَكْب وقوف يوشك أن يُدْعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم[٣] .

***

يا هذا زاحمْ باجتهادك المتقين ، وسِرْ فى سَرَب[٤] أهل اليقين ، هل القومُ إلا رجال طرقوا بابَ التوفيق ففتح لهم ، وما نيأس لك من ذلك .

إذا أعجبتك خصالُ امرئٍ فكُنْه يكن منك ما يُعْجبكْ

فليس على الُجود والمكرمات إذا جئتها حاجبٌ يَحْجبكْ

لقد رضيت لنفسك الغَبِينة ، وبعت الدار الشريفة بالدار المهينة ، وأعجبك مع عقلك ما يعجب الأطفال من الزِّينة ، أتراك ما علمت أن الدنيا صحبة سفينة ، إن ذُكر الصالحون فلست فيهم ، وإن عُدَّ الأبرار فما أنت معهم ، وإن قام العُبَّاد لم تُرَ بَيْنهم ، ويحك أتطمع فى الحصاد ولا بَذْر لك ، أترجو الأرباح ولا تجارة معك ، تَبْنِى بلا أساس ولا يثبت البناء ، وتحمل على عسكر الهوى بلا عَزْم فلا تصل إلى مراد ، ويحك دُمْ على الِحمْيَة يَزُلْ أثرُ التخليط ، واستوثق من عَقْد العَزْم خوفاً أن ينحلّ ، فإن عرض تقصير بوهن فاستدرك تُعَنْ

إذا ما عقدتَ العَقْد ثم تركتَه ولم تَثْنه عَقْداً وهَى ذلك العقدُ

وما اليدُ لولا أختها بقويةٍ ولا الرِّجْل لولا الرجل تمشى ولا تَعْدُو

---

(١) الختل : الخداع والطرد : مزاولة الصيد .

(٢) ا : حدثوا . (٣) ذم الهوى ص ٣٦ (٤) السرب : الطريق .

ولا كل محتـــاج إلى ما يَشُدُّه فيَعْسِف إلا والوَهَاء له وَكْدُ[1]
ترفَّع عن التَّعْذير[2] غير مذمَّم إلى شرف الإعذار يَخْلص لك الحمدُ

ويحك ضاق الوقت فمتى تتزود ، تعب الرائض وما تترك المتعوَّد .

عجبتُ للطالب الأمرِ البصير بما فيــــه من الغيّ إذ يسعى له طلبَا
وللمُـكبِّ على مالٍ يثمِّره وسوف يصبح منـــه المالُ منتهَبَا
وللمداوى ضَنَى جسمٍ عرّاه وقد دعا إلى نفسه الأوجاعَ والوصبَا
فذكِّر النفسَ هَوْلًا أنت راكبه وكُرْبةً سوف تلقى بعدها كُرَبَا
لا تَحْقرن من الآثام محتقراً كل امرئٍ سوف يُجْزَى بالذى اكتسبَا
إذا أتيت المعاصى فاخش غايتَها من يَزْرع الشوكَ لا يَحْصد به عِنبَا

لتَعْظمن على أهل المخالفات الآفات[3] ، ولتقطعن أفئدة المفرطين بالزفرات ، وليشتهرن الفاجر فى الخلوات بالجلوات ، ولتَمُورنّ السُّوق يوم السَّوْق إلى سُوق المحاسبات ، ولتسيلن الدماء بعد الدموع على الوجنات ، وليتحسرن أهل المعاصى إذا لاحت درجاتُ الجنات ، وليناديَن منادى الجزاء يُخْبر بتفاوت العطاء ووقوع السيئات « أم حَسِب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

---

(١) يعسف : يميل ويعدل . والوهاء : الضعف . والوكد : الدأب . (٢) ا : عن التذكر .
(١) ا : الأوقات

المجلس الخامس

فى ذكر ليلة النصف من شعبان

الحمد لله الذى لا ناقض لما بناه . ولا حافظ لما أفناه ، ولا مانع لما أعطاه ، ولا رادَّ لما قضاه ، ولا مُظْهر لما أخفاه ، ولا ساتر لما أبداه ، ولا مُضل لمن هداه ، ولا هادى لمن أعماه ، أنشأ الكون بقدرته وما حواه ، ورزق الصَّوْن بمنته ومَنَّهِ من والاه ، « وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه » . خلق آدم بيده وسوّاه وأسكنه فى حرم قُرْبه وحماه ، وأمره كما شاء ونهاه ، وأجرى القضاء بموافقته هواه ، فنزعتْ يدُ التفريط ما كساه ، ثم تاب عليه فرحمه واجتباه وحالُه ينذر من يسعى فيما اشتهاه ، وطرد إبليسَ وكانت السموات مأواه فأصمَّه بمخالفته كما شاء وأعماه ، وأبعـده عن بابه للعصيان[1] وأشقاه وفى قصته نذير لمن خالفه وعصاه . ألان الحديد لداود كما تمناه ، يَأْمن لا بسُه من يلقاه ، ثم صرع صانعَه بسهم قَدرٍ ألقاه ، فلما تسوَّر المحراب خَصْماه أظهر جدال التوبيخ لخصماه « وظَنَّ داودُ أنما فتنَّاه » وذهب ذو النون مغاضِبا فالتقمه الحوت وأخفاه ، فندم إذ رأت عيناه ما جنت يداه ، فلما أقلقه كَرْبُ ظلامٍ تغشَّاه تضرع مستغيثا ينادى مولاه : « إنى كنت من الظالمين . فنجيناه » .

تعالى ربنا وسبحانه وحاشاه أن يخيب راجيه وينسى من لا ينساه ، أخذ موسى من أمه طفلا وراعاه ، وساقه إلى حِجْر عدوه فربَّاه ، وجاد عليه بنعم لا تُحصَى وأعطاه ، فمشى فى البحر وما ابتلت قدماه ، وتبعه العدوُّ فأدركه الغرق وواراه ، فقال آمنت فإذا جبريل يمدّفاه ، وكان من غاية شرفه ومنتهاه أنه خرج يطلب ناراً فناداه : « يا موسى إنى أنا الله »

(١) ؟ : لعصيانه .

وشرّف أمته شرفا بينا أُولاه « وأنى فضّلتكم على العالمين » بكنتم[1] خير أمةٍ أخذناه .

خلق محمداً واختاره على الكُلّ واصطفاه ، وكشف له الحِجاب عند قاب قَوْسين فَرَآه ، وأوحى إليه من سِرّه المستور ما أوحاه، ووعده المقام المحمود وسيبلّغه مُنَاه .

فالحمد لله الذى دلنا بنبيِّه عليه وعرّفناه، وأجلّنا بالقرآن العظيم القديم وعلّمناه ، وهدانا إلى بابه بتوفيق أَوْدعناه ، حمدا لا ينقضى أولاه ولا ينفد أُخْراه .

وصلى الله على محمد ما تحركت الألسن والشفاه ، وعلى آله وصحبه صلاة دائمة تدوم بدوام مُلْك الله ، وسلّم تسليما .

***

عباد الله إن ليلتكم هذه النصف، عظيمة القدر وعجيبة الوصف، يطّلع الله فيها على العباد، فيغفر لكلّ ما خلا أهل العِنَاد .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : فقدتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فخرجت فإذا هو بالبقيع رافع رأسه إلى السماء فقال : كنت تخافين أن يَحِيف اللهُ عليك ورسولُه ؟ قلت : يا رسول الله، ظننت أنك أتيت بعض نسائك . فقال : « إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيَغْفر لأكثر من عدد شعَر غنم كلبُ »[2]

وعنها أيضاً قالت : كانت ليلة النصف من شعبان ليلتى فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم عندى ، فلما كان فى جوف الليل فقدتُه فأخذنى ما يأخذ النساء من الغيرة . فتلفّعْت بمِرْطى ، أمَا والله ما كانى مرطى خَزًّا ولا قزًّا ولا حريرا ولا ديباجا ولا قطنا ولا كتّانا. قيل : فمّ كان ؟ قالت : كان سَدَاه شَعْرا ولُحمته من أوبار الإبل. قالت : فطلبته فى حُجَر نسائه فلم أجده فانصرفت إلى حجرتى فإذا به كالثوب الساقط على وجه الأرض ساجداً وهو يقول فى سجوده : سجد لك سَوادى وخيالى وآمن بك فؤادى ، هذه يداى وما جنيتُ بهما على نفسى ، يا عظيماً يُرْتجى لكل عظيم اغفر الذنب العظيم ، أقول كما قال

---

(١) ؟ : وكنتم خير أمة اخترناه .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى صحيحه كتاب الصوم باب ماجاء فى ليلة النصف من شعبان . قال الترمذى : وسمعت محمدا يضعف هذا الحديث . ورواه ابن ماجة فى سننه حديث رقم ١٣٨٩

داود عليه السلام أعَفِّر وجهي بالتراب لسيّدي وحُقّ له أن يسجد وجهي للذي خلقه وشَقّ سمعه وبصره . ثم رفع رأسه صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم ارزقني قلبا نقيًّا من الشرك لا كافراً ولاشقيًّا.ثم سجد وقال: أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من معاقبتك ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك . قالت : ثم انصرف ودخل معي في الخميلة ولي نفَسٌ عالٍ فقال : ما هذا النفَس يا حميراء ؟ قالت : فأخبرتُه فطفق يمسح بيده على ركبتي ويقول : « ويح هاتين الركبتين ماذا لقيتا في هذه الليلة ليلة النصف من شعبان ، إن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا[1] فيغفر لعباده إلا لمشْرك أو مشاحن » .

وفي رواية أخرى عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا حميراء أمَا تدرين ما هذه الليلة ؟ هذه ليلة عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب . قلت : يا نبي الله وما بال غنم كلب ؟ قال : ليس في العرب قوم أكثر غنما منهم ، لا أقول فيهم ستة : مُدْمن خمر ولا عاقّ والديه ولا مصرّ على ربا أو زنا ولا مُصَارم ولا [مصوِّر][2] ولا قتّات » .

وروى عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يطّلع الله إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا لاثنين : مشاحِن وقاتل نفْس[3] » .

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليلة النصف من شعبان يغفر الله لعباده إلا لمشرك أو مشاحن » .

قلت : والظاهر من[4] المشاحن أنه الذي بينه وبين أخيه المسلم عداوة . وقد قال الأَوْزاعيّ : هو الذي في قلبه شحناء لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يُسحُّ[5] الله الخيرَ في أربع ليال سَحًّا : الأضحى والفطر وليلة النصف من شعبان تُنْسخ فيها الآجال والأرزاق ويكتب فيها الحاجّ ، وفي ليلة[6] عرفة إلى الأذان» .

(١) ت : إلى السماء الدنيا . (٢) ليست في ت . (٣) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ٢/١٧٦ .
(٤) ت : والظاهر أن المشاحن الذي بينه . (٥) يسح : يفيض . (٦) ت : وليلة عرفة .

وفى حديث عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : خمسُ ليالٍ لا يُردّ فيهن الدعاء . فذكر منهن ليلة النصف من شعبان .

وروى ابن كِرْدَوْس عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحيا ليالى العيدين وليلة النصف من شعبان لم يمُتْ قلبه يومَ تموت القلوب [1] » .

وعن علىّ أنه قال : « إذا كان ليلة النصف من شعبان قال الله تعالى : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من مسترزق فأرزقه ؟ حتى يَنْفجر الفَجْر . فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيام ليلتها وصيام نهارها » .

وقال حكيم بن كَيْسان : يَطّلع الله إلى خلقه فى ليلة النصف من شعبان فمن طَهّره فى تلك الليلة زكّاه إلى مثلها من قابل .

روى عن عِكْرمة فى قوله تعالى : « فيها يُفْرق كلُّ أمرٍ حكيم [2] » قال : فى النصف من شعبان يدبِّر الله أمر السنة ويُنْسخ الأحياء من الأموات ، ويكتب حاجُّ بيت الله الحرام فلا يزيد فيهم أحدا ولا ينقص منهم أحدا .

واعلم أن الرواية بهذا عن عِكْرمة مُضْطربة ، فتارةً يروى هكذا وتارة يروى أنها ليلة القَدْر كباقِى المفسِّرين . وقد سبقت الأحاديث أن الآجال تكتب فى شعبان ، فجائز أن يختص شعبان بما يتعلق بالآجال ويكون القَدَر العامُّ فى ليله القدر .

وقد رويت لهذه الليلة خمس صلوات ليس فى أسانيدها شىء صحيح ، ولا فيها مايَثْبت ، فلذلك سكتنا عن ذكرها ، فإن الحديث إذا لم يَصحّ كان وجوده كالعدم .

(١) الحديث أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط بدون : « وليلة النصف من شعبان » مجمع الزوائد ٢/١٩٨

(٢) سورة الدخان ٤

الكلام على الشمل

سَهْم المنـــايا [1] أبدًا صائبٌ يدعو إليـــه الناسَ مُسْتعرِضا
بَيْنا الفتى فى عَيْشه ناعمٌ تغرُّهُ الأيامُ حتى قَضَى
وكلُّ يومٍ مرَّ من عُمره يَحْدوه للتَّرْحال مُسْتنهضاَ
والنَّفْس دَيْن الموتِ عند الورَى ودَيْنــه لابد أن يقتضَى
ياعجَبًــا من عالمٍ آمِنٍ من غَدْره أو سيفه المنتضَى
أين الذين استَبقُوا للنُّهى واغْتَبقُوا بالمشْرَب المرتضَى
طوَتْهم الأجـداثُ فى ضِيقها وعادَ من يهواهمُ مُعْـرِضاَ

أين الحبيب والخليل ؟ ودَّعا ، أين الرفيق ؟ رحَل عنـكم ودعا ، أأبقى الموتُ لـكم فى الحياة مَطْمَعا ؟ أخذ الصغيرَ والـكبير معا ، صاح بالوالد والولد فأسرعا ، جُزْ على القبور ترى القومَ خُشَّعا ، أين الفهم والتدبر ، أين أهل الجهل والتـكبر ، أين من فسحَ لنفسه فى الزَّلَل ، أين من خانها بقبيح العمل ، بَيْنَا هو يَعْمر فى رِبَاعها ، وقد اشتراها وما باعها ، يحفر فيها الأنهار ، ويغرس فيها الأشجار ، والمماليك تدور حول الدار [والسَّرارى بحسنها تَسرّ ، ونُحورها قد زانَها الدُّرّ ، والتُّخوت تملأُ الصناديق ، وركن العِزّ فى الدنيا وَثِيق ، والمال يُجْمعَ فوق المال ، والخيل تَرْدِى فى الجِلاَل ، والمراكب من الحُلِىّ تُصَاغ ، وقد مُنحت الصحةُ إلى الفراغ ، ثم ساعَد ساعِد الشباب كفُّ الهوى على الاستلاب ، والعُود قد رثَّ ثم عاد ، والبطاشُ فى الملك بطاشُ عاد ، وقد أسكرت من قبل شُرْب الخمر لذة النهى والأمر ، صاحت بَيْن البَيْن أغربةُ البَيْن ، فمزقت العَيْن وأسْخنت العين ، تالله لقد استُلب صاحب القَصْر بكف القَسْر ، فصار بالقَهْر أحدوثة الدهر ، ولقد كان على غاية المنى فى أول الشهر ، فواعجبا لجنة صارت كالصَّرِيم بعد الزَّهْر [2]] .

---

(١) ت : سهم المنية . (١) مابين القوسين ساقط من ا ت .

نُودِى بصوتٍ أيّما صوتٍ ما أقربَ الحىَّ من الموتِ
كأنّ أهــــلَ الغَىّ فى غيِّهم قد أخـذوا أمْناً من الفَوْتِ
كم مُصْبح يَعْمر بيتــاً له لم يُمْسِ إلا خَرِب البيتِ
هــــذا وكم حَىٍّ بكى ميِّتا فأصبح الحىُّ مع الميْتِ

***

يامشغولا بما لديه عما بين يديه ، ياغا فلا عن الموت وقد دنا إليه ، ياساعيا إلى مايضره بقدميه ، يامختار المؤذِى له من حالتيه ، يأمن الدهر وقد رأى صَرْفَيْه ، كم عايَن ميّتا لو اعتبر بعينيه ، إنما أغار على شبابه هاجمٌ على فَوْديه ، أينفعه يوم الرحيل دمع يملأ خديه ؟ يامن يصير عن قليل إلى حُفْرة ، تنبَّه لنفسك من هذه السَّكْرة ، لو أنك تذكَّرت لحدك كيف تَبيت وحدك ، ويباشر الترابُ خدَّك وتتقسَّم الديدان جلدك ، ويضحك المحب بَعْدك ناسياً عنه بُعْدك ، والأهلُ قد وجدوا المالَ وما وجدوا فَقْدك ، إلى متى وحتى متى تترك رُشْدك ، أما تُحْسِن أن تُحْسِن قَصْدك ، الأمر مُجدّ جِدًّا فالزم جِدَّك .

ذهب الأحبةُ بعد طُول تَوَدُّد ونأى المزارُ فأسلموك وأقْشعُوا
خذَلوك أفقَر ما تكون لغُرْبة لم يؤنسوك وكُرْبةً لم يَدْفعوا
قُضِى القضاء وصرت صاحب حُفْرة عنك الأحبةُ أعرضوا وتصدَّعوا

***

إخوانى : إنكم تَغْدون وتروحون فى آجال قد غيِّبت عنكم ، لاتدرون متى تهجم عليكم ، فالوحاَ الوحا فالطالب حَثِيث .

يَجِدُّ بنا صَرْفُ الزمانِ ونَهْزِل ونُوقَظ بالأحداث فيه ونَغفُلُ
وما الناس إلا ظاعِنٌ أو مودِّع ومُنْتَلبٌ مستعجَل أو مُؤجَّلُ
وما هذه الأيام إلا مَنَــــازلٌ إذا ما قطعْنا منزلًا بان مَنْزِلُ

فَنَاءٌ مُلِحٌّ ما يُغِب جميعَنَا إذا عاش منا آخِرٌ مات أوّلُ
وكم صاحبٍ لى كنت أكره فقده تسلّمه منّى الفَناء المعجّلُ

اسمعوا عظة الزمان إن كنتم تسمعون وتأملوا تقلّبَ الأحوال إن كنتم تبصرون .

قال يحيى بن معاذ : لو سمع الخلائقُ صوتَ النياحة على الدنيا من ألسنة الفَناء لتساقطت القلوب منهم حُزْنا ، ولو رأت العقُول بعين الإيمان نزهة الجنة لذابت النفوسُ شَوْقا ، ولو أدركت القلوب كُنْه المحبة لخالِقها لتخلّعت مَفَاصلها ولَهاً . فسبحان من أغفل الخليقةَ عن كُنْهِ عين هذه الأشياء ، وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأنباء :

من نالَ من جوهر الأشياء بُغْيتَه يَأْسى ويَحْقر قوماً حظُّهم عرَضُ
إنى لأعجب من قوم يَشفُّهمُ حبُّ الزخارف لا يَدْرون ما الغرضُ
ألا عقولٌ ألا أحلامُ تَزْجرهم بلى عقولٌ وأحلام بها مرضُ

إخوانى : من آثر قِناع القناعة حاطَه من رداء الردَى . ومتى ساعَد الفقرَ ساعِدُ الصَّبْر قلَع قلعة الحِرْص فاستنارت طريقُ الهُدَى بمصباح اليقظة ، ومتى تأجّجت نيرانُ الخوف(١) أحرقت مواطن الهوى وطردت عنه الدنيا :

تزوَّد من الدنيا فإنك هالك وتترك للأعداء ما أنت مالكُ
ووسِّع طريقاً أنت سالكه غدا فلابد من يوم تَضِيق المَسالكُ

(١) ت : نيران الحزن

الكلام على قوله تعالى
حم والكتاب المبين

اختلف المفسرون فى « حم » على قولين : أحدهما : أنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه . وهذا مذهب جماعة من المفسرين . والثانى : أنها معروفة المعنى. ثم لهؤلاء فيها قولان : أحدهما أنها حروف من أسماء . ولهؤلاء فيها ثلاثة أقوال :أحدها:أنها من الرحمن . قال ابن عباس : الر ، وحم ، ون ، اسم الرحمن على الهجاء . والثانى : أن الحاء مفتاح اسمه حَميد والميم مفتاح اسمه مجيد قاله أبو العالية . والثالث أن الحاء مفتاح كل اسم ابتداؤه حاء مثل حكيم وحليم وحَىّ . والميم مفتاح كل اسم ابتداؤه ميم مثل مَلِك ومَجيد . حكاه أبو سليمان الدمشقى .

والقول الثانى : أن معنى حم : قُضِى ما هو كائن . رواه أبو صالح عن ابن عباس كأنه يصير إلى حُمّ الأمر .

قال المفسرون : حم قسَم جوابه : « إنا أنْزلناه » والهاء كناية عن الكتاب وهو القرآن . « فى ليلةٍ مُبَارَكة » وفيها قولان : أحدهما أنها ليلة القدر . قاله الأكثرون . والثانى : ليلة النصف من شعبان : وقد ذكرناه عن عكرمة . « إنا كنا مُنْذِرين » أى مخوِّفين عقابنا . « فيها يُفْرَق » أى يُفْصل « كل أمر حكيم » .

***

اجتهدوا الليلة فى محو ذنوبكم واستغيثوا إلى مولاكم من عيوبكم ، هذه ليلة الإنابة فيها تُفتَح أبواب الإجابة، أين اللائذ بالجنَاب ، أين المتعرّض[1] بالباب ، أين الباكى على ما جنَى، أين المستغفر لأمرٍ قد دنَا ، كم منقول فى هذه الليلة من ديوان الأحياء مُثْبت فى صُحف أهل التلَف والفنا ، فهو عن قريب يفجأ بالمات وهو مقيم على السيئات ، ألا رُبَّ فَرِح بما يؤتَى قد خرج اسمه مع الموتى ، ألا رُبَّ غافل عن تدبير أمره قد انفصمت عُرَى

(١) ت : المعترض .

عُمْره ، ألا رب مُعْرِض عن سبيل رشده قد آن أوانُ شَقِّ لَحْده ، ألا رُبَّ رافلٍ فى ثوب شبابه قد أزف فراقه لأحبابه ، ألا رب مقيم على جهله قد قرب رحيله عن أهله ، ألا رب مشغول بجمع ماله قد حانت خيبة آماله ، ألا رب ساعٍ فى جمع حُطامه قددنا تشتيت عِظَامه، ألارب مُجِدّ فى تحصيل لَذاته قد آن خرابُ ذاته ، أين من كان مثلَ هذه الأيام فى منَازله يَدْسَأ فى طمأنينته إزعاجُ مُنَازِله ، مشغولا بشهواته مغرورا بعاجله ، أمَا أصاب مَقَاتِله سهمُ مُقاتله، أما ظهر خَساره عند حساب مُعَامِله ، أين المعتذر مما جَناه فقد اطلع عليه مولاه ، أين الباكى على تقصيره قبل تحسّره فى مَصيره ، يامطرودا مادرى ، تعاتَب ولا تفهم ماجرى ، متى تُرَى على الباب ترى :

تعالَوْا كلٌّ من حضَرا لِنَطْرق بابَه سَحَرا
ونبـــكى كلُّنا أسفاً على من بات قد هُجِرَا

روى عن كعب الأحبار رضى الله عنهما قال : إن أهل الجنة ليَفرحون بدخول شهر رمضان من الحور والخزَنة والولدان كما يفرح أهل النار من ذرية آدم بدخول الجنة إذا سكنوها . وذلك أن الله عز وجل يبعث جبريل عليه السلام فى ليلة النصف من شعبان فيقول : السلام عليكن أيتها الجِنَان أنا جبريل الأمين رسول رب العالمين تزيَّنى وتجددى وازدادى نورا وتلألئى وافتحى أبواب مَقَاصيرك المَرْجانية وحجالك العَبْقرية التى بَطائنُها من إستبرق وحَشْوها أذْفَريَّات المِسْك ، وأخرجى متضمنات المخلوقات التى لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فإن الله عز وجل قد أعتق فى ليلتك هذه عدد نجوم السماء وعدد أيام الدنيا ولياليها وعدد ورق الشجر وزنة الجبال وعدد الرمال [(١)] .

***

يا مضيعا اليومَ تضيعه أمس ، تيقظ ويحك فقد قتلت النفس ، وتنبه للسُّعود فإلى كم نَحْس ، واحفظ بقية العمر فقد بِعتَ الماضى بالبخس [(٢)]

(١) هذا من المبالغات التى لا ترجع إلى أصل صحيح (٢) ت : بوكس .

أمِلْ جَفْوةَ الدنيا وتهوين شأنها فما العاقلُ المغرورُ فيها بعاقلِ
يرجِّى خلوداً معشرٌ ضَلّ ضلُّهم ودون الذى يرجون غُولُ الغوائل
وليس الأمانى للبقاء وإن مضت بها عادةٌ إلا تعاليلُ باطلِ
وما المفلتون أُجْمِلَ الدهرُ فيهم بأكثر ممن فى عِدَاد الحبائل
يُسَار بنا قَصْد المنون وإننا لَنُعْنَف أحياناً بطىِّ المَراحلِ
غفلنا عن الأيام أطولَ غفلة وما جُوبها المخشىُّ(١) منها بغافلِ

***

إخوانى حِبَال الأمل رِثاث، وساحر الهوى نفَّاث، رحلَ الأقرانُ إلى ظلام الأجداث، لله ما صنعت الأجداثُ فى الأحداث. أفسدهم بِلاَهُمْ فإذا هم بلاهم إى والله وعاث باتوا شِبَاعا من الأمل فإذا هم غِرَاث(٢) وبان لهم أن ما كانوا فيه من الهوى أضغاث واستغاثوا بالخلاص وقد فات الغيات. عجباً لهم مالهم صيَّر النَّوَى مالَهم فى الميراث. فدبَّروا أنتم أحوالكم فغداً ترون أموالكم للورَّاث، أسفا لأجسام ذكورٍ وعقول إناث:

أكبَّ بنو الدنيا عليها وإنها لتَنهاهم الأيامُ عنها لو انتهَوْا
مضَى قبلنا قِدْماً قرونٌ كثيرة ونحن وَشِيكاً ما سنمضِى كما مضَوْا
سيبكون حُزْنا حول قبرك ساعةً ولا يَبْرحون القبرَ إلا وقد سَلَوْا
رأيتُ بنى الدنيا إذا ما سمَوْا بها هوَتْ بهم الدنيا على قَدْر ما سمَوْا

***

يامن يَجُول فى المعاصى قلبه وهمُّه، يامؤثِر الهوى على التُّقَى لقد ضاع حزمه، يامعتقدا صِحَّته فيما هو سقمه، يامن كلما زاد عمْره زاد إثمه، ياطويل الأمل وقد رقَّ عظمه، أمَا وعظك الزمان وزجرك مُلِمّه، أين الشباب قل لى قد بان رَسْمه، أين زمان المرح لم يبق إلا اسمه، أين اللذة ذهب المطموم وطَعْمه، كيف يقاوى المقاوى والموتُ خَصْمه، كيف

(١) ب ج: وما جوفها المخشى. (٢) الغراث: الجوعى.

خلاص من قد أغْرق[1] فيه سَهْمه ، ياالَدِيغ الأمل قد بالغ فيه سُمّه، يا قليل العِبَر وقد رحل أبوه وأمه، يامن سيجمعه اللحدُ عن قليل ويضمّه ، كيف يوعظ من لا يعظه عقله ولا فهمه ، كيف يُوقَظ من نام قلبه لاعينه ولا جسمه .

إذا لم تكن دنياك دارَ إقامةٍ فما لك تَبْنيها بناء مُقيمِ
وما صحّ وُدّ الخلِّ فيها وإنما يُغَرّ بودٍّ فى الحياة سقيمِ
وجدتُ بنى الأيام فى كل مَوْطِنٍ يعدّون فيها شِقْوةً كنعيمِ
تزيدك فقراً كلما ازددتَ ثروةً فتُلْفَى غنيًا فى ثيابَ عَديمِ

(١) ا : أعلق

المجلس السادس

لاستفتاح شهر رمضان

الحمد لله اللطيف الرءوف العظيم المنّان ، الكبير القدير القديم الديّان ، الغنىّ العلىّ القوىّ السلطان ، الحليم الكريم الرحيم الرحمن، الأول فالسَّبْق لسَبْقه ، المنعم فما قام مخلوقٌ بحقّه ، المُوالِي بفضله على جميع خَلْقِه بشرائف المنائح على توالى الزمان ، جلّ عن شريكٍ وولد ، وعزّ عن الاحتياج إلى أحد ، وتقدّس عن نظير وانفرد ، وعلِم ما يكون وأوجد ما كان . أنشأ المخلوقات بحكمته وصَنَعَها ، وفرّق الأشياء بقدرته وجَمَعها ، ودحَا الأرضَ على الماء وأوسعها « والسماءَ رفعها ووضع المَيزان » .

سالت الجوامدُ لهيبته ولانت، وذلت الصِّعاب لسطوته وهانت،وإذا بطش « انشقّت السماء فكانت وَرْدةً كالدِّهان » .

يُعزّ ويُذل ، ويفقر ويغنى، ويُسْعد ويُشْقِى ، ويبقِى ويُفْنِي، ويَشِين ويزين ،وينْقض ويَبْنى « كلَّ يومٍ هو فى شأن » .

قدّر التقدير فلا رادَّ لحُكمه وعلِم سِرّ العبد وباطن عَزْمه « وما تَحْمِلُ من أُنثَى ولا تَضَعُ إلا بعِلْمه » ، ولا ينتقل قدم من مكان .

مدّ الأرض فأوسَعها بقدرته، وأجرى فيها أنهارها بصنعته، وصبَغ ألوانَ نباتها بحكمته ، فمن يقدر على صَبْغ تلك الألوان . ثبَّتها بالجبال الرواسِي فى نواحيها ، وأرسل السحاب بمياه تُحْيِيها ، وقضى بالفَناء على جميع ساكنيها « كلُّ مَنْ عليها فان » .

من خدَمه طامعا فى فضله نال ، ومن لجأ إليه فى رَفْع كربه زال ، ومن عامله أربحه وقد قال : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

إلهٌ يُثيب عِبَاده ويعاقِب ، ويهب الفضائل ويَمنَح المناقب ، فالفوز للمتقى والعِزّ للمراقِب

« ولمن خاف مقامَ ربه جَنَّتان » .

أنعم على الامّة بتمام إحسانه، وعاد عليها بفضله وامتنانه، وجعل شهرها هذا مخصوصا بتعميم غفرانه « شهرُ رمضانَ الذى أُنْزِل فيه القرآن » .

أحمده على ما خصّنا به فيه من الصيام والقيام ، وأشكره على بلوغ الآمال وسُبوغ الإنعام ، وأشهد أنه الذى لاتحيط به العقول والأذهان ، وأن محمدا أفضل خَلْقه وبَرِيّته ، المقدَّمْ على الأنبياء ببقاء معجزته ، الذى انشق ليلة ولادته الإيوان ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى أبى بكر الصديق رفيقه فى الغار، وعلى عمر فتّاح الأَمْصار، وعلى شهيد الدار عثمان، وعلى علىّ كاشف غَمّه سيد الشجعان [1] ، وعلى عمه العباس المطهَّر من الأرجاس ، الذى دُعى به فسال من السحابَ تَهْتان .

* * *

قال الله عز وجل : « شهر رمضان الذى أُنْزِل فيه القرآن » [2] .

إنما سمِّى الشهر شهرًا لشُهْرته فى دخوله وخروجه . قاله النَّحاس . وأما أسماء الشهور فذكر أبو منصور الأزهرى عن المفضَّل قال : كانت العرب فى الجاهلية تقول لرمضان ناتق ، ولشوال وَعِل ، وللمحَّرم مُؤتمر ، ولصفَر ناجِر ، ولربيع الأول خُوّان ، ولربيع الآخر بُصّان ، ولجمادى الأولى رُبَىّ [3] ، ولجماد الآخر حَنِين ، ولرجب الأصمّ ، ولشعبان عاذل . قال : وكانت عاد تسمى هذه الأشهر بهذا فلما نقلت العربُ أسماء هذه الأشهر سموها بما وقعت فيه من الزمان [4] . قال ثعلب : سمِّى رمضان لأن الإبل تَرْمض فيه من الحَرّ ، وسمى شوال لأن الألبان كانت تَشُول فيه أى تذهب وتقِلّ . وسمى ذو القَعْدة لأنهم كانوا يقعدون فيه . وذو الحِجّة لأنهم كانوا يحجُّون فيه . والمحرَّم لتحريم القتال فيه . وصفَر لأنهم

---

(١) ت : وعلى على سيد الأبرار . (٢) سورة البقرة ١٨٥ .

(٣) الذى فى المخصص لابن سيده ٩/٤٣ : والحنين : جمادى الأولى . . وربى جمادى الآخرة ويسمى أيضا ملحان .

(٤) وانظر فى أسماء الشهور العربية أيضا : مروج الذهب ١/٢٤٨، ونهاية الأرب ١/١٥٧ والأزمنة والأمكنة للمرزوقى ١/٢٧٢

كانوا يطلبون القَطْر فيه ، يقال صَفِر السِّقَاء إذا خَلَا . وربيع لأنهم كانوا يربعون فيهما . وجُمَادى لأن الماء يَجْمد فيهما. ورجب من التعظيم يقال رجَّبه يرجِّبه إذا عظَّمه . وقال شمَّر : ومنه سمى رجب . وشعبان لأنهم يتفرقون ويتشعَّبون فيه . وقال قُطْرب : سمى صفراً لأنهم كانوا يخرجون إلى بلاد تسمى الصفريّة يمتارون منها .

وقد أحدثت العرب لأسماء شهور الأعاجم أسماء . فنقلت من خط أبى بكر بن الأنبارى فى كتاب قد صنعه أبو محمد الصُّبْحى قال: لقَّبت العرب شهور العجم بألقاب غير ما سمَّتها به العجم : تشرين الأول أحد وثلاثون يوما والعرب تسميه مُطْلَقا ، والثانى ثلاثون يوما واسمه عند العرب طَلِيق ، وتسمى التَّشْرينيْن القَصَّابين لفشوّ الموت فيهما وكثرة من يموت ، وكانون أحد وثلاثون يوما واسمه عند العرب مجدح ، وكانون الآخر اسمه عند العرب حديج وتسميهما أيضا شَيْبان ومَلْحان للثلج وبياضه وشدة البرد قال الكُمَيْت :

وأصبحت الآفاق حُمْرا جُنُوبها بشَيْبان أو مَلْحان فاليوم أَشْيَبُ (١)

ويقال لها أيضا الهزار لشدة البرد . وشباط تسعة وعشرون يوما واسمه عند العرب فريح ، وآذار أحد وثلاثون يوما واسمه عند العرب مسهل . ونيسان ثلاثون يوما واسمه عندهم صحان ، وحزيران ثلاثون يوما واسمه عندهم واقد ، وتموز أحد وثلاثون يوما واسمه عندهم ضرام ، وأيلول ثلاثون يوما واسمه عندهم طلق .

***

قوله تعالى : « الذى أُنزِل فيه القرآن » فيه أربعة أقوال : أحدها : أنه أنزل القرآن فى شهر رمضان إلى السماء الدنيا جُملة واحدة . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : أنزل القرآن فى رمضان ليلة القَدْر إلى بيت العزة من سماء الدنيا جملةً واحدة ثم أنزل نُجوما .

(١) رواية البيت فى اللسان مادة (ملح) :

إذا أمست الآفاقُ حُمْرا جُنوبها لشَيْبان أو مَلْحان واليوم أشْهبُ

والثانى : أُنزل القرآن بفَرْض صيامه . قاله مجاهد والضحاك .

والثالث : أُنزل فى فَضْله القرآن . قاله سفيان بن عُيَيْنة .

والرابع : ابتدئ فيه بإنزال القرآن . قاله ابن إسحاق وأبو سليمان الدمشقى .

قوله تعالى : « هُـدًى للناس » أى بياناً لهم . والبيِّنات : الآيات الواضحات . والفرقان : المفرِّق فى الدين بين الضلالة والشُّبْهة .

أخبرنا أبو القاسم بن الحصين بسنده عن نافع بن أُوَيس أن أباه حدثه أنه سمع أباهريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل رمضان فتِّحت أبواب الرحمة وغلِّقت أبواب جهنم وسُلْسلت الشياطين »[١] .

وقد رويناه أيضا عالياً عن أبى سهيل نافع بن مالك فذكره . وقال : فتِّحت أبواب الجنة . أخرجاه فى الصحيحين[٢] . ونافع يكنى أباسهيل وهو من تابع التابعين ، والزُّهْرى من التابعين فقد روى الزهرى عمَّن هو دونه، فهو يخرج فى رواية الأكابر عن الأصاغر . وقد روى جماعة من الصحابة عن التابعين فروى ابن عمر وابن عمرو وابن الزبير وأنس وأبو هريرة كلهم عن كعب . وقد روى جماعة عن أولادهم ، فروى أبو بكر الصِّديق عن عائشة حديثين ، وروى العباس عن ابنه الفضل حديثا وعن ابنه عبد الله حديثا وروى سليمان التَّيْمى عن ابنه المعتمر حديثين ، وروى أبو بكر ابن عيَّاش عن ابنه إبراهيم حديثا وروى أبو داود السجستانى[٣] عن ابنه حديثين ، فى خَلْق يطول ذكرهم .

أخبرنا أبو منصور القزّاز بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله ليس بتاركٍ أحداً من المسلمين صبيحةَ أول يوم من رمضان إلا غفرله »[٤]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢/٢٨١ ، ٤٠١ . (ط الميمنية) .
(٢) صحيح البخارى كتاب الصوم الباب الخامس . وصحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ١ — ٥ .
(٣) الأصل : السختيانى . محرفة .
(٤) أورده السيوطى فى اللآلئ المصنوعة ٢/١٠١ وقال : لايصح، سلاّم متروك وزياد كذاب والعجيب أن ابن الجوزى نفسه هوالذى حكم على هذاالحديث بالوضع فى كتابه الموضوعات، إذ أن كتاب السيوطى اختصار له.

أخبرنا محمد بن أبى طاهر بسنده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدت الشياطين ومردَة الجن وغُلِّقت أبواب جهنم فلا يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنان فلم يغلق منها باب وينادى منادٍ : ياباغى الخير أقْبل ويا باغى الشر أقْصر ولله عتقاء من النار وذلك فى كل ليلة (١) » .

أخبرنا عبد الأول بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفِر له ما تقدم من ذنبه » .

أخرجاه فى الصحيحين .

وقد أخرجاه من حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى سَلَمة ولفظه : «من قام رمضان إيمانا واحتسابا (٢) » .

أخبرنا أبو نصر أحمد بن منصور المنائى بسنده عن على بن أبى طالب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استهلَّ شهرُ رمضان استقبل القِبْلة بوجهه ثم قال : اللهم أهِلَّه علينا بالأَمْن والإيمان والسلامة والإسلام والعافية والمجللة والرزق الحسن ودِفاع الأسقام والعَوْن على الصلاة والصيام وتلاوة القرآن ، اللهم سلِّمنا لرمضان وسلِّمه منا حتى ينقضى وقد غفرتَ لنا ورَحِمْتنا وعفوت عنا . ثم يُقْبل على الناس بوجهه فيقول : يا أيها الناس إنه إذا استهل شهر رمضان فُتِّحت أبواب السماء وأبواب الرحمة وأبواب الجِنَان ، وغُلِّقت أبواب النار وسُلْسلت الشياطين وكان لله عز وجل عند كل فِطْر عُتَقاء من النار ونادى منادٍ كلَّ ليلة : اللهم أعطِ كلَّ مُمْسك تلفاً وأعط كل مُنْفق خَلَفاً . فإذا استهل هلال شوال نودى المؤمنون أن اغدوا إلى جوائزكم . وأقلُّ ما يجازَى به الرجل أن يُكتب له ألف ألف حسنة ويُمْحى عنه ألف ألف سيئة .

(١) أخرجه الترمذى فى صحيحه كتاب الصوم حديث رقم ١

(٢) صحيح البخارى كتاب الصوم باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا . وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب فى قيام رمضان حديث رقم ١٧٣ .

أخبرنا محمد بن منصور بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إلى خَلْقه وإذا نظر الله إلى عَبْد لم يعذِّبه أبدا ، ولله في كل ليلة ألف ألف عتيق من النار [1] » .

قال أبو عمرو : فشككت في شيء من هذا الحديث فكتبته من الحسن بن يزيد ، وكنت سمعته أنا والحسن بن عبد الله بن الحكيم ، حدثنا القاسم بن الحكم العرَني ، عن الضحّاك ، عن ابن عباس أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الجنة لَتنجَّد وتزيَّن من الحَوْل إلى الحول لدخول شهر رمضان. فإذا كانت أول ليلة من شهر رمضان هبَّت ريح من تحت العرش يقال لها المثيرة فتصفِّق ورقَ أشجار الجنات وحلَق المصاريع فيُسْمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أحسن منه ، فيُشْرِفن الحورُ العِين حتى يقفن على شجر الجنة فينادين : هل من خاطبٍ إلى الله عزوجل فيزوّجه ؟ ثم يقلن : يارضوان ماهذه الليلة ؟ فيجيبهن بالتلبية ثم يقول : ياخَيْرات حِسَان هذه أول ليلة من شهر رمضان فتفتح فيها أبواب الجنات للصائمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويقول الله عز وجل يارضوان افتح أبواب الجنان يامالك أغلق أبواب الجحيم عن الصائمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ياجبريل اهبط إلى الأرض فصفِّد مَرَدة الشياطين وغُلَّهم في الأغلال ثم اقذف بهم في لُجَج البحار حتى لا يفسدوا على أمة حبيبي صيامهم . قال : ثم يقول الله عزوجل في كل ليلة من شهر رمضان ثلاث مرات : هل من سائل فأعطيه سُؤْله . هل من تائب فأتوب عليه ؛ هل من مستغفر فأغفرله ؟ من يُقْرض المليَّ غير المُعْدم الوفيَّ غير الظَّلُوم .

قال : ولله عز وجل في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار ، فإذا كان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعتق في كل ساعة ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجب العذاب ، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق الله عزوجل في ذلك اليوم

---

(١) أورده في اللآلئ المصنوعة ٢/١٠١ وقال : موضوع فيه مجاهيل

بعدَد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره ، فإذا كانت ليلة القدر يأمر الله عز وجل جبريل فيهبط فى كُبْكبة من الملائكة معه لواء أخضر فيركز اللواء على ظهر الكعبة وله ستّمائة جناح منها جناحان لاينشرهما إلا فى ليلة القدر فينشرهما تلك الليلة فيجاوزان المشرق والمغرب قال : ويبث جبريلُ الملائكة فى هذه الأمة فيسلِّمون على كل قائمٍ وقاعد ومصلٍّ وذاكر ، فيصافحونهم ويؤمِّنون على دعائهم حتى يَطْلع الفجر فإذا طلع الفجر نادى جبريل : يامعشر الملائكة الرحيل الرحيل . فيقولون : ياجبريل ما صنع الله فى حوائج المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : إن الله عز وجل نظر إليهم فى هذه الليلة فعفا عنهم وغفر لهم إلا أربعة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهؤلاء الأربعة مُدْمن خمر ، وعاقّ لوالديه ، وقاطع رَحِم ومشاحِن . فقيل : يارسول الله وما المشاحن ؟ قال : هو المصارِم . فإذا كانت ليلة الفطر سميت ليلة الجائزة ، فإذا كان غَداة الفطر يبعث الله تعالى الملائكة فى كل بلد فيهبطون إلى الأرض فيقومون على أفواه السِّكَك فينادون بصوت يسمعه جميع من خلق الله إلا الجن والإنس فيقولون : ياأمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنب العظيم . فإذا برزوا فى مُصَلَّاهم يقول الله تعالى : ياملائكتى ماجزاء الأجير إذا عمل عَمله ؟ فتقول الملائكة : إلٰهنا وسيدنا جزاؤه أن توفيه أجْره . فيقول الله تعالى : أُشْهدكم ياملائكتى أنى قد جعلت ثوابهم فى صيامهم شهر رمضان وقيامهم رِضَاى ومغفرتى . فيقول الله عز وجل : سَلُونى فوعزتى وجلالى لاتسألونى اليومَ شيئا فى جَمْعكم هذا لآخرتكم إلا أعطيتكموه ولالدنيا إلا نظرت لكم ، وعزتى لأَسْترنّ عليكم عثراتكم ما راقبتمونى ، وعزتى لا أُخْزيكم ولا أفضحكم بين أصحاب الحدود أو الجدود . شكَّ أبو عمرو . انصرفوا مغفورا لكم قد أرضيتمونى ورضيت عنكم . قال : فتفرح الملائكة ويستبشرون بما يعطى الله عز وجل هذه الأمة إذا أفطروا (١) .

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُعطيت أمتى خمسَ

---

(١) أورد نحوه السيوطى فى اللآلىء المصنوعة ٢ / ٩٨ عن ابن حبان وقال : لايصح . وأخرج نحوه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣ / ١٤١ — ١٤٢ عن أبى يعلى والطبرانى ، وفيه ضعف .

خصال فى شهر رمضان لم تُعطَهن أمةٌ قبلهم : خُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وتستغفر لهم الملائكة حتى يُفْطروا ، ويزيّن الله كلَّ يوم جَنّته ثم يقول : يوشك عبادى الصالحون يُلقوا عنهم المؤنة أو الأذى ويصيروا إليك . وتُصَفَّد مَرَدَةُ الشياطين فلا يَخْلصون إلى ما كانوا يخلصون إليه فى غيره ، ويُغْفر لهم فى آخر ليلة . قيل : يارسول الله أهى ليلة القَدْر ؟ قال : لا ولكن العامل يوفَّى أجره إذا قضى عمله(١) .

وعن ابن عباس وعائشة قالا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل شهرُ رمضان أطْلَق كلَّ أسير وأعطى كل سائل .

وذكر أبو جعفر بن أبى شيبة فى كتاب العرش عن كعب قال : قال الله تعالى : ياموسى ابن عمران إنى آمر حملةَ العرش أن يُمْسكوا عن العبادة إذا دخل شهر رمضان وأن يقولوا كلما دعا صائم رمضان : آمين . فإنى آليت على نفسى أن لاأردّ دعوةَ صائم رمضان .

الكلام على البسملة

مَنْ ناله دَاءٌ دَوٍ بذنوبه ... فليــأت فى رمضان بابَ طبيبهِ
فخُلُوف هذا الصوم ياقوم اعلمــوا ... أشْهى من المسك السَّحيق وطِيبهِ
أو ليس هذا القولُ قولَ مَليككم ... الصــومُ لى وأنا الذى أَجْزى به

أين من كان معكم فى رمضان الماضى ؟ أمَا أفْنته آفات المنون القواضى ، أين من كان يتردد إلى المساجد فى الظُلَمَ ؟ سافر عن داره منذ زمان ولم ، أين من صبر على مشقة الجوع والظَّما ، غاب فما آبَ ومضَى فما ، أين الذين ارتفعت أصواتهم بالأدعية خرجت تلك الجواهر من تلك الأوْعية ، أين من جمع مالًا ووفْرًا ، وأعْاق من ظَفَره بالمراد ظُفرا ،

(١) أخرجه الامام أحمد والبزار وفيه هشام بن زياد أبو المقدام وهو ضعيف .

ومشى إلى أغراضه (١) جَمَزا (٢) وطَفرا ، أما أخرج الموت كفَّه صَفْرا ؟ أما أعاد دياره بالخراب قَفْرا ؟ كانت تلاحظه عيونُ الأجداث خَزْرا (٣) وتَلمحه وهو فى لذاته شَزْرا ، فنقلته وهو أثقل بالوِزْر أزْرا، ثم طال عذابُه وإنما نال نَزْرا ، وأوطأته جَمْرا لا يشبه جمرا فبان فى أسْرِه أذلَّ الأسْرَى (٤) .

سَلِ الأيامَ ما فَعلتْ بكِسْرى ... وقَيْصر والقصورَ وساكنيهَا
أمَا استدعتْهُم للموت طُرًّا ... فلم تَدَع الحلـيمَ ولا السَّفِيهَا
دنَتْ نحو الدَّنِىِّ بسَهْم خَطْب ... فأَصْمَتْه(٥) وواجهتِ الوَجيهَا
أمَا لو بيعت الدنيا بفَلْس ... أنِفْتُ لعاقل أن يشتريهَا

***

إخوانى : تفكروا لماذا خُلقتم فالتفكر عبادة ، وامتثلوا أمرَ الإله فقد أمَر عِبادَه ، والتفِتوا عن أسباب الشقاء إلى أسباب السعادة ، واعلموا أنكم فى نَقْصٍ من الأعمار لا فى زيادة .

آه لنفسٍ أقبلت على العدوّ وقَبِلتْ ، وبادرت ما يُؤْذيها من الخطايا وعَجِلتْ ، من لها إذا نُوقشت على أفعالها وسُئِلت ، وقُرِّرت بقبائحها يوم الحشر فخجِلتْ ، وقُيِّدت بقيود الندم على التفريط وكُبِّلت ، وشاهدت يومَ الجزاء قُبْح ما كانت عملت ، وسُلَّ عليها سيفُ العِتاب يومَ الحساب فقُتِلت .

***

أيها الغافل عن فضيلة هذا الشهر اعرف زمانك ، يا كثير الحديث فيما يؤذِى احفظ لسانك ، يا مسئولا عن أعماله اعقل شانك ، يا متلوِّثا بالزلل اغسل بالتوبة ما شانَك ، يا مكتوبا عليه كلُّ قبيح تصفَّح ديوانك .

---

(١) ت : على إعراضه . (٢) الجمز : المشى السريع . (٣) الخزر : النظر بلحظ العين .
(٤) ت : أذل من كسرى . (٥) أصمته : قتلته . يقال : أصمى الصيد : إذا رماه فقتله مكانه .

أَقلِلْ كلامَك واحترز من شرِّه ... إن البــــلاء ببعضه مقرونُ

وكِّل فؤادَك باللسان وقل له ... إنّ الـكلامَ عليـكما موزونُ

فزِنَاه فَلْيَـكُ مُحْـكَمًا فى قِلَّة ... إنّ البلاغة فى القليل تـكونُ

يا من أكثر عمره قد مضى ، يا من نَفَسُه مع اللحظات تُقتَضى ، يا من قد أنذره سَلْب القرين مُعْرِضا ، كيف يحترس العريان من سيفٍ مُنْتَضَى ، إن كان ما فرّط يوجب السخط فاطلب فى هذا الشهر الرِّضاَ ، يا كثير القبائح غداً تَنْطق الجوارح ، أين الدموع السوافح على تلك القبائح ، ياذا الداء الشديد الفاضح ، ما أعْسَر مرض الجوانح ، هذا الشيب دليـلٌ واضح، وهو فى المعنى عَذُولٌ ناصح ، جائحته لا تُشْبه الجوائح ، يُضَعْضع الأركانالصحائح ، يَسدُّ أبوابَ اللهو والمَمَازح(١) ، والموتُ فى خِلَاله مُبين لائح، أين زادُك ياأيها الرائح ، أين ما حصَّلت هل أنت رابح ، ياأسفى لهذا النازح، كيف حالُه فى الضَّرائح، من له إذا أوثقه الذابح ، من له إذا قام النائح، واستوى لديه العائب والمادح ، ولم ينفعه فى بطون الصفائح إلا عملٌ إن كان له صالح ، أتراه يعتقد أن النصيح مازِح ، ضاعت المواعظ إلا أن الموعوظ سَـكْرانُ طافح .

***

يامن قد سارت بالمعاصى أخباره ، يامن قد قَبُح إعلانه وإسراره ، يافقيرا من الهدى أهلكه إعساره ، أتؤثر الخسران قل لى أو تختاره ؟ يا كثير الذنوب وقد دنا إحضاره ، يا أسيرا فى حَبْس الطَّرْد لا ينفعه إحضاره(٢) ، نَقْدك بَهْرج إذا حُكَّ مِعْيارُه، كم رُدَّ على مِثْلك درهمه وديناره ، يا مُحْترقا بنار الحِرْص حتى متى تخبو ناره ، المذكَّرون بَيْنكم قدأصبحوا كالسُّمار،وأنتم قدجعلتم المواعظ مثل الأسمار ، وكأن القرآنعندكم صوتُ مِزْمار، وقد ضاعت فى هذه الأمور الأعمار ، فأين يكون لهذا الفرس إثمار :

مضَى زمانى وتقضَّى المـدَى ... فليتنى وقِّت هذا الزَّمَن

---

(٢) المازح : جمع ممزح ، مصدر ميمى من مزح . (٢) الإحضار : جرى الفرس .

أَرْزَمَت النـــارُ وعارضْتُها   فليَعْجب السامعُ للمُرْزِمَيْن(١)
ليت دموعى بمـنًى سُبِّلت   ليَشرب الُحجَّاجُ من زَمْزمين

الكلام على قوله تعالى

« يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام »

كُتب : بمعنى فُرِض . أخبرنا أبو بكر بن حبيب ، أنبأنا أبو سعيد بن أبى صادق ، أخبرنا أبو عبد الله بن باكُوية ، قال سمعت حسَّان بن أحمد الهاشمى يقول . سأل المأمون علىَّ بن موسى الرضا : أى شىء فائدة الصوم فى الحكمة ؟ فقال : عَلِم الله ما ينال الفقيرَ من شدة الجوع فأدخل على الغنىّ الصوم ليذوق طعم الجوع ضرورةً حتى لاينسى الفقير من [شدة(٢)] الجوع . فقال المأمون : أُقْسم بالله لا كَتبتُ هذا إلا بيدى !

وللصوم آداب يجمعها : حِفْظ الجوارح الظاهرة وحراسة الخواطر الباطنة ، فينبغى أن يُتلَقَّى رمضان بتوبة صادقة وعزيمة موافقة . وينبغى تقديم النية وهى لازمة فى كل ليلة ، ولابد من ملازمة الصَّمْت عن الكلام الفاحش والغيبة فإنه ما صام من ظلَّ يأكل لحومَ الناس ، وكفُّ البصر عن النظر إلى الحرام ، ويلزم الحذَر من تكرار النظر إلى الحلال .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يدَعْ قولَ الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدَع طعامه وشرابه » . انفرد بإخراجه البخارى(٣) .

وفى الصحيحين من حديث سَهْل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايزال الناس بخير ما عجَّلوا الفِطْر » (٤) .

---

(١) أرزمت : صوتت . يقال : أرزم الرعد : اشتد صوته أو صوَّت غير شديد والناقة: حنت على ولدها .
(٢) من ت .   (٣) صحيح البخارى ٤/ ٢٤٧ (ط الأميرية) .
(٤) صحيح البخارى ١/ ٤٥٤ (ط الأميرية وصحيح مسلم كتاب الصوم حديث رقم ٤٨ .

وفى حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل : « إن أحبَّ عبادى إلىَّ أعْجلهم فِطْراً » .

وفى حديث سليمان بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أفطر أحدكم فليُفْطِر على تمر فإن لم يجد فليفطر على ماء فإنه له طَهُور » .

وفى حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قُرِّب إلى أحدكم طعامه وهو صائم فليقل : بسم الله والحمد لله اللهم لك صُمْت وعلى رزقك أفطرت وعليك توكلت، سبحانك اللهم وبحمدك إنك أنت السميع العليم » .

ويستحب السحور وتأخيره .

وفى الصحيحين من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تسحَّروا فإن فى السحور بَرَكة » .

وينبغى للصائم أن يتشاغل طول نهاره بالذِّكْر والتلاوة وكان الشافعى رضى الله عنه يختم فى رمضان ستين ختمة .

أخبرنا الكَرُوخىّ بسنده عن الزُّهْرى قال : تسبيحة فى رمضان خير من ألف تسبيحة فى غيره .

حقٌّ شهر الصيام شيئان إن كنـ ... ـت من الموجبين حقَّ الصيامِ
تَقْطع الصومَ فى نهارك بالذِّكْـ ... ـر وتُفْنِى ظلامَه بالقيـــامِ

أخبرنا أبو القاسم الجريرى بسنده عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ذاكر الله عز وجل فى رمضـان مغفور له وسائل الله عز وجل فيه لا يخيب[1] » .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط وفيه هلال بن عبد الرحمن وهو ضعيف . مجمع الزوائد ١٤٣/٣ .
(التبصرة ٦/٢)

وعن قيس الجهنى قال : إن كل يوم يصومه العبد من رمضان يجىء يوم القيامة فى عمامة من نور فى تلك العمامة قصر من دُرّ له سبعون ألف باب كل باب ياقوتة حمراء[(١)] ؟

ويستحب للصائم أن يفطِّر الصوّام إذا أمكنه .

أخبرنا هِبَة الله بن محمد بسنده عن زيد بن خالد الجُهنى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من فطَّر صائما كان له أو كُتب له مثل أجر الصائم من غير أن ينقص من أجر الصائم شيئا ، ومن جهَّز غازياً فى سبيل الله كان له أو كُتب له مثل أجر الغازى فى سبيل الله غير أنه لا ينقص من أجر الغازى شيئا[(٢)] » .

***

فبادروا إخوانى شهركم بأفعال الخير ، وأفردوها عن الخطايا لتكون وحدها لا غير ، واعلموا أن شهركم هذا شهر إنعام ومَيْر[(٣)] ، تعرف حرمته الملائكةُ والجن والطير ، واهًا لأوقاته من زَوَاهر ما أشرفها ، ولساعاته التى كالجواهر ما أظرفها ، أشرقت لياليها بصلاة التراويح ، وأنارت أيامُها بالصلاة والتسبيح ، حِلْيتها الإخلاص والصدق ، وثمرتها الخَلاص والعِتق .

تيقَّظْ ياغافل وانهض ببِدَارك ، فالُك لأهلك وأنت ضيفٌ بدارك ، واستدركْ قديمك وأصْلح بالتُّقَى حديثك ،وامنع لسانك اللَّغو واجعل الذكر حديثك ، وصحِّح بمجانبة الهوى إيمانَك ويقينَك ، وتدرَّع كلماتى هذه فى حرب الغرُور يَقِينك[(٤)] ، إلى متى فى حب البطالة منكش ، وبلذات الكسل جَذْلان دَهِش ، وإذا فات الهوى بتَّ من الحزن ترتعش أما رأيت ذامالٍ وأمَلٍ لم يَعِشْ ، أمَا شغلك الموتُ عن زخرفٍ قد نُقِش ، أمَا تعلم أنك للموت فى القبر تفترش ، أمَا تحذر يوماً لا تجد الماء من العطش ، عجباً لموقنٍ بالقيامة لم يجْمَعْ ولم يعطش .

(١) هذا مما تزيد فيه الرواة بغير علم ، وحسبنا ماثبت فى الصحيح من فضل الصيام .
(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه كتاب الصوم . (٣) المير : جلب الزاد .
(٤) يقينك : يحفظك

كان أصحاب أبو هريرة يعتكفون فى رمضان ويقولون : نُطَهِّر صيامنا .

واعتكف أبو محمد الجريرىّ فى الحرَم سَنةً لم يمدّ رجله ولم يضطجع، فقيل له : كيف قدرت على هذا ؟ فقال : عَلِم صِدْق باطنى فأعاننى على ظاهرى .

***

إخوانى : هذا شهر التيقُّظ ، هذا أوان التحفُّظ ، إخوانى بين أيديكم سفَر ، والأعمارُ فيها قِصَر ، وكلكم والله على خطَر، كونوا على خوف من القدَر، واعرفوا قَدْر من قَدر، وتذكروا كيف عصَيم وستَر ، وآيم الله لو قمتم على البصَر ، وسجدتم شُكْرا على الإبَر ما وفَيْتم بشكر نعيم محتقَر، أمَا طَوى القبيحَ والجميلَ نشَر ،أمَا بعضُ نِعمه السمُع والبصر.

إخوانى : آن الرحيلُ وما عندكم خبَر ، إلى كم توعظون ولا تتّعظون ، وتوقَظون ولا تتيقّظون ، وتُتْعبون الناصحَ ولا تَقْبلون ، ويكفى فى البيان رؤية الأقران يرْحلون «أفسِحْرٌ هذا أم أنتم لا تبْصرون» . أكلِّفتم مالا تطيقون، أكلِّمتم بما لا تفهمون، مالكم عن مآ لكم مُعْرضون ، ما هذا الفتور وأنتم سالمون ، ما هذا الرقاد وأنتم مُنْتبهون :

أقَضِّى الدهرَ من فِطر وصَوْم ... وآخذُ بُلْغةً[1] يوماً بيوم
وأعْلم أن غايتىَ المنايَا ... فصبراً تلك غاية كلِّ قوم
فإن تقف الحوادث دون نفسِى ... فما يَتْركْن إشمامِى ورَوْمِى[2]

كم مؤمل إدراك شهرٍ ما أدركه ، فاجأه الموتُ بغتةً فأهلكه ، كم ناظر إلى يوم صَوْمه بعين الأمل طمَسها بالممات كفُّ الأجَل ، كم طامع أن يلقاه بين أترابه ألقاه الموت فى عُفْر ترابه .

---

(١) البلغة : مايتبلغ به من الزاد .
(٢) الإشمام فى الحروف: إذاقتها الضمة أوالكسرة بحيث لاتسمع ولا يعتد بها ولا تكسر وزنا. والروم فى الحروف : حركة مختلسه مختفاة وهى أكثر من الإشمام لأنها تسمع .
وهذا من مظاهر تأثر الشعر العباسى بالمصطلحات العلمية .

استغفـــر الله بقلبٍ مُنيب   يعلم أن الموت منـــه قريبْ
مأخوذُ مالٍ حَربا يشتكى   وعادِمُ الدِّين الأخيذُ الحَرِيبْ[1]
والإنس جنس كلُّه ظالم   والمنصِف العـادِل فيهم غريبْ
والعيشُ محبوبٌ أتاكَ الأذى   منـــه فواهاً للبغيض الحبيبْ
اصْبِرْ إذا العـامُ سَطا جَـدْبُه   فطالما جاءك عامٌ خَصِيبْ
خاطبت أقوماً فـلم يسمعوا   فهـل تشبهت بهم ياخطيبْ
تغسل كفيك من الزهم ألا   فاغسل فاك من لفظك حتى يطيبْ

* * *

أيها المجتهد هذا ربيع جِدِّك ، أيها الطالب هذه أوقات رِفْدك ، تيقَّظْ أيها الغافل من سِنَة البطالة ، تحفَّظ أيها الجاهل من شُبَه الضلالة،اغتنم سلامتك فى شهرك قبل أن تُرْتَهن فى قبرك ، قبل انقراض مدتك وعدَم عُدَّتك وإزماع فَوْتك وانقطاع صوتك ، وعثور قدَمك وظهور ندمك ، فإن العمر ساعات تذهب وأوقات تُنْهب . وكلها معدود عليك والموت يَدْنو كلَّ لحظة إليك .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامرى بسنده عن محمد بن على الحربىّ قال سمعت أحمد ابن المغلّس قال سمعت سَرِيًّا السّقطى يقول: السَّنة شجرة، والشهور فروعها والأيام أغصانها والساعات أوراقها وأنفاس العِبَاد ثمرتها ، فشهر رجب أيام تَوْريقها ، وشعبان أيام تَفْريعها ، ورمضان أيام قَطْفها ، والمؤمنون قُطَّافها . هذه الأشهر الثلاث المعظَّمة كالجمرات الثلاث ، فرجب كأول جَمْرة تَحْمى بها العزائم ، وشعبان كالثانية تَذُوب فيها مياه العيون، ورمضان كالثالثة تُورِق فيها أشجارُ المجاهَدات ، وأىّ شجرةٍ لم تورِق فى الربيع قُطعت للحطَب ! فيامن قد ذهبت عنه هذه الأشهر وما تغيرَّ أحسن الله عزاءك !

***

(١) الحرب : السلب ، حربه حربا كطلبه طلبا : سلب ماله ، فهو محروب وحريب .

إخوانى : إنما شُرع الصوم ليقع التقلّل ، فأما من أوثق الرِّزْمة (١) فما له نية فى البيع ، إذا استوفيت العَشاء تكدَّر الليلُ بالنوم، وإذا استوفيت السُّحور تخبَّط النهارُ بالكسل، وإنما شُرع السحور ليتقوّى المتقلِّل من العَشاء ولينتبه الغافل، وما أرى رمضان إلا زادك شِبَعا وغفلة .

واعجبا لو عُرض عليك أن تشرب شَرْبة ماء فى رمضان لَمَا شربتَ ولو ضُربت، وأنت فيه تغشّ فى البيع وتطفِّف فى الميزان ، فإذا خرج شربت الخمر فى شوال ، أمَا كان الناهى عن هذا هو الناهِى عن ذاك « أفتؤمنون ببعضِ الكِتاب وتَكْفرون ببعض » .

تالله لو قيل لأهل القبور تمنَّوا لتمنوا يوماً من رمضان، إلى متى أنت فى ثياب البطَر ، أمَا تعلم مصير الصُّوَر ، عجباً لك تؤْمن وتأْمن الغِيَر . أمَا ينفعك ما ترى من العِبَر ، أصُمّ السمع أم غُشِى البصر ، تالله إنك لعلَى خطر ، آن الرحيلُ ودنا السَّفر ، وعند المات يأتيك الخبر . كلما خرجت من ذنوب دخلتَ فى أُخَر ، ياقليل الصفا إلى كم هذا الكَدَر ، أنت فى رمضان كما كنت فى صفر ، إذا خسرت فى هذا الشهر فمتى ترْبح ، وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد فمتى تَبْرح، يامن إذا تاب نَقَض ، يامن إذا عاهد غدَر ، يامن إذا قال كَذب، كم سترناك على معصية، كم غطَّيناك على مُخْزِية .

يا عامراً ما يَقْطُن يا هالكاً ما يَفْطُنْ
يا ساكن الحُجرات ما لك غير قَبرك مَسْكَنْ
أَحْدِثْ لربك توبةً وسبيلُها لك مُمْكِنُ
فكأن شخصك لم يكنْ فى الناس ساعة تُدْفنْ
وكأن أهلك قد بكَوْا سِرًّا عليك وأعلنُوا
فإذا مضت بك ليلةٌ فكأنهم لم يَحْزنُوا
الناسُ فى غَفلاتهم ورحَى المنيَّة تَطْحنُ

(١) الرزمة بالكسر : ما شد فى ثوب واحد. قال فى شفاء الغليل ص ١٠٨ : والعامة تضمه ، وهو من قولهم : رازم بين الطعامين، إذا ضم أحدهما إلى الآخر .

ما دون دائرة الردَى حِصْن لمن يتحصَّنُ
مالى رأيتك تطمئنّ م إلى الحيـــــاة وتَرْكنُ
وجمعتَ ما لا ينبغى وبنيتَ مالا تَسْكنُ
وسلكت فيما أنت فى الـ دنيـــــا به متيقِّنُ
أظننت أن حوادث الـ أيام لا تتمـــكّنُ

***

المجلس السابع
لانتصاف شهر رمضان

الحمد لله الأحديّ الذات، العَليّ الصفات الجليّ الآيات الوفيّ العِدَات ، رافع السموات وسامع الأصوات، عالم الخفيّات ومحيي الأموات، تنزّه عن الآلات وتقدّس عن الكيفيّات، وتعظّم عن مشابهة المخلوقات ، جلّ عن الآباء والأمهات والبنات، ثبّت الأرض بالأطواد الراسيات، وأحياها بعد موتها بالسُّحب الماطرات ، فإذا أرْخت عزَاليها [1] ضحك باخضراره النبات ، وقالت المبتدَعات بألسن الإشارات : « اعلموا أن الله يُحيي الأرضَ بعدَ موتها قد بيَّنا لكم الآيات [2] » .

إذا بَسط بساط العَدْل تزلزلت أقدامُ أهلِ الثَّبات ، وإذا نشر رداء الفضل غَمَر الذنوبَ الموبقات ، « يقبل التوبة عن عِبَاده ويَعْفو عن السيئات [3] » .

حَيّ بحياة تنزّهت عن طارق الممات ، عالم بعلم واحد جميعَ المعلومات ، قادر بقدرة واحدة على جميع المقدورات ، أراد فلانت لهيبته صعابُ المرادات ، وسمع فلم يَعْزُب عن سمعه خفِيّ الأصوات ، وأبصر سوادَ العين فى أشد الظُّلمات ، استوى على العرش لا كاستواء المخلوقات ، وينزل إلى سماء الدنيا مرويٌّ بنقل عن الثقات ، ويراه المؤمنون فى الجنة بالعيون الناظرات ، نَصِفه بالنَّقْل المباين بصحته سقيمَ الشبهات ، من غير تكييف فى الأوصاف ولا تشبيه فى الذوات ، فهل علينا ملام أم هو طريق النجاة ، أحمده على جميع الحالات حمدًا يدوم بدوام الأوقات ، وأقرّ بوحدانيته كافرا باللات ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالأدلة الواضحات ، صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبه أبى بكر الناهض يوم الرِّدة على أقدام الثبات ، القائم بنصر الإسلام وقد قعد أهلُ العَزمات ، القائل : أقاتلهم ولو لم أجد غير البنات ، وعلى عمر العادل فى القضيّات ، كان إذا مشى فَرِق الشيطانُ من تلك الخطوات ، وعلى عثمان المتهجد بالقرآن

---

(١) العزالى : جمع عزلاء وهو مصب الماء من الراوية ، والمراد : السحب الماطرة .

(٢) سورة الحديد ١٧ . (٣) سورة الشورى ٢٥ .

فى الظلمات، الصابر على الشهادة بأيدى العداة ، وعلى علىٍّ ذى المناقب العاليات، المخصوص بأخوّة الرسول دون ذوى القرابات ، وعلى عمه العباس الذى بالسؤال به سالت عَزالى السحب الماطرات .

أيها الناس : إن شهركم هذا قد انتصف ، فهل فيكم من قهَر نفسه وانتصف ، وهل فيكم من قام فيه بما عَرف ، وهل تشوّقت هِممكم إلى نَيْل الشَّرَف ، أيها المحْسن فيا مضى منه دُمْ ، وأيها المسىء وبِّخ نفسك على التفريط ولُمْ ، إذا خسرت فى هذا الشهر متى تربح ، وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد فمتى تَبرح . كان قَتادة يقول : كان يقال من لم يُغفَر له فى رمضان فلن يُغفْر له !

أخبرنا أبو بكر بن أبى طاهر البزار بسنده عن سلمة بن ورْدان قال : سمعت أنس ابن مالك يقول : ارتقى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فقال : آمين ثم ارتقى ثانية فقال آمين . ثم استوى عليه فقال آمين . فقال أصحابه : علامَ أمَّنت يارسول الله ؟ فقال : أتانى جبريل فقال: يامحمد رَغِم أنف امرئ ذُكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك . فقلت : آمين . ثم قال : رَغِم أنف امرئ أدرك والديه أو أحدهما فلم يُدْخلاه الجنة . فقلت : آمين . ثم قال : رَغِم أنف امرئ أدرك شهرَ رمضان فلم يُغْفَر له . فقلت : آمين [1] .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى بسنده عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا رمضان قد جاء ، تفتح فيه أبواب الجنات وتغلق فيه أبواب النار وتغلّ فيه الشياطين بُعد امرؤ أدرك رمضان لم يغفر له ، إذا لم يغفر له فمتى؟![2] » .

وبالإسناد عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رَغِم أنف رجلٍ دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغْفر له » .

إذا الروضُ أمسَى مُجْدِبا فى ربيعه فنى أىِّ حينٍ يَسْتنير ويُخْصِبُ

(١) أخرجه أحمد مسنده ٢/٢٥٤ .
(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه الفضل بن عيسى الرقاشى وهو ضعيف . مجمع الزوائد ٣/١٤٣ .

أخبرنا عبد الله بن على المقرى بسنده عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أمتى لن يخزوا أبدا ما أقاموا شهر رمضان. فقال رجل من الأنصار : يارسول الله وما خِزْيهم ؟ قال : من إضاعتهم شهر رمضان بانتهاك المحارم ، فمن عمل سوءا أوزنى أو سرق فلن يُقبل منه شهر رمضان ، ولعنه الله عز وجل والملائكة إلى مثلها من الحَوْل فإن مات قبل شهر رمضان فليستبشر بالنار ، فاتقوا شهر رمضان فإن الحسنات تضاعَف فيه وكذلك السيئات [1] » .

عباد الله إن شهركم هذا لا قيمة له ولا يمكن استدراك ما ضاع [2] بالتفريط .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى بسنده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أفطر يوماً من رمضان من غير مرض ولا رخصة لم يقض عنه صيامُ الدهر كله وإن صامه [3] » .

قال يحيى بن مَعين : أبو المطوّس اسمه عبد الله بن المطوّس ثقة .

وذكر أبو بكر الآجرّى فى كتاب النصيحة أن مذهب إبراهيم النَّخَعى أن من شرب الخمر فى رمضان كان عليه صوم ثلاثة آلاف يوم .

قال : وقال سعيد بن المسيَّب : عليه صوم شهر متتابع . وقال الربيع ابن أبى ربيعة ابن عبد الرحمن : عليه صيام اثنى عشر يوما ، لأن الله أوجب صيام شهر من اثنى عشر شهر .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل عمل ابن آدم يضاعَف : الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف إلى ماشاء الله ، يقول الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجْزِى به ، يدَع طعامه وشهوته من أجلى ، وللصائم

(١) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ، وفيه عيسى بن سليمان أبو طيبة ، ضعفه ابن معين ، ولم يكن فيمن يتعمد الكذب ولكنه نسب إلى الوهم .

(٢) ت : مافات .

(٣) أخرجه البخارى : ويذكر عن أبى هريرة رفعه : كتاب الصوم . صحيح البخارى ٢٠١/١ (ط الأميرية) . وأخرجه الترمذى فى صحيحه كتاب الصوم ثم قال : حديث أبى هريرة لانعرفه إلا من هذا الوجه وسمعت محمدا يقول : أبو المطوس — أحد رواة الحديث — اسمه يزيد ابن المطوس ، ولا أعرف له غير هذا الحديث . صحيح الترمذى ١٣٩/١ (ط الأميرية) .

فرحتان : فرحة عندفطره وفرحة عندلقاء ربه،وخَلوف فِيه أطيبُ عند الله من ريح المسك . الصوم جُنَّة » .

أخرجاه فى الصحيحين (١) .

***

عباد الله : فرحة الحِسِّ عنـد الإفطار تناول الطعام ، وفرحة الإيمان بالتوفيق لإتمام الصيام .

ياهذا قدِّم دستور الحساب قبل الغروب فإن وجدت خللًا فارْقَعْه برقعة استغفار ، فإذا جَاء السحر فاعقد عَقْد الزُّهد فى الدنيا عند نية الصوم ، وتجرَّع جَرْعة دمعة فى إناء ركمة لعلك تَطَّلع على خبايا خفايا ما أُعد للصائمين من مستور « فلا تَعلم نفسٌ ما أُخفى لهم من قُرة أعين جزاء بما كانوا يعملون »(٢) .

الكلام على البسملة

قل للمؤمِّل إن الموت فى أثرك ... وليس يخفى عليك الأمر من نظرك
فيمن مَضى لك إن فكَّرتَ مُعتبَر ... ومن يمُتْ كلَّ يوم فهو من نُذُرك
دارٌ تسافِر عنهـا من غدٍ سفراً ... فلا تؤوب إذا سافرت من سَفرك
تُضحِى غـداً سَمراً للذاكرين كما ... كان الذين مضَوْا بالأمسِ من سَمرك

* * *

يامضيع الزمان فيما ينقص الإيمان ، ما أراك فى رمضان إلا كجمادى وشعبان ، أما يَشُوقك إلى الخير مـا يَشُوق ، أما يَعُوقك عن الضَّير ما يَعُوق ، متى تصير سابقاً يا مسبوق ، إلى متى سَوْق الشَّوْق إلى سُوق الفسوق ، أول الهوى سَهل ثم تتخرق الخروق ، كلما حصد نباته بمنجل الصبر أخرجت العروق ، وإن لذيذ شربه فشربه شَجَى

(١) صحيح البخارى ٢٤٦/١ (ط الأميرية) وصحيح مسلم كتاب الصوم حديث رقم ١٦٣ ـ ١٦٤ (ط الحلبى) . (٢) سورة السجدة ١٧ .

فى الخلوق ، وإنما لذات الدنيا كخطف البروق ، ميِّز بين ما يفنى وما يبقى ترَ الفروق ، خَلِّ التوانى إن شئت أن تفوق ، عليك حافظٌ وضابطٌ ، ليس بناسٍ ولا غالط ، يكتب الكلمات السواقط ، وأنت فى ليل الحدَث خابط ، تتعرض فى الصباح والمساء للمَساخط ، يامن قد شاب إلى كم تغالط ، لا بد لليل من فجر منير كاشط ، كيف ينهض للعب واللهو الأشَامِط (١) ، ماذا بقِى وهذا الشيبُ واخِط ، أمَا تستحى وأنت فى الإثم وارِط ، ياقاعداً عند التُّقَى وهو فى الهوى ناشِط ، كلما رُفِعت لم تُرِدْ إلا المَهَابط ، تيقَّظ لنفسك قد مضى الفارط ، وابك على ذنبك ويكفى الفارِط ، أصلح ما بقى واقبل من الوسائط ، جاهدْ هواك فى الدنيا فالفخر للمرابط ، انظر لمن تعاشر واعرف لمن تخالط ، احذر جزاء القِسْط عليك يا قاسِط ، لاتغترر بالسلامة فربماقبض الباسط ، فِى لنا بالشروط ونحن نفِى بالشرائط ، ذكِّر نفسك بالموت ذاك الشديد الضاغط ، إذا تحيَّرت فى الأمور وزال الجأش الرابط ، لاتنفع الأقارب ولا تدفع الأراهِط ، ونفَس النَّفْس يخرج من سَمِّ إبرة خائط .

***

باع قومٌ جاريةً قبيل رمضان ، فلما حصلت عند المشترى قال لها هيِّئى لنا ما يَصْلح للصوم . فقالت لقد كنت قبلكم لقوم كل زمانهم رمضان !

لله در أقوام تفكروا فأبصروا ، ولاحت لهم الغاية فما قصَّروا ، وجعلوا الليل رَوْح قلوبهم والصيام غذاء أبدانهم ، والصِّدْق عادة ألسنتهم والموت نُصْبَ أعينهم .

كتب رجل إلى داود الطائى : عِظْنى . فكتب إليه : أمّا بعد فاجعل الدنيا كيوم صُمْته عن شهوتك واجعل فطرك الموت فكأن قد صرت إليه . فكتب إليه : زدنى . فكتب إليه : أمّا بعد فارضَ من الدنيا باليسير مع سلامة دينك كما رضى أقوامٌ بالكثير مع ذَهاب دينهم . والسلام (٢) .

كان داود الطائى قد ورث من أبيه عشرين دينارا فأنفقها فى عشرين سنة . وكان

---

(١) الأشامط : جمع الأشمط وهو : الأشيب .

(٢) أورده ابن الجوزى أيضا فى ذم الهوى ص ٦٦٩ .

جالسا فى داره فإذا وقع سقفٌ تقدَّم إلى موضع آخر إلى أن بقى دهليز الدار فمات فيه ، وتحت رأسه لَبِنة فدخل عليه ابن السماك فقال : اليوم ترى ثوابَ ما كنت تعمل !

ورآه بعض أصحابه فى المنام فقال له : أوصنى . فقال : داوِ قُروحَ باطنك بالجوع واقطع مَفَاوزَ الدنيا بالأحزان ، وآثِر حُبَّ الله على هواك ولا تبالِ متى تلقاه .

***

طوبى لعبدٍ بالَغ فى حِذَاره ، واحتفَر بكفِّ فِكْره قَبْره قبل احتفاره ، وانتهبَ زمانه بأيدى بِدَاره ، وأعْذَر فى الأمر قبل شَيْب عِذاره ، ولم يرض فى زاده بتقليله واختصاره ، ورأى عَيْب الهوى فلم يَصْطل بناره ، ودافَع الشهواتِ وصابَرَ المكاره ، إنْ بحثت عنه رأيته صائمَ نهاره ، وإن سألت عن ليله فقائم أسحاره ، وإن تأمَّلْته فالزفير فى إصعاده والدمع فى انحداره ، ولا يتناول من الدنيا إلا قَدْر اضطراره ، باعها فاشترى بها ما يبقى باختياره ، هل فيكم متشبِّه بهذا أو على بِجَاره ؟

ياحُسْنه ومصابيح النجوم تُزْهر والناس قد ناموا وهو فى الخير يَسْهر ، غسل وجهه من ماء عينه وعَيْن العَيْن أطْهر ، فلما قضَى وِرْد الدُّجَى جاس يتفكَّر ، فخطر على قلبه كيف يموت وكيف يُقْبر ، وتصوَّر صحائفه كيف تُطْوى وكيف تُنْشر ، فهامَ قلبُه فى بَوادِى القلَق وتحيَّر ، فطلَّق الدنيا ثلاثا وهل يُسْتوطن مَعْبَر .

طوَى مُدةً من دهره دار زخرفٍ إلى أبَدٍ ذى سُنْـــدس وحريرِ
ألا تلكمُ الدارُ التى حلَّ أهلُها بناء عن الخَطْب المَخُوفِ شَطِيرِ (١)
لهم ما اشتَهَوْا فيهـــا مَسُوقا إليهمُ مَقُودا إذا شاءوا بغير جَـــريرِ

(١) الشطير : البعيد .

الـكلام على قوله تعالى :
« شهرُ رمضان الذى أُنْزِل فيه القرآنُ »

إخوانى : استدركوا باقى الشهر فإنه أَشْرف أوقات الدهر ، واحصروا النفوسَ عن هواها بالقَهْر ، وقد سمعتم بالحُور العين فاهتموا بالمَهْر .

أخبرنا أبو منصور القزّاز بسنده عن ثابت ، عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أفضلُ الصدقة صدقةُ رمضان [١] » .

عباد الله : اعلموا أن النصف الأخير أفضل من الأول ، لأن فيه العَشْر وليلة القدر ، والأعمال تُضاعَف بشرف وقتها ومكانها .

قـد بلَغ الشهرُ إلى نِصْفـــه وليس عنِّى الشهرُ بالراضِى
ظلمتُ صَوْمَ الشهر فى حقه يا ويلتا إنْ عَـــدلَ القاضِى

أترى صحَّ لك صوم يوم ، أترى تسلم فى شهرك من لَوْم ، أترى لِفيك خَلُوق أم فيك خَلَاق [٢] ، من فطّر صائما فله أجر صائم ، فاجتهد أن تصوم رمضان ستين يوما .

أيها الراقـدُ عن نُهْزته [٣] ما يَرُوع السيفُ حتى يُشْهرَا
وأبِى المجْدِ لقـــــــد فازَ به سالكٌ فيـــه الطريقَ الاوْعرَا

***

إنما أنت ضيف أصبحت فى مَنْزِلك ، وما فى يديك وديعةٌ عندك ، ويوشك الضيف أن يرتحل والوديعة أن تُرَدّ . ابكِ على نفسك أيامَ الحياة بكاء من ودَّع الدنيا :

قـــد كشَفَ الدهُر عن يقينى قِنَاعَ شـكِّى فى كل شَئٍ
لابد من أن يَحُلّ موتٌ عُقْـــــدة نَفْسٍ من كل حَىٍّ

متى تتبع أوصافَ الإنصاف ، إلى متى تَرْضع أخْلاف [٤] الخِلَاف ، أيقظك الدهر

---

(١) أخرجه سليم الرازى فى جزئه عن أنس . الجامع الصغير حديث رقم ١٢٦٥ . (ط محيى الدين) .
(٢) الخلاق : النصيب الوافر من الخير . (٣) النهزة : الفرصة .
(٤) الأخلاف : جمع خلف وهو حلمة ضرع الناقة .

وأرشدك الوعظ فهمت ، وحدَّثك الموتُ فما فَهِمْت ، ألبَّ[1] حبُّ الدنيا بلُبك ، وأقْلَب هواها مستقيمَ قَلْبك ، كم نوقظ عقلك سَنَة بعد سنَة . وهو لا يزداد إلا رُقادا وسِنَة ، كم نَرْمى هدفَ سمعك برَشْق كلام لم يلذَعْ أصلَ قلبك بحبه ملام :

عَيْن المنيّـة يَقْظَى غير مُطْرِقة وطَرْفُ مَطْلوبها مُذْ كان وسْنانْ
جهلًا تمـكن منـــه حين مَوْلده والنُّطق صاحٍ ولُبُّ المرء سكرانْ

لقى راهبٌ راهبا فقال : أترضى حالتك التى أنت عليها للموت ؟ قال : لا . قال : فهل عزمت على توبة من غير تسويف ؟ قال : لا . قال : فهل تعلم دارا تعمل فيها سِوَى هذه ؟ قال : لا . قال : فهل للإنسان نَفْسان إذا ماتت واحدةٌ عَمِل بالأخرى ؟ قال : لا . قال : فهل تأمن هجومَ الموت على حالتك هذه ؟ قال : لا . قال : فما أقام على ماأنت عليه عاقل!

صعد عمر بن عبد العزيز المنبر فقال : إن كنتم على يقين فأنتم حَمْقى ، وإن كنتم فى شك فأنتم هَلْكَى . ثم نزل

ودخل عليه رجل متغير اللون فقال : مابك ؟ قال : أمراض وأعْلال . قال : لتَصْدُقَنِّى قال : ذقتُ حلاوة الدنيا مُرًّا

وهَبْنى كَتَمْتُ الحقَّ إذ قلتُ غيره أتخفَى على أهل العقولِ السرائرُ
أبا ذاك إنّ السرَّ فى الوجه ناطقٌ وإن ضمير القلب فى العين ظاهرُ

***

قال صالح المُرِّى : كان عطاء السَّلَمى قد اجتهد حتى انقطع فقلت له يوماً : إنى مُكْرِمك بكرامة فلا تردّ كرامتى . فبعثتُ إليه شَرْبة من سَوِيق مع ولدى وقلت له لا تَبْرح حتى يشربها. فجاء فقال قد شربها . فبعثت له فى اليوم الثانى مثلها فجاء فقال ماشَرِبها . فأتيت إليه فلُمْته وقلت : رددْتَ علىَّ كرامتى وهذا يقوِّيك على العبادة . فقال : ياأبا بِشْر لقد شربتها فى أول يوم واجتهدت فى اليوم الثانى فلم أقدر ، كلما همَمْت بشربها ذكرتُ قوله تعالى : « وطعاماً ذاغُصَّة » قال : فقلت أنا فى وادٍ وأنت فى وادٍ !

أطَلْتَ وعنَّفْتنى ياعَذُول بُليتَ فَدَعنى حديثى طويلْ

---

(١) ألب : أقام

هَواى هوًى باطنٌ ظاهرٌ قديمٌ حديث لطيف جَليلْ
ألا ما لذا الليل لا ينقضِى كذا ليلُ كلِّ مُحبٍّ طويلْ
أبيت أُسَاهر نجمَ الدُّجَى إلى الصبح وَحْدى ودمعى يسيلْ

***

لله دَرّ تلك القلوب الطاهرة ، أنوارها فى ظلام الدجى ظاهرة ، رفضت حِلْية الدنيا وإن كانت فاخرة ، كم تركتْ شهوةً وهى عليها قادرة ، باتت عيونها والناس نِيامٌ ساهرة ، زفرات الخوف تثير سحائبَ الأجفان الماطرة ، يَنْدبون على الذنوب وإن كانت نادرة ، كم بينك وبينهم يابائع الآخرة ، شَيْب وعَيْب أمثالٌ سائرة ، أمَلٌ مع هَرم هذه نادرة ، كم أقوام أمّلوا هذا الشهر نخاب الأمل ، أين هم خُلُّوا فى الأَلْحاد بالعمل ، تالله إن نسيان النَّقْل فى العَقْل خَلل ، أما يكفى زَجْر المقيم بمن رحَل :

كُلُّ حَيٍّ فقُصَاراه الأجَلْ ليس للخلق بذا الموت قِبَلْ
نُوَبٌ قُلْن لعادٍ قَبْلنا آنَ من ذات العِماد المرتحَل
واستوى من ذلك الشُّرْبُ الذى صار عَلًّا لِسواهم ونَهلْ
ألبسَتْ ناسًا سِواهم حَلْيهَم ثم بَزَّتْهُ فراحُوا بالعَطَلْ
فكأن الدهرَ لم يَجْمع لهم رغَدَ العيش وإعزاز الدُّوَلْ
فاسأل الإيوانَ عن أربابه كيف حلَّت بهمُ تلك الرحَلْ
نقلَتْهم عن فضاء واسع يَسْرح الطرفُ به حتى يَمَلّ
نحن أعراضُ خُطوب إن رمتْ عادت الأدراعُ لِيناً كالحُلَلْ
وإذا ما اختلفتْ أسْهُمُها فأصابت بطَلَ القوم بطَلْ

يامن عمره قد وهَى فى سلك الهَوى فهو مُتَهافت ، متى تستدرك فى هذه البقية بالتقيّة الفائت ، متى يشبع النوم فتجتمع الهموم الشتائت ، أيها المريض البالى وما يُبَالِى بوصْفِ ناعت ، إلى متى أنت بالعيوب إلى علّام الغيوب مُتَماقِت ، متعرِّض صباحا للساخط ومساء

للماقت ، وتعمل بالأغراض فى الإعراض عمل العفارت . يامتكلما فى ضُرّه فأما فى نفعه فساكت ، كلما نقص أجلُه زاد أمله وهذا متفاوت، أمَا رأيت المنايا تحصد المُنَى فى المَنَابت، كم مُقَهْقِه رجع القهقرى إلى حزنٍ باكت ، كأنك بالموت إذ ثوى قد فزّع الثوابت ، ونزل بك إذ نزل بك إلى حيرة باهت ، يا جاهلا قد غُرّ لقد سُرّ بفعلك الشامت :

كأنك بالمضىِّ إلى سبيلك ... وقد جَدَّ المجهّز فى رحيلكْ
وجىء بغاسِلٍ فاستعجَلُوه ... بقولهمُ له افرغْ من غسيلك
ولم تحمل سِوى خِرق وقُطْن ... إليهم من كثيرك أو قليلكْ
وقد مَدَّ الرجالُ إليك نَعْشاً ... فأنت عليه مُمْتدًا بطولكْ
وصلّوا ثم إنهمُ تداعَوْا ... نحملك فى بُكورك أو أصيلكْ
فلما أسْلَكوك نزلتَ قبراً ... ومن لك بالسلامة فى نُزولكْ
أعانك يومَ تدخله رحيمٌ ... رءوفٌ بالعِبَاد على دخولكْ
فسوف تجاور الموتى طويلا ... فدَعْنى من قصيرك أو طويلكْ
أخى إنّى نصحتك فاستمعْ لى ... وبالله استعنتُ على قَبُولكْ
ألست ترى المنايا كلَّ يوم ... تُصيبك فى أخيك وفى خليلكْ

***

إخوانى : هذه أيام تُصَان ، هى كالتاج على رأس الزمان ، وصَل توقيعُ القِدَم من الرحيم الرحمن « شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن » .

ياله من وقت عظيم الشان تجب حراسته مما إذا حَلَّ شان ، كأنكم به قد رحَل وبان ووجه الصُّلح ما بان « شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن » .

من اللازم فيه أن تُحرس العينان ، ومن الواجب أن يحفظ اللسان ، ومن المتعيِّن أن تُمنع من الخُطَى فى الخَطا القدمان « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .

زِنُوا أفعالكم فى هذا الشهر بميزان ، واشتروا خَلاصكم بما عزَّ وهان ، فإن عجزتم

فسَلُوا المعين وقد أعان « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .

قد ذهب نصف البضاعة فى التفريط والإضاعة ، والتسويف يَمْحق ساعةً بعد ساعة ، والشمس والقمر بحسبان « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .

ياواقفا فى مقام التحيُّر هل أنت على عَزْم التغيّر ؟ إلى متى ترضى بالنزول فى منزل الهوان . هل مضى من يومك يومٌ صالح سلمْت فيه من جرائم القبائح، تالله لقد سبق المتقى الرابح وأنت راضٍ بالخسران . عينك مُطْلقة فى الحرام ، ولسانك منبسط فى الآثام ، ولأقدامك على الذنوب إقدام ، والكلُّ مُثْبت فى الديوان . قلبك غائب فى صلواتك وفكرك ينقضى فى شهواتك ، فإن ركَن إليك معاملٌ فى معاملاتك دخلت به خانَ من خان أكثر كلامك لغو وهذر ، والوقت بالتفريط شذَر مذَر ، وإن اغتبت مسلما لم تُبْق ولم تذَر ، الأمان منك الأمان . تالله لو عقلت حالك أو ذكرت ارتحالك أو تصوَّرت أعمالك لَبنيتَ بيتَ الأحزان . سيشهد رمضان عليك بنطق لسانك ونظر عينيك ، وسيشار يوم الجمع إليك شَقِى فلان وسعد فلان . فى كل لحظة تُقرِّب من قبرك ، فانظر لنفسك فى تدبير أمرك ، وما أراك إلا كأول شهرك ، الأول والآخر سِيّان ، قد ذهب من الشهر النِّصف وما أرى من عملك النِّصَف ، فإن كان فى الماضى قد قَبُح الوَصْف فقم الآن .

والحمدلله وحده .

المجلس الثامن
فى ذكر العَشْر وليلة القدر

الحمد لله عالم السر والجهر ، وقاصم الجبابرة بالعز والقهر ، مُحْصِى قطرات الماء وهو يجرى فى النهر ، فضَّل بعض المخلوقات على بعض حتى أوقات الدهر « ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من أَلْفِ شهر » . فهو المتفرد بإيجاد خلقه المتوحِّد بإدرار رزقه ،القديم فالسَّبْق لسَبْقه ، الكريم فما قام مخلوقٌ بحقه ، عالم بسر العبد وسامع نطقه ، ومقدر عِلمه وعَمله وعُمره وفعله وخَلْقه، ومجازِيه على عَيبه وذَنبه وكَذِبه وصدقه، المالك القهَّار فالكل فى أَسْرِ رِقِّه،الحليم الستار فالخَلْق فى ظل رِفْقه ،أرسل السحاب تُخاف صواعقه ويُطمع فى وَدْقه ، يزعج القلوب رَوَاعده ويكاد سَنا بَرْقه ، جعل الشمس سراجا والقمر نورا بين غربه وشرقه .

أحمده على الهدى وتسهيل طرقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فى رَتْقه وفتقه ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله والضلال عامٌّ فمحاه بمحقه ، صلى الله عليه وعلى آله وصاحبه أبى بكر السابق بصِدْقه ، وعلى عمر كاسر كِسْرى بتدبيره وحِذْقه ، وعلى عثمان جامع القرآن بعد تبديده فى رَقِّه ، وعلى علىّ واعذرونا فى عشقه، وعلى عمه العباس مشاركه فى أصله وعرقه .

***

قال الله عزوجل:« إنّا أنزلناه فى ليلة القدر » . الهاء فى «أنزلناه» كناية عن القرآن، وذلك أنه أنزل جملة فى تلك الليلة إلى بيت العزة وهو بيت فى السماء الدنيا .

وفى تسميتها بليلة القدر خمسة أقوال : أحدها : أنها ليلة العظَمة ، يقال : لفلان قَدْر . قاله الزُّهْرى . ويشهد له : « وما قَدروا الله حق قَدْره [1] » .

والثانى : أنه الضِّيق . أى هى ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون . قاله الخليل بن أحمد ويشهد له : « ومن قُدِر عليه رِزْقه [2] » .

(١) سورة الزمر ٦٧ (٢) سورة الطلاق ٧

والثالث : أن القدر الحُكْم كأن الأشياء تقدر فيها . قاله ابن قتيبة .

والرابع : لأن من لم يكن له قَدْر صار بمراعاتها ذا قَدْر . قاله أبو بكر الورّاق .

والخامس : لأنه نزل فيها كتاب ذو قَدْر وينزل فيها رحمة ذات قَدْر وملائكة ذوو قَدْر . حكاه شيخنا على بن عبيد الله .

قوله تعالى : « وما أدراكَ ما ليلةُ القدر » هذا على سبيل التعظيم لها والتشويق إلى خبرها .

فى قوله تعالى : ليلة القدر خَيْر من ألف شهر قولان : أحدها : أنها من زمان بنى إسرائيل ثم فى ذلك قولان : أحدها ما رواه عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر له رجل من بنى إسرائيل حَمَل السلاح على عاتقه ألف شهر فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك وتمنى أن يكون ذلك فى أمته ، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر ، وقال: هى خير من ألف شهر التى حمل فيها الإسرائيلى السلاح فى سبيل الله ، والثانى : أن الرجل كان فيما مضى لايستحق أن يقال له عابد حتى يَعْبد الله ألف شهر ، فجعل الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر التى كانوا يعبدون فيها .

والقول الثانى : أن الألف شهر من هذا الزمان . قال مجاهد : قيامُها والعمل فيها خير من قيام ألف شهر من هذا الزمان وصيامها ليس فيها ليلة القدر . وهذا قول قتادة واختيار الفراء وابن قتيبة والزجاج .

قوله تعالى: « تنزَّل الملائكة والروحُ » قال أبو هريرة : الملائكة ليلة القدر فى الأرض أكثر من عدد الحصى .

وفى الروح ثلاثة أقوال : أحدها : أنه جبريل . قاله الأكثرون . وفى حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل فى كُبْكبة من الملائكة يصلون ويسلّمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل .

والثانى : أن الروح طائفة من الملائكة لاتراهم الملائكة إلا تلك الليلة ينزلون من

لَدُن غروب الشمس إلى طلوع الفجر . قاله كعب ومقاتل بن حيان .

والثالث : أنه ملَك عظيم من الملائكة . قاله الواقدىّ .

قوله تعالى : « فيها » أى فى ليلة القدر . قوله عز وجل : « بإذن ربِّهم » أى بأمر ربهم والمعنى : ماأمَر به وقَضاه . « من كل أَمْر » قال ابن قتيبة : أى بكل أمر . قال المفسرون : ينزلون بكل أمر قضاه الله تعالى فى تلك السنة إلى قابل .

قوله تعالى : « سلامٌ هى » أى ليلة القدر سَلاَم . وفى معنى السلام قولان : أحدهما : أنه لا يَحدث فيها داء ولا يُرسَل فيها شيطان . قاله مجاهد . والثانى : أن معنى السلام الخير والبركة . قاله قتادة .

***

واعلم أن ليلة القدر باقية إلى يوم القيامة . قال أبو ذر رضى الله عنه : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :يارسول الله أخبرنى عن ليلة القدر فى رمضان هى أوفى غيره ؟ قال : بل هى فى رمضان. قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قُبضوا رفعت أم هى إلى يوم القيامة ؟ قال : بل هى إلى يوم القيامة. قلت :فى أى رمضان هى؟ قال:التمسوها فى العشر الأول والعشر الآخر . قلت: فى أىّ العشرين هى ؟ قال ابتغوها فى العشر الأواخر،لاتسألنى عن شىء بعد . ثم حدَّث وحدَّث فقلت : يارسول الله أقسمت عليك بحقِّى عليك لَما أخبرتنى فى أىّ العشر هى ؟ فغضب علىّ غضباً لم يغضب على مثله قال : « التمسوها فى السبع الأواخر لاتسألنى عن شىء بعدها [(١)] » .

وقد ذهب قوم إلى أنها ليلة سبع عشرة من رمضان .

أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده عن زيد بن أرقم أنه سُئِل عن ليلة القدر فقال : هى ليلة سبع عشرة لاشك فيها . ثم قال : ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان [(٢)] .

***

(١) رواه البزار عن مرثد عن أبي ذر بنحوه ، قال الهيثمي: ومرثد هذا لم يرو عنه غير أبيه مالك ، وبقية رجاله ثقات . مجمع الزوائد ٣/١٧٧ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن حوط العبدى . قال البخارى : حديثه هذا منكر . مجمع الزوائد ٣/١٧٨ .

واعلم أن الجمهور على أنها فى العشر الأواخر وأنها تختص بالأفراد واختلفوا فى الأخص بها ، فذهب الشافعى رحمه الله إلى ليلة إحدى وعشرين ويدل عليه حديث أبى سعيد وهو فى الصحيحين قال : أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة القدر ثم أنسيها قال : أرانى أسجد فى ماء وطين . فوالذى أكرامه لرأيته يصلى بنا صلاة المغرب ليلة إحدى وعشرين وإن جبهته وأرنبة أنفه لفى الماء والطين (١) .

والثانى : ليلة ثلاث وعشرين. وروى مسلم فى أفراده من حديث عبد الله بن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أرانى صبيحتها أسجد فى ماء وطين » فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين ، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنّ أثر الماء والطين على جبهته وأنفه .

وأخبرنا ابن الحصين بسنده عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أتيت وأنا نائم فقيل لى : إن الليلة ليلة القدر . فقمت وأنا ناعس فتعلقتُ ببعض أطناب فُسْطاط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يصلى فنظرت فى تلك الليلة فإذا هى ليلة ثلاث وعشرين (٢) .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينْضح الماء فى وجوه نسائه ليلة ثلاث وعشرين من رمضان .

تفرد بإخراجه أبو بحر .

والثالث : ليلة خمس وعشرين وروى هذا المعنى أبو بكرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والرابع : ليلة سبع وعشرين أخبرنا ابن الحصين بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان متحرِّيا فليتحرَّها ليلة سبع وعشرين . أو قال : تحرَّوها ليلة سبع وعشرين .

---

(١) صحيح البخارى كتاب صلاة التراويح باب فضل ليلة القدر (١/٢٦١ ط الأميرية) . وصحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ورجال أحمد رجال الصحيح . مجمع الزوائد ١/١٧٥ .

انفرد بإخراجه مسلم (١).

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن زر بن حبيش قال : أخبرنا أبي بن كعب عن ليلة القدر فحلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين . فقلت : بم تقول ذلك يا أبا المنذر ؟ فقال : بالآية أو بالعلامة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنها تصبح من ذلك اليوم تطلع الشمس وليس لها شعاع . أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عاصم عن زر قال : قلت لأبي بن كعب : أبا المنذر أخبرني عن ليلة القدر . قال : صاحبنا يعني ابن مسعود رضى الله عنه كان إذا سئل عنها قال : من يقم الحول يصبها . فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن أما والله لقد علم أنها في رمضان ولكن أحب أن لا تتكلوا وأنها ليلة سبع وعشرين لم يستثن قلت : أبا المنذر أنى أعلم ذلك ؟ قال : بالآية التي قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة ليلة القدر تطلع الشمس لا شعاع لها كأنها طست حتى ترتفع .

لفظ المقدمي . قال ابن ناصر : عالٍ صحيح .

أخبرنا علي بن عبيد الله بسنده عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا أتى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إني شيخ كبير يشق على القيام فمرني بليلة لعل الله عز وجل أن يوفقني فيها لليلة القدر فقال : عليك بالسابعة (٢) .

أخبرنا أبو منصور القزاز بسنده عن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليلة القدر ليلة سبع وعشرين (٣) » .

وهذا مذهب علي عليه السلام وابن عباس رضى الله عنهما . وقد روى عن ابن عباس أنه استدل على ذلك بشيئين : أحدهما أن السبعة تتكرر في المخلوقات ، فالأرض سبع . والثاني : أن قوله « هي » هي الكلمة السابعة والعشرون . وقال عبدة بن أبي لبابة : ذقت ماء البحر ليلة سبع وعشرين فوجدته عذباً .

---

(١) الذي في صحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ٢٠٦ ونصه : « تحروا ليلة القدر في السبع الأواخر وحديث رقم ٢١٠ ونصه : « من كان ملتمسها فليلتمسها في العشر الأواخر » . أما هذه الرواية فهي عند الإمام أحمد وإسناده حسن .

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٣/١٧٦ .

(٣) روى نحوه الطبراني في الأوسط .

واستدل بعضهم بأن ليلة القدر تكررت في هذه السورة ثلاث مرات وهي تسعة أحرف ، والتسعة إذا كُرِّرت ثلاثا كانت سبعة وعشرين .

والخامس : مشكوك فيه . أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أنس عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد أن يخبرنا بليلة القدر فتلاحَى رجلان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحَى رجلان فرُفِعت وعسى أن يكون خيرا لكم ، فالتمسوها في التاسعة أو السابعة أو الخامسة » .

انفرد بإخراجه البخاري (١) .

قال أحمد : وحدثنا حَيْوة ، عن ابن شريح ، عن بَقِيّة ، عن بحير بن مَعْدان ، عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليلة القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حسبتهن فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهي ليلة وِتر تِسْع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو آخر ليلة ؛

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ أمارة ليلة القدر أنها صافية كأن فيها قمرا ساطعا ساكنة صاحية (٢) لا بَرْد فيها ولا حَرّ ، ولا يحلّ لكوكب أن يُرْمَى به حتى يُصْبح، وإن أمارتها أن صبيحتها تخرج مُسْتوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر لا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ» .

قال أحمد : وأخبرنا سليمان بن داود ، عن عمران القَطّان عن قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين إن الملائكة تلك الليلة أكثر من عدد الحصى (٣) .

أخبرنا محمد بن عبد الله القاضي ويحيى بن على المُدِير بسندهما عن حميد عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اطلبوا ليلة القدر في العشر الأواخر التاسعة

---

(١) صحيح البخاري كتاب صلاة التراويح باب فضل ليلة القدر .

(٢) مجمع الزوائد ٣/١٧٥ : شاحبة .

(٣) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات . مجمع الزوائد ٣/١٧٦ .

والسابعة والخامسة وآخر ليلة ، وهى ليلة بَلْجة [١] لاحارة ولاباردة ولا يُرْمى فيها بنجم ولا ينبح فيها كلب [٢] » .

أخبرنا الكَرُوخى بسنده عن ابن عُيَيْنة بن عبد الرحمن قال : حدثنى أبى قال : ذكرت ليلة القدر عند أبى بكرة فقال : ما أنا بملتمسها لشىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فى العشر الأواخر فإنى سمعته يقول : «التمسوها فى تسع بَقِين أو سبع بقين أو خمس بقين أو ثلاث بقين أو آخر ليلة » [٣].

قال الترمذى : وأخبرنا عبد بن حُميد ، عن عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن أيوب ، عن أبى قلابة أنه قال : ليلة القدر تنتقل فى العشر الأواخر [٣] .

وقد روى عن مجاهد قال : ليلة القدر ليلة أربع وعشرين أخذه من حديث واثلة بن الأسقع عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أُنزلت التوراة لستٍّ مضين من رمضان ، وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأُنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان .

وقال سعيد بن جُبَيْر : كنا مع ابن عباس فى المسجد الحرام فخفق رأسه خفقةً فقال : أىّ ليلة هذه ؟ قلنا ليلة أربع وعشرين . قال : الليلة ليلة القدر لأن الملائكة نزلوا من السماء وعليهم ثياب بيض .

قلت : والحكمة فى إخفائها أن يتحقق اجتهاد الطالب كما أخفيت ساعة الليل وساعة الجمعة . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يجتهد فى العَشْر مالا يجتهد فى غيره كان يسهر ليله ويَحْمل كَلَّه فيشدّ مئزره ويقوم الليل كله .

وقد أخبرنا أبو عبد الله السلال بسنده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر [٤] » .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى البزار بسنده عن عائشة رضى الله عنهما قالت : كان

---

(١) البلجة : النيرة (٢) روى نحوه الطبرانى فى الكبير .
(٣) أخرجه الترمذى فى صحيحه ١٥٢/١ (ط الأميرية) .
(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه ٢٦٠/١ إلى قوله (ماتقدم من ذنبه) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العَشْر الأواخر من رمضان يُحْيِى الليل كُلّه ويوقظ أهله ويشد المِئْزرَ .

أخرجاه فى الصحيحين (١) .

وفى أفراد مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد فى العَشْر ما لا يجتهد فى غيره (٢) .

وفى الصحيحين من حديثها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العَشْر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل (٣) . وأخرجاه من حديث ابن عمر أيضا قال : اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم العَشْر الأول من رمضان فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الذى تطلب أمامك (٤) .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفر له ما تَقَدّم من ذنبه (٥) » .

وكذلك فى حديث عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

قالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله إذا وافقتُ ليلةَ القَدْر فما أدعو ؟ فقال : « قولى : اللهم إنك عَفُوٌّ تحب العفو فاعف عنى (٦) » .

وقد كان السلف يتأهبون لها . فكان لتَمِيم الدارِىّ حُلّة بألف درهم يلبسها فى الليلة التى يُرْجى أنها ليلة القدر . وكان ثابت وحُمَيْد يغتسلان ويتطيّبان ويَلْبسان أحسن ثيابهما ويطيِّبان مساجدهما فى الليلة التى تُرجى فيها ليلة القدر .

---

(١) صحيح البخارى ١/٢٦٢ وصحيح مسلم كتاب الاعتكاف حديث رقم ٧ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الاعتكاف حديث رقم ٨ .
(٣) صحيح البخارى ١/٢٦٢ وصحيح مسلم كتاب الاعتكاف حديث رقم ٥
(٤) لم أجده فى صحيح البخارى وهو فى صحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ٢١٥ (بمعناه) .
(٥) صحيح البخارى ١/٢٦٠ وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها حديث رقم ١٧٥ .
(٦) أخرجه الترمذى فى صحيحه كتاب الدعوات باب ٨٤ .

إخواني : والله ما يَغْلو في طلبها عَشْر، لا والله ولا شَهْر، لا والله ولا دَهْر . فاجتهدوا في الطلب فرب مجتهد أصاب .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن قتادة عن أنس رضي الله عنهما قال : لما دخل رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الشهر قد دخل عليكم فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرِمها فقد حرم الخيرَ كله ، ولا يحرم خيرها إلا كل محروم (١) » .

الكلام على البسملة

آكْدَحْ لنفسك قبلَ المَوت في مَهلٍ ... ولا تكنْ جاهلًا في الحق مُرْتاباَ
إنّ المنيّة موردٌ منـاَهلُها ... لابد منها ولو عُمِّرتَ أحقاباَ
وفي الليـالي وفي الأيام تَجْرِبة ... يزداد فيها أولو الألباب ألباباَ
بعدَ الشباب يصير الصُّلْب مُنْحنياً ... والشَّعر بعد سوادٍ كان قد شابا
يُفْنِي النفوسَ ولا يُبْقِي على أحـدٍ ... ليلٌ سريع وشمسٌ كَرُّها (٢) دابا
لمستقرٍ وميقات مقـدَّرة ... حتى يعود شُهودُ الناس غُيَّاباَ
ومن تُعَاقره الأيامُ تُبْـدِ له ... بالجارِ جاراً وبالأصحـاب أصحاباَ
خلَّوا بروجاً وأوطاناً مشيدَّة ... ومؤنسين وأصهاراً وأنساباَ
فياله سفرا بُعْداً ومغتربا ... كُسيت منه لطول النأى أثوابا
بموحشٍ ضيِّق ناءٍ محلّتـه ... وليس من حَلَّه من غيبـةٍ آباَ
كم من مَهيب عظيم المُلْك مُتَّخِذ ... دون السُّرادق حُرَّاسا وحُجَّاباَ
أضحى ذليلًا صغير الشأن منفردا ... وما يرى عنده في القبر بوّابا (٣)
وقَبْلك الناسُ قد عاشوا وقد هلكوا ... فأضربَ الحيُّ عن ذي (٤) النأى إضراباَ

(١) أخرجه النسائي كتاب الصيام باب رقم ٥ وابن ماجه كتاب الصيام باب رقم ٣ .
(٢) ب : نحوها . وما أثبته من ت .
(٣) ت : نوابا (٤) ت : عند النأى .

يا أيها الرجُل الناسى لِمَصْرعه ... أصبحتَ مما ستَأتى النفسُ هَرَّابَا
اكْدَحْ لنفسك من (١) دارٍ تُزَايلها ... ولا تكن لِلذى يُؤذيك طَلَّابَا

* * *

يا من أمله إلى أجله يقوده ، أنت على يقين من نيل ما تريده ، كم من غصن غَضٍّ كسر عوده ، كم ملك عاث تنرقت جنوده ، لقد طرق الموتُ الغيلَ فهلكت أُسوده ، كم هدَّ الموتُ من جبل ، كم رَحَّل إلى القبور ونقل ، فرّغ المنازلَ وأَخلى الحِلَل (٢) وأَعْرى فى العَراء أصحاب الحُلَل ، ونقَض بمِعْول التلف ركنَ الأمل ، ومحا من كتاب اللهو سطور الجذَل ، وصاح بصوته الهائل : جاء الأجَل ؛ لقد غرك من الأمانى لُموعها وإنّ أشقى النفوس طَمُوعها ، إنها الدنيا قد صُرِّت ضروعها ، وكم جرَّ جَرِيرةً ماجنى جَزُوعها (٣) ، طوبى لنفس طال عنها جوعها ، وُصِفت لها الجنة فاشتد نُزوعها ، تفكرت فى تقصيرها فسالت دموعها ، ما عندك خَبر مما تحوى ضلوعها :

أرأيت من داء الصَّبَابة عائدا ... ووجدتَ فى شكوَى الغرام مُسَاعِدَا
هيهات ما تَرِد المطالبَ نائمـا ... عنها ولا تَصِل الكواكب قاعِدَا

إن جواهر الأشياء يظهرها سَبْكها، وإن قلوب الموقنين قدزال شكُّها . ياذا الكسل هذا زمان النشاط ، ياذا الأَنَفة إنّ للتوبيخ ألم السِّياط .

إخوانى : راعُوا حَقَّ هذه الأيام مهما أمكنكم ، واشكروا الذى وهب لكم السلام ومكَّنكم ، فكم مؤمِّل لم يبْلغ ما أمَّل ، وإن شككْت فتأمَّح جيرانك وتأمَّل ، كم من أناس صلوا معكم فى أول الشهر التراويح ، وأوقدوا فى المساجد طلباً للأجر المصابيح ، اقتنصهم قبلَ تمامه الصائدُ فقُهروا ، وأسرتْهم المصايد فأُسِروا ، وغمسهم التلف فى بحره فمقِلوا (٤) ، ولم ينفعهم المال والآمال لمّا نُقلوا ، أدارت عليهم المنون رحاها ؛

(١) ت : فى دار . (٢) الحلل : جمع حلة بالكسر وهى جماعة بيوت الناس .
(٣) الأصل : جدوعها . ولعل الصواب ماأثبتناه. والجزوع : مبالغة من الجزع .
(٤) مقلوا : غُمسوا وغُمِروا .

وحكَّ وجوههم الثرى فمحاها ، فأعْدمتهم صوماً وفِطرا ، وزوّدتهم من الحَنُوط(١) عِطْرا ، وأصبح كل منهم فى اللحد سَطْرا ، هذا حالُك يا من لا يَعْقل أمراً ، كم تُحَرِّض وما ينفع التحريض ، ونَعْرض لك باللّوم وما يُجْدى التعريض ، يا من لا ينتبه بالتصريح ولا بالتعريض ، يا متعوِّضا ما يفنى عما يبقى بئس التعويض ، يا مسوِّدا صحائفه متى يكون التبييض ، قد أمهلتك فى الزمان الطويل العريض ، كم يقال لك ولا تقبل ، والحُرّ تكفيه الملامة ، أمارةُ الخير ما تخفَى ، طَرْف الفتى يُخْبر عن ضميره ، تالله إنّ رائضك لَمُثقِّف يَضَع الهِناء مواضع النَّقب(٢) ، لو ارعويت لاستويت ، لو صحّ منك الهوى أُرشدت للحِيَل ، زاحِم التائبين وادخل فى حزب البكّائين ، وكلُّ غريبٍ للغريب نَسِيب .

قال يحيى بن معاذ : يابن آدم طلبتَ الدنيا طلب من لا بد له منها ، وطلبت الآخرة طلب من لاحاجة له إليها ، والدنيا قد كُفِيتَها وإن لم تطلبها ، والآخرة بالطلب منك تنالها،فاعقل شأنك يابن آدم. حُفَّت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها، وحُفت النار بالشهوات وأنت تطلبها ، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء ، إن صبرتْ نفسُه على مضض الدواء اكتسبت بالصبر عافية الشفاء ، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علته :

وفى الشيب ما ينهى الحكيم عن الصِّبا إذا استوقدتْ نيرانُه فى عِذارهِ
وأىّ امرئٍ يرجو من العَيْش غِبْطةً إذا اصفرّ منه العُودُ بعد اخضرارهِ
ولله فى عَرْض السموات جَنّــــة ولكنها مَحْفوفةٌ بالمكارهِ

***

أمتْ نفسك حتى تحييها ، فعاقبة الصبر حلوة .

كم صبرَ بِشْر(٣) عن مُشْتهَى حتى سمع : كُلْ يامن لم يأكل .

(١) الحنوط : كل طيب يخلط للميت .
(٢) المثقف : المصلح المقوم . الهناء : القطران الذى تطلى به الإبل الجربى . والنقب : الجرب .
(٣) يريد بشرا الحافى الصوفى الزاهد وهو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال الحافى أصله من مرو سكن بغداد ومات بها ، وصحب الفضيل بن عياض ، وكان عالماً ورعاً ، توفى سنة ٢٢٧هـ. ترجمته فى طبقات الصوفية ٣٩ وحلية الأولياء ٨/٣٣٦ وتاريخ بغداد ٧/٦٧ . والبداية والنهاية ١٠/٢٩٧ .

ما مُدَّ سِجَاف[1] : « نِعْمَ العَبْدُ » على قُبّة « ووهَبْنا له أهْلَه » حتى جُرِّب فى أمانة « إنّا وجَدْناه صابراً » .

إن الألم لَيُحْمَد إذا كان طريقا إلى الصحة ، وإن الصحة لَتُذمّ إذا كانت سبيلا إلى المرض ،أى فائدة فى لذة ساعة أوقعتْ غمًّا طويلا ، ما فهم مواعظَ الزمان من أحسن الظنّ بالأيام ، إياك أن تسمع كلام الأمل فإنه غرور محض :

أمَا ترَى الدهر لا يَبْقى على حال   طوراً بأمنٍ وطَوْرا جا بأوْجالِ
متى بان الفتى قالوا دنا أجلٌ   يا هل أرى فى الليالى غير آجالِ
بَذْلٌ يؤول إلى مَنْع وعافية   تجرّ داءً ونُكْسٌ بعد إبْلالِ
وما سُرِرْت بأيام الكمال فما   تناقَص الشيء إلا عند إقبال
نَتّقى المَخاوفَ فى الدنيا ونأمنها   ونطلب العِزَّ فى الدنيا بإذلال
وتَسْتَذِمُّ إلينا كلَّ شارقةٍ   وما لها مُبْغِض فينا ولا قالى
لذَاذة لم تُنَل إلا بمؤلمة   وصحةٌ لم تدمْ إلا بإعلالِ

***

إذا استوطنتَ السلامة فتذكر العَطَب ، وإذا طاب لك الأمن فتفكّر فى المخاوف ، وإذا لذّت لك العافية فلاتنس قُرْب السقم ، وإن كنتَ محبا لنفسك فلا تسئ إليها بالزلل ، إن طالب الدنيا لاينال منها حظا إلا بفَوْت نصيب من الآخرة .

هل العُمْر إلا ثلاثة أيام : يومٌ انقضى بما فيه ذهبت لذّته وبقيت تَبِعته ، ويوم مُنتظَر ليس منه إلا الأمل ، ويومٌ أنت فيه قد صاح بك مُؤذِنا بالرحيل فاصبر فيه عن الهوى فإن الصبر إذا وصل إلى المحبوب سَهل .

الكلام على قوله تعالى

« سلامٌ هى حتى مطلع الفجر »

إخوانى : إن شهر رمضان قد قَرُب رحيله وأزِف تحويله ،وهو ذاهب عنكم بأفعالكم وقادِم عليكم غداً بأعمالكم ، فياليت شعرى ماذا أودعتموه وبأى الأعمال ودّعتموه ؟

(١) السجاف : الستر .

أتراه يرحل حامدا صنيعكم أوذامًا تَضْييعكم ؟ ما كان أعظم بركات ساعاته ، وما كان أحْلى جميع طاعاته ، كانت ليالىَ عتقٍ ومُبَاهاة ، وأوقاته أوقات خدم ومناجاة ، ونهاره زمان قُرْبة ومصافاة ، وساعاته أحيان اجتهاد ومعاناة ، فبادروا البقية بالتقية قبل فوات البِرّ ونزول البرِّية وتخلَّى عنك جميعُ البَرِية .

أين المخاص المتعبد ، أين الراهب المتزهد ، أين المنقطع المتفرِّد ، أين العامل المجوِّد ، هيهات بقى عَبْد الدنيا ومات السيد ، وهلك من خطؤه خَطأ وعاش المتعمِّد ، وصار مكان الخاشعين كلُّ منافق متمرِّد ، رحل عنك شهرُ الصيام ، وودَّعك زمان القيام ، ولحَّ النصيح وقد لام ، أفتشرق شمس الإيقاظ وتنام ، فاستدركْ ما قد بقى من الأيام ، قد رأيتك توانَيْت فى الأولى والثانية والثالثة فما بعد أن دنا الصباح .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان آخر يوم من شهر رمضان أعتق فيه مثل جميع ماأعتق (١) » أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله فى كل ليلة من شهر مضان ستمائة ألف عتيق من النار ، فإذا كان آخر ليلة أعتق بعدَد من مضى (٢) » .

وقد روينا فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كانت آخر ليلة من رمضان أعتق الله عز وجل فى ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره (٣) .

وقد كان عبد الرحمن بن الاسود يحيي ليلة الفطر ويقول : هى ليلة غَفْلة .

وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحيا ليلتى العِيد وليلة النصف من شعبان لم يمت قلبه يومَ تموت القلوب (٤) » .

وكان جعفر الصادق يدعو فى آخر رمضان فيقول :اللهم رب رمضان منزِّل القرآن

---

(١) الحديث موضوع فيه مجاهيل . اللآلىء المصنوعة ٢/١٠١

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان . قال البيهقى : هكذا جاء مرسلا .

(٣) الحديث موضوع كما سبق بيانه . (٤) الحديث سبق تخريجه فى ص ٦٢ من هذا الجزء .

هذا شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن وقد تصَّرم ، أى رب فأعوذ بوجهك الكريم أن يطلع الفجر من ليلتى هذه أو يخرج رمضان ولك عندى ذنب تريد أن تعذبنى بوم ألقاك .

ومن المتعلق بالصيام إخراج زكاة الفطر ، حدثنا أبو القاسم بن الحصين بسنده عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن شهر رمضان معلَّق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر (١) » .

وينبغى أن يكون الاجتهاد فى أواخر الشهر أكثر من أوله لشيئين : أحدهما لشرف هذا العشر وطلب ليلة القدر . فقد روينا فيما تقدم : « اطلبوها فى خمسٍ بقين أو ثلاث أو آخر ليلة » . والثانى : لوداع شهر لا يُدْرَى هل يلقى مثله أم لا .

***

إخوانى : ليلة القدر ليلة يُفْتح فيها الباب ويقرّب فيها الأحباب ويُسْمع الخطاب ويُردّ الجواب ويُسْنَى للعاملين عظيم الأجر « سلامٌ هى حتى مَطْلع الفجر » .

يسعد بها المواصِل ويتوفر فيها الحاصل ويُقْبل فيها الخامل ، فياربح المعامل فى البحر « سلام هى حتى مطلع الفجر » .

ليلة تُتلقَّى فيها الوفود ، ويحصل لهم المقصود بالقبول والفوز والسعود، أترى مايؤلمك أيها المطرود هـذا الهجر « سلامٌ هى حتى مطلع الفجر » أخلَصوا وما أخلصتَ قَصْدك ، وبلغوا المراد وما بلغت أَشُدّك ، وكلما جئت بلا نِيّة ردّك ، أو ليس ما يؤثِّر عندك شديدُ هذا الزَّجْر « سلام هى حتى مطلع الفجر » .

أيقظْ نفسك لمابين يديها ، وانتظر ماسيأتى عن قليل إليها،وأسمعها المواعظ فقد حضرت لديها ، واقبل نصحى وخذ عليها ضَرْب الحَجْر « سلامٌ هى حتى مطلع الفجر » . هـذه أوقات يربح فيها من فهم ودرَى ، ويصل إلى مراده كلٌّ من جدَّ وسَرَى ، ويفك فيها العانى وتُطْلَق الأسْرى ، تقدَّم القوم وأنت راجع إلى ورا ، أو ليس كل هذا قد جرَى وكأنه لم يَجْرِ « سلام هى حتى مَطلع الفجر » .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

(١) لم أجده فى شىء من الكتب المعتمدة فى الحديث .

المجلس التاسع
فى ذكر عيـــد الفطر

الحمد لله موفّر الثواب للأحباب ومكمّلِ الأجر ، وباعث ظلام الليل ينْسخه نور الفجر ، المحيط علماً بخائنة الأعين وخافية الصَّدْر ، ومعلِّمِ الإنسان مالم يعلم به ولم يَدْر ، المنعم لى عن دَرْك خواطر النفس وهواجس الفِكْر ، الموالى رزقه فلم ينْس النمل فى الرمل والفرخ فى الوكْر ، جلّ أن تناله أيدى الحوادث على مرور الدهر ، وتقدّس أن يخفى عليه باطن السِّر وظاهر الجهر ، مِنّنه تيجان الرءوس وقلائد النحر « هو الذى يسيِّركم فى البرّ والبحر » أحصى عددَ الرمل فى الفيافى والنمل فى القفر ، وشاء فأجرى كما شاء تقدير الإيمان والكفر ، أغنى وأفقر فبإرادته وقوع الغَناء والفقر ، وأصمّ وأسمع فبمشيئته أدرك السمع ومنع الوقر ، أبْصَر فلم يخْف عليه دَبيب الذرِّ فى البر ، وسمع فلم يَعْزب عن سمعه دعاء المضطر فى السرّ ، وقدَّر فلم يحتج إلى معين يمدّه بالنصر ، وأجرى الأقدار كما شاء فى ساعات العصر ، فهو الذى هدانا إليه بواضح الدليل وسليم السر ، وخصنا من بين الأمم بشهر الصيام والصبر ، وغسل به ذنوب الصائمين كغسل الثوب بماء القطر ، فله الحمد إذ رزقنا إتمامه وأرانا عيد الفطر .

أحمده حمداً لا منتهى لعَدَده وأشهد بتوحيده شهادة مُخْلص فى معتقَده ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى نبع الماء من بين أصابع يده ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبى بكر الصديق رفيقه فى شدائده ، وعلى عمر كهف الإسلام وعَضده ، وعلى عثمان جامع القرآن فسُقْيا لمتبدِّده ، وعلى علىّ كافى الحروب وشجعانها بمفرده والمضطجع ليلة خروجه على مَرْقده وعلى عمه العباس مقدَّم بيت هاشم وسيِّده .

عباد الله : إن يومكم هذا يوم العيد قد ميَّز فيه الشقى والسعيد ، فكم فرح بهذا اليوم مسرور وهو مطرود مهجور .

وقد روينا فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا كانت غداة الفطر بعث الله تعالى ملائكة فى كل بلد فيهبطون إلى الأرض فيقومون على أفواه السكك فينادون بصوت يسمعه جميع من خلق الله إلا الجن والإنس فيقولون: يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنب العظيم. فإذا برزوا فى مصلاهم يقول الله عز وجل ياملائكتى ما جزاء الأجير إذا عمل عمله؟ فيقولون: إلهنا وسيدنا جزاؤه أن توفيه أجره. فيقول الله تعالى: ياملائكتى أشهدكم أنى قد جعلت ثوابهم فى صيامهم شهر رمضان وقيامهم رضاى ومغفرتى. ويقول الله عزوجل: سلونى فوعزتى وجلالى لاتسألونى اليوم شيئا فى جمعكم هذا لآخرتكم إلا أعطيتكموه ولا لدنيا إلا نظرت لكم. انصرفوا مغفورا لكم قد أرضيتمونى ورضيت عنكم.

وقد سبق هذا الحديث بإسناده فيما تقدم (١).

وأول وظيفة تختص بالعيد الغسل، ثم البكور والخروج على أحسن هيئة، إلا أن يكون معتكفا فيخرج فى ثياب اعتكافه ويخرج معه زكاة فطره، فإن كان قد أخرجها قبل ذلك بيوم أو يومين جاز، وإن صلى العيد ولم يخرجها أخرجها بعد ذلك على وجه القضاء، فإذا مشى فى الطريق غض بصره.

قال بعض أصحاب سفيان الثورى: خرجت معه يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به فى يومنا هذا غض البصر. ورجع حسان بن أبى سنان من عيده فقالت امرأته: كم من امرأة حسناء قد رأيت؟ فقال: ما نظرت إلا فى إبهامى منذ خرجت إلى أن رجعت!

ويستحب أن يأكل قبل الصلاة، بخلاف الأضحى. وفى حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل سبع تمرات يوم الفطر قبل أن يخرج إلى المصلى.

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن سعيد بن المسيب قال: كان المسلمون يأكلون يوم

---

(١) انظر ص ٧٦ من هذا الجزء.

الفطر قبل الصلاة ولا يفعلون ذلك يوم النحر . وإذا صلى العيد رجع فى غير الطريق .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأخذ يوم العيد فى طريق ويرجع فى غيره . وهذا يحتمل أشياء منها : أنا قد روينا أن الملائكة تقف على أفواه السكك يوم العيد فيقولون للناس : اخرجوا إلى رب كريم يغفر الذنب العظيم . فيكون الاستحباب فى تغيير الطريق أن يمر على ملأ منهم لم يمر عليهم ليحصل له البركة بدعائهم . ويحتمل أن يكون ليَلْقَى قوماً من المسلمين ما لقيهم فيدعو لهم ويدعون له . ويحتمل أن يكون للتفاؤل بتغيّر الحال ، كأنه خرج وعليه ذنب ورجع مغفورا له .

ولا يسنّ التطوّع قبل صلاة العيد ولا بعدها فى موضع صلاة العيد . وقد رويت صلاة لليلة وليوم العيد ليس فيها شىء يثبت ولا يصح ، فلهذا تنكّبْنا ذكرها . وينبغى لمن وسِّع عليه أن يوسع على الفقراء فى هذا اليوم ويتطوع بإطعام من قدَر .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن أبى سعيد الخدْرى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا يوم الفطر أن نفطر الفقراء من إخواننا ، وكان يقول : من فطّر واحدا يعتق من النار ، ومن فطر اثنين كتب له براءة من الشِّرك وبراءة من النفاق ، ومن فطَّر ثلاثة وجبت له الجنة وزوجه الله من الحور العين . قال : وكان يأمرنا أن نطعم الخبز واللحم والخبز والزيت والخبز واللبن . وكان يقول آدموا طعامكم يُؤْدَم لكم عيشكم : يقول : يليّنه .

ويستحب إتباع رمضان بست من شوال ؛ أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان وأتبعه بستّ من شوال كان كمن صام الدهر » .

انفرد بإخراجه مسلم (١) .

وقد ذكر العلماء أن السر فى هذا أن أيام السَّنة ثلاثمائة وستون يوما وهذه الستة مع

---

(١) صحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ٢٠٤ (ط الحلبى)

رمضان ستة وثلاثون والحسنة بعشر أمثالها فمن دام على هـذا فكأنه كمن صام الدهر . وقد روى نحو هذا مرفوعا .

أخبرنا على بن عبيد الله بسنده عن ثَوْبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «صيام رمضان بعشرة أشهر وصيام ستة أيام شهرين فذلك صيام سنة » [١].

أخبرنا حماد بن سلمة بسنده عن الأزرق بن قيس عن رجل من بنى تميم قال : كنت عند باب معاوية ووضعت الموائد فجعل أبو ذر يأكل وجعلت أنظر إليه فقال : ماشأنك ياأحمر ؟ أتريد أن تشغلنى عن طعامى ؟ فقلت: ألم تزعم على الباب أنك صائم . فقال أبو ذر : بلى . ثم قال : قرأت من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « صومُ شهر الصبر وثلاثة من كل شهر صوم الدهر»[٢] وقد صمْت ثلاثة أيام من الشهر فأنا صائم الشهرَ كله .

وبالإسناد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت بن أبى عثمان النَّهْدى أن أبا هريرة رضى الله عنه كان فى سفَر فلما نزل ووضعت السُّفْرة بعثوا إليه وهو يصلى فقال : إنى صائم فلما كادوا أن يفرغوا جاء فجعل يأكل فنظر القوم إلى رسولهم فقال : ماتنظرون ، قد والله أخبرنى أنه صائم . فقال أبو هريرة صدَق إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « صومُ شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر » [٢] . وقد صمت ثلاثة أيام من أول الشهر وأنا مُفْطر فى تخفيف الله وصائم فى تضعيف الله عز وجل »

الكلام على العيد

عِيدى مقيمٌ وعيد الناس منْصرِفٌ ... والقلبُ منى عن اللذات مُنْحرفُ
ولى قَرِينان مالى منهما خلَفٌ ... طولُ الحنين وعين دَمْعُها يَكِفُ [٣]

(١) أخرجه الدارمى كتاب الصوم باب ٤٤
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ٢٠/٢٦٣
(٣) يكف : يسيل .

يامن يفرح فى العيد بتحسين لباسه ، ويوقن بالموت وما استعد لبأسه ، ويغترّ بإخوانه وأقرانه وجُلّاسه، وكأنه قد أمِن سرعةَ اختلاسه ، كيف تقرّ بالعيد عينُ مطرود عن الصلاح ، كيف يضحك سِنٌّ مَرْدود عن الفلاح ، كيف يُسرّ من يُصرّ على الأفعال القِبَاح ، كيف لا يبكى من قد فاته جزيلُ الأرباح ، النَّوْح أحقُّ بك من السرور يامغرور ، والحزن أجْدر بك من جميع الأمور ، والجِدُّ أولى بك من التوانى والفُتور ، كيف يُسَرّ بعيده من تاب ثم عاد ، كيف يفرح بالسلامة من آثامه فى ازدياد .

أخبرنا محمد بن أبى منصور بسنده عن أبى ثابت الخطّاب قال : سمعت إبراهيمَ بن موسى يقول : رأيت فَتْحا الموصلىّ يوم عيد وقد رأى على الناس الطَّيَالس والعمائم فقال لى : ياإبراهيم أمَا ترى ثوبًا يَبْلى وجسدًا يأكله الدود غدًا ؟ هؤلاء قوم قد أنفقوا خزائنهم على بُطونهم وظُهورهم ويَقْدمون على رَبِّهم مَفَاليس . أخبرنا عمر بن ظُفر بسنده عن أبى بكر الشقّاق (١) قال : سمعت أحمد بن عيسى يقول نظر بعض العلماء يوم الفطر إلى الناس وشُغلهم بما هم فيه من الأكل والشراب واللباس فقال : لئن كانوا هؤلاء قد أنبأهم الله عز وجل أنه قد تقبّل منهم صيامهم وقيامهم لقد كان ينبغى لهم أن يكونوا أصبحوا مَشاغيل بأداء الشكر، ولئن كان يخافون أنه لم يَقْبل منهم فقد كان ينبغى لهم أنْ يكونوا أَشْغل وأشغل.

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده عن عبد الله الصوفى سمعت مظفر بن سهل قال: قال أبو بكر المروزى : دخلت على أبى بكر بن مُسْلم صاحب قنطرة بردان يوم عيد فوجدته وعليه قميص مرقوع مطبق وقدامه قليلُ خرْنوب يَقْرِضه فقلت : ياأبا بكر اليوم يوم عيد الفطر تأكل الخرنوب ؟ فقال لى : لاتنظر إلى هذا ولكن انظر إن سألنى من أين لك هذا ؟ أى شيء أقول !

أخبرنا أبو بكر الصوفى بسنده عن أبى الربيع النَّهْدى قال : أخبرنى إدريس بن يحيى قال : دخلت على أبى عباد الخوّاص يوم عيد فاستأذنت عليه فخرج إلىّ وهو يبكى

---

(١) الشقاق : الذى يشق الخشب . وهى نسبة إلى الصناعة . اللباب ٢/١٢٣

ويَنُوح على نفسه قال : فدخلت معه فقال : إنى ذكرت اليوم تنعّم الناس وماهم فيه من اللذات فأحببت أن أتنعم بما ترى .

وكان صالح بن عبد الجليل إذا انصرف يوم العيد جمع عياله وجلس يبكى فيقول له إخوانه : هذا يوم سرور . فيقول صدقتم ولكنى عبدٌ أمرنى سيدى أن أعمل له عملا فعملته ، فلا أدرى أقَبِلَه منّى أم لا ؟ فالأولى بى طول الحزن !

أخبرنا محمد بن عبد الباقى عن هنّاد بن إبراهيم قال : سمعت محمد بن القاسم يقول : كان الشِّبْلى يوم العيد ينوح ويصيح ويصرخ وعليه ثياب سود وزرق فاجتمع الناس إليه فسألوه عن نَوْحه وبكائه فقال :

تزيّن الناسُ يومَ العِيد للعيـــد وقدلبِثتُ ثيـــابَ الزُّرْق والسُّودِ
وأصبح الناس مسرورا بعيـــدهمُ ورُحْتُ فيك إلى نَوْح وتعـــديدِ
فالنـــاسُ فى فرحٍ والقلبُ فى ترَحٍ شتّان بينى وبين الناس فى العيـــدِ

وخرج الشِّبْلى يوم العيد وهو يقول :

للناس فِطْرٌ وعيـــدُ إنى فريدٌ وحيـــدُ
يا غايتى ومُنـــاىَ أتِمَّ لى ما أريـــدُ

واجتمع الناس إليه فسألوه الدعاء فمدَّ القوم أيديهم فجعل يدعو فكان من دعائه : اضربهم بسياط الخوف ، أَقْبِل بهم بأزمّة الشوق ، أغنهم بملاحظات الفُهوم ، كن لهم كما كنت لمن لم تكُنْ له بأن صرت كلاًّ له (١) .

وقيل له يوم عيد : يا أبا بكر اليوم يوم عيد . فقال :

الناسُ بالعيد قد سُرُّوا وقـــد فرحوا وما فرحتُ به والواحد الأحـــدِ
لمّا تيقنْتُ أنى لا أعاينــــــكم غمّضتُ عينى فلم أنظر إلى أحـــدِ

ورُئى يوم عيد خارجا وهو يقول :

إذا ما كنتَ لى عيـــدًا فمـــا أصْنع بالعيـــدِ

(١) كذا بالأصل .

جرَى حبـــكَ فى قلبى كجرْى الماء فى العُودِ

***

والله ما عيد يعقوب إلا لقاء يوسف، ولا أيام تشريق الصِّديق إلا الغار . يامن عزَم على المعاصى فى شوال أللشهر احترمتَ أم لرب الشهر ، ويحك ! رب الشهرين واحد . تقول أصْلح رمضان وأفسد غـيره وعَزْمك فى رمضان على الزلل فى شوال أفسدت رمضان ، إذا طالبتْ نفسك فى شوال بشرب الخمر فذكِّرها سيلَان العين على الخَدّ فى اللَّحْد وعمَل البِلَى فى المفاصل لعل الـكَفّ يَكُفّ .

هيهات ليس المحب من غيَّره البُعْد والهَجْر ، ولا المخلص من حرَّكه الثواب والأجر ، لـكنه من تساوَى عنده الوصل والصدّ ، وإلْفه على كل حال الجِدّ والـكَدّ .

يا راكبا تَطْوى المهامِهَ عِيسُه فتريه رَضْرَاضَ الحَصى مُتَرَضْرِضَا[1]
بلِّغ رعَاك الله سُكَّان الغَضَى منِّى التحية إن عرَضْتَ مُعرِّضَا
وقُل انقضى زمنُ الوصـــالِ وودُّنا باقٍ على مَرِّ الليـــالى ما انقضَى

الـكلام على قوله تعالى

« ألا إن أولياء الله لاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون [2] »

أخبرنا عبد الأوّل بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى قال : من عادَى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب وما تقرَّب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعهُ الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأُعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما تردَّدْت فى شىء أنا فاعله تردّدى

(١) الرضراض : الحصى أو صغارها . والمترضرض : المتكسّر

(٢) سورة يونس ٦٢

عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته [١] » .

وفى حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل قال : « من أهان لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة وإنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى وإنّى لأغضب لهم أشدّ من غضب الليث الحَرِب [٢] » .

أخبرنا محمد بن أبى طاهر عن حميدٍ عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ من عَباد الله من لو أقسَم على الله لأبرّه [٣] » .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن زيد بن أسْلَم عن عطاء بن يسَار قال قال موسى عليه السلام : يارَبِّ من أهلُك الذين هم أهلك الذين تُظِلّهم فى ظل عرشك ؟ قال : هم البريئة أيديهم الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون بجلالى ، الذين إذا ذُكرت ذكروا بى وإذا ذُكروا ذكرت بذكرهم ، الذين يُسْبغون الوضوء فى المكاره ويُنيبون إلى ذكرى كما تنيب النُسور إلى وكورها ويَكْلَفون بحبى كما يكلف الصبىُّ بحب الناس ويغضبون لمحارمى إذا استُحلت كما يغضب النمر إذا حَرِب .

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن وهب بن منبه قال قال الحواريون : يا عيسى مَن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال عيسى عليه السلام : الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا ماعلموا أن سيتركهم ، فصار استكثارهم منها استقلالا وذِكْرهم إياها فواتاً ، وفرحهم بما أصابوه منها حُزْنا ، فما عارَضهم من نائلها رفضوه أو مِن رفعتها بغير الحق وضعوه ، خَلقت الدنيا عندهم فليسوا يجدِّدونها ، وخربت بينهم فليسوا يَعْمرونها ، وماتت فى صدورهم فليسوا يُحْيونها ، يَهْدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ، رفضوها فكانوا برفضها فرحين ، وباعوها فكانوا ببيعها

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الرقاق .
(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط مجمع الزوائد ١٠/٢٧٠
(٣) أنظر مجمع الزوائد ١٠/٢٦٤

رابحين ، نظروا إلى أهلها صرعى قد حَلّت بهم المَثُلات ، فأحيوا ذِكْر الموت وأماتوا ذكر الحياة، يحبّون الله ويحبون ذِكره ويستضيئون بنوره ، لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نَطق الكتاب وبه نَطقوا ، وبهم عُلِم الكتاب وبه علموا ، ليسوا يرون نائلا ولا أمانا دون ما يَرْجون ولاخوفا دون ما يَحْذرون .

وقد روى ذكر عدد الأولياء فى أحاديث لاتصح .

أخبرنا أبو الحسن الأنصارى بسنده عن عطاء عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأبدال أربعون رجلا وأربعون امرأة كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا ، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة [1] » .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى بسنده عن الأعمش عن سالم بن أبى الجعد عن كَعْب رضى الله عنه قال : « لم يزل فى الأرض بعد نوح عليه السلام أربعة عشر يُدْفع بهم العذاب » .

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن سفيان بن عُيَيْنَة قال : قال أبو الزِّناد : لما ذهبت النبوة وكانوا أوتاد الأرض أخلف الله مكانهم أربعين رجلا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقال لهم الأبدال ، لايموت الرجل منهم حتى ينشىء الله مكانه آخر يَخْلفه وهم أوتاد الأرض ، لم يَفْضلوا الناس بكثرة الصيام ولا بكثرة القيام ولا بحُسْن التخشع ولا بحسن الحِلْية بل بصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب والنصيحة لجميع المسلمين ، وعلامة ذلك أنهم لايعلنون شيئا ولا يُؤْذنون أحدا ، ولا يتطاولون على أحد تحتهم ولا يَحْقِرونه ، ولا يحسدون أحدا فوقهم ، ليسوا بمتخشعين ولا متماوتين ولا معجَبين ولا يحبون الدنيا ، ليسوا اليوم فى خشية وغدا فى غفلة .

***

رمضانُ القوم دائم وشوالهم كذلك صائم ، وأعيادهم سرورُ القوم بالمحبوب ، وأفراحهم بكمال التُّقَى وتَرْك الذنوب ، إذا جَنَّ عليهم الليلُ عادت القلوب بالمناجاة جُدُدا ،

(١) مجمع الزوائد ١٠/٦٢ إلى قوله: رجلا .

وإذا جاء النهار سَلَكوا من الجِدّ جَدَدا (١) ، يجمعون هِمَمَهم فيما أهمّهم إذا بات هَمُّ الغافل بَدَدا ، جزموا على ماعزموا وما انهزموا ، أبدا أعيادُهم بقُرْب القلوب إلى المحبوب دائمة ، وأقدامهم فى الدُّجَى على باب اللَّجَأ (٢) قائمة ، وأرواحهم بالاشتياق إلى الملك الخلاقِ هائمة ، قرّ بهم مولاهم وأدنى فالنفوس عن الفاني الأَدْنَى صائمة ، تزيّنت لهم لذاتُ الدنيا معا فما وجدت فى قلوبهم لها موضعا ، لما وجدوا كسرةً وخَلَقا (٣) أقنعا .

* * *

قالوا غدا العيدُ ماذا أنت لابسه ... فقلت خِلْقَةُ (٤) ساقٍ حُبَّه جُرَعَا
فقرٌ وصَبْر هما ثوبان تحتهما ... قلبٌ يرى إلْفَه الأعيادَ والجُمَعَا
أحْرَى الملابسِ أن يُلْقَى الحبيب بها ... يومَ التزاور فى الثوب الذى خَلَعَا
الدهر لى مأتم إن غِبْت يا أملِي ... والعيد ما كنت لى مَرْأًى ومُسْتمعَا

إخوانى : ليس العيد ثوباً يجرّ الخيلاء جره ، ولا تناول مطعم بكَفٍّ شَرِهٍ لا يُؤْمَن شَرّه ، إنما العيد لبس توبة عاصٍ تائب يُسَرّ بقدوم قلبٍ غائب .

أخبرنا أبو بكر الصوفى بسنده عن الحِيرىّ ، عن ابن باكوية الشيرازى قال : أنشدنى أبو الحسن الحنظلى قال سمعت الشِّبْلى ينشد يوم العيد :

ليس عيدُ المحب قَصد المصلَّى ... وانتظار الخطيبِ والسلطانِ
إنما العيد أن تكون لدى الـ ... ـحبّ كريما مقرّبا فى أمانِ

يامن وَفَّى رمضانَ على أحسن حال ، لاتتغير بعده فى شوال ، يامن رأى العيد ووصل إليه، متى تشكر المنعم وتثنى عليه، كم من صحيح هيَّأطيب عِيده، صارذاك الطيب فى تلحيده، سلبتهم والله أيدى المنون، فأنزلتهم قَفرَ البِلى يسكنون، فهم فى القبور بعدَ البيَان خَرِسون، ومن نَيْلِ آمالهم أو بعضها آيسون، وهكذا أنتم عن قريب تكونون ، وقد دلّهم على صدق

(١) الجدد : الأرض الغليظة المستوية . وأجد : سلكها .
(٢) اللجأ : المعقل والملاذ ، كالملجأ .
(٣) الخلق : الثوب البالى .
(٤) الخلقة : الفطرة .

قولى ماتعملون ، أمَا ترون الأتراب كيف يتقلبون ، أترى ضلَّت الأفهام أم عميت العيون، أفسحرٌ هذا أم أنتم لاتبصرون .

إلى متى ترضون من العمل بالفاسد ومن السلع بالكاسد ، وتنسون الحتْف الرابض المستأسد ، لقد أشمتُّم بكم كلَّ حاسد ، يامظهرون ضد مابه الكتاب وارِد ، إلى متى تُبَهْرِجون والبصيرُ ناقِد ، كيف يكون حالكم وهو عليكم شاهد :

عجبتُ من مستيقظٍ والقلبُ منه راقِدُ
مضيِّعٍ لدينـــه وللذنوب زائِدُ
كأنه على مَـــدا ه مُهْمَل وخالدُ
فأحسنوا أعمالـــكم فهى لـــكم قلائدُ
ولاتُضِيعواواجبـــاً واجتهدوا وجاهِدُوا

* * *

لله در أقوام تاملَّحوا العواقب فعملوا عمل مراقِب ، وجاوزوا الفرائض إلى طلب المناقب ، علَتْ هِمَمهم عن الدنايا وارتفعت ، وكفّت الأكف عن الأذايا وامتنعت ، ووسَّعت خُطَاها إلى الفضائل وسَعَتْ ، من يحبّ العِزّ يَدْأب إليه ، وكذا من طَلب الدرَّ غاصَ عليه ، كانوا إذا ابتلاهم مولاهم يصبرون ، وإذا أعطاهم مُنَاهم يشكرون ، وإذا استراح البطَّالون يدأبون ، فلو رأيتهم يوم يقول « هذا يومكم الذى كنتم توعدون » « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

زال الخوف عنهم واندفع ، فأفادهم حزنُهم فى الدنيا ونفع، وتمَّ السرور لهم واجتمع، وزال الحِجَاب بينهم وبينه وارتفع ، فهم إلى وجه الكريم ينظرون « لا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون » .

* * *

قوله تعالى : « الذين آمنوا وكانوا يتَّقون » .

قطعوا بوحدانيته واجتمعوا على طاعته ، وامتنعوا من مخالفته وارتبضوا فى رياض معرفته ، واضطبعوا بأَرْدية خِدْمته ، واطاموا بالعلوم على هَيْبته ، فيابُشراهم يوم يحضرون « الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

امتثلوا ما أمرهم به مولاهم ، واجتنبوا ما عنه نهاهم ، فإذا أُخرجهم من الدنيا وتوفّاهم استقبلوا الرَّوْح والريحان وتلقاهم ، فإذا حضروا لديه أكرم مثواهم ، وكشف الحجاب فشهدهم وأراهم ، وهذا غاية ما كانوا يأملون « الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

كانوا يتقون الشِّرْك والمعاصى ، ويجتمعون على الأمر بالخير والتواصِى ، ويحذرون يوم الأَخْذ بالأقدام والنواصى ، فاجتهد فى لحاقهم أيها العاصى ، قبل أن تَبْغتك المنون « الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

***

قوله تعالى

« لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »

روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « هى الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرَى له [(١)] » .

كانت قلوبهم فى خدمته حاضرة ، ونفوسهم على طاعته مثابرة ، وألسنتهم على الدوام ذاكرة ، وهِمَمهم إلى ما يرضيه مُبَادرة « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

مَنازلهم عنده عظيمة ، وأنفسهم عليه كريمة ، كانت قلوبهم من الشكّ سليمة ، ساروا إلى الجهاد على خَيْل العزيمة ، فإذا وقَماتهم للعدوّ كاسرة « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

زَمُّوا مطَايا الصِّدق وساروا ، وجالوا حولَ دار الكريم وداروا ، ونهضوا

(١) أخرجه الترمذى عن عبادة بن الصامت . تيسير الوصول ١٤٣/١

إلى مراضيه وثاروا، وطلبوا عدوّهم فأوقعوا به وأغاروا ، فياحسنهم إذا توجهوا إلى الصلاة واستداروا ، والدموع فى محاربهم ماطِرة « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

أقبل القومُ فقُبلوا . وعرفوا لماذا خُلقوا فعملوا ، إذا رجع الناس إلى لذاتهم عادوا إلى عباداتهم ، وإذا سكَن الخَلْق إلى أوطانهم سكنوا إلى حُرقات أشجانهم ، وإذا أقبل التجار على أموالهم أقبلوا على تفقد أحوالهم ، وإذا التذ الغافلون بالمنام على جنوبهم تلذذوا فى القيام بكلام محبوبهم،فلو ذقت من كئوس المناجاة الدائرة فى خيمة الدُّجَى الدائرة « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

نصَبوا الآخرة بين أيديهم وجدّوا ، ومثّلوا المنادِى يناديهم فاستعدوا ، وتضرّعوا فى طلب الإعانة فأُمِدُّوا ، وأقبلوا إلى الباب صادقين فما رُدُّوا ، ففازوا بالأرباح الجمّة الوافرة « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

أقلقهم ذِكْر الذنوب فما ناموا ، وشوّقهم رجاء المطلوب فقاموا ، وذكَروا العَرْض يوم تبديل الأرض فاستقاموا ، وتفكروا فى تصرّم العمر فاجتهدوا وداموا ، وتذكروا سالفَ الذنب فوبّخُوا النفوس ولاموا ، وباتت أعينهم ساهرة لذكر أرض الساهرة « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

أذْبَلوا الشّفاه يطالبون الشِّفاء بالصيام ، وأَنْصَبوا لمـا انتصبوا الأجسادَ يخافون المعَاد بالقيام ، وحفظوا الألسنة عما لا يَعْنِى عن فضول الكلام ، وأناخوا على باب الرجاء فى الدُّجى إذا سجَى الظلام ، فأنْشَبوا مخاليبَ طمعهم فى العَفْو فإذا الأظافير ظافرة « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

ياهذا سبقك القوم وتخلّفت ، ومضى أكثر العمر وتسوّفت ، ثم تعصِى المنعمَ بالنعم فما أنْصفت ، وتؤثر الضلال على الهدى وقد عرفت،أما تخاف أن تقول إذا حضرت ووقفت « تلك إذاً كرّة خاسرة » .

يامن بين يديه الحساب والصراط ، وهو عظيم الجرأة كثير الانبساط ، متكاسل فى

الطاعات وفى المعاصى ذو نشاط ، يُدْعَى إلى العلوّ ويَأْبى إلا الانهباط ، أمؤمنة هذه النفس بالوعيد أم كافرة .

يا مبارزاً مولاه لم يخف من بطشه ، يامقبلا على الهوى لاتغترر بنفسه ، تفكر فى من سكن الثرى بعد لين فرشه ، وانتبه بالتعريض قبل ظهور التصريح بفحشه ، أما أبقاك وأراك سِوَاك محمولًا على نَعْشه إلى أن أُلقى فى الحافرة .

يا خاسرا فاته جزيل الأرباح ، يا من أبعدته عنا خطاياه القِباح ، يا من لو انتبه لنفسه لبكى عليها وناح ، أتأمن عليها أن تؤخذ على بعض الاجتراح ، فيفعل بها فاقرة .

أيقظنا الله وإياكم من هذه الرقدة وحفظ إيماننا ولا أذاقنا فَقْده .

المجلس العاشر
فى عَشْر ذى الحجة

الحمد لله العالم بعدَد الرمل والنمل والقَطْر ، ومصرِّف الوقت والزمن والدهر ، الخبير بخافى السر وسامع الجهر ، القدير على ما يشاء بالعز والقهر ، أَقْرب إلى العبد من العُنق إلى النحر « هو الذى يسيِّركم فى البر والبحر » .

القديم فلا إله سواه ، الكريم فى منحه وعطاياه ، القاهر لمن خالفه وعصاه ، خلق آدم بيده وسوَّاه واستخرج ذريته كالذَّرّ . أنعم فلا فَضْل لغيره ، وقضى بنفع العَبْد وضَيْره وأمضى القدر بشرِّه وخيره ، فحثَّ على الشكر والصبر . أحاط علما بالأشياء وحواها، كيف لا وهو الذى بناها ، وقهر المضادّات فسواها بلا معين يمده بالنصر . لا كَيْف له ولا شبيه ولا يجوز عليه التشبيه ، عالم السر وما يَعْرض فيه ، متنزِّه عن تصور الفكر . أقسم فى القرآن بصنعته ، والقسَمُ على الحقيقة بقدرته ، فتأمل ما تحت القسم من فائدته « والفَجْر وليالٍ عَشْر والشَّفْع والوتر » .

أحمده حمدا ليس له نهاية ، وأقر له بالتوحيد فكم دلّت عليه آية ، وأصلى على رسوله محمد الذى ماردَّت له راية ، صلاة تصل إليه فى القبر . وعلى ضجيعه أبى بكر الصديق وعمر الشديد فى الحق الوثيق وعثمان المحب الشفيق وعلىّ الرفيع القدر ، وعلى عمه أبى الفضل العباس ، الشريف الأصل كريم الأغراس ، الذى نسبه فى الأنساب لا يقاس .

***

قال الله تعالى : « والفَجْر وليالٍ عَشْر » الفجر : ضوء النهار إذا انشقّ عنه الليل . وفى المراد بهذا الفجر ستة أقوال :

أحدها : أنه الفجر المعروف الذى هو بدء النهار . قاله على بن أبى طالب وعكرمة وزيد ابن أسلم والقرطبى . والثانى : صلاة الفجر . والثالث النهار كله، فعبر بالفجر عنه لأنه أوله .

والأقوال الثلاثة عن ابن عباس . والرابع أنه فجر يوم النَّحْر خاصة . قاله مجاهد . والخامس : فجر أول يوم من ذى الحجة . قاله الضحاك . والسادس : أول يوم من المحرم تَنْفجر منه السَّنة . قاله قتادة .

قوله عز وجل : « وليَالٍ عَشْر » فيها أربعة أقوال : أحدها أنه عَشْر ذى الحجة . رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ومسروق وقتادة والضحاك والسُّدّى ومقاتل والثانى : أنها العشر الأواخر من رمضان قاله أبو ظَبْيان عن ابن عباس . والثالث : العشر الأول من رمضان . قاله الضحاك . والرابع : العشر الأول من المحرم . قاله يمان ابن رئاب .

قوله تعالى : « والشفع والوَتْر » قرأ حمزة والكسائى : « والوِتْر بكسر الواو وفَتَحها الأكثرون ، وهما لغتان والكسر لقريش وتميم وأسد ، والفتح لأهل الحجاز .

وللمفسرين فى الشفع والوتر عشرون قولا : أحدها : أن الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى ، والوتر ليلة النحر . رواه أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم .

والثانى : أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة . رواه جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم .

والثالث : أن الشفع والوتر الصلاة ، منها شفع ومنها وتر . رواه عِمران بن حُصَيْن عن النبى صلى الله عليه وسلم .

والرابع : أن الشفع الخَلْق كله ، والوتر الله عز وجل . رواه عطية عن ابن عباس .

والخامس : أن الوتر آدم شُفع بزوجته عليهما السلام . رواه مجاهد عن ابن عباس .

والسادس أن الشفع يومان بعد يوم النحر وهو النَّفْر الأول والوتر اليوم الثالث وهو النفر الأخير . قاله عبد الله بن الزبير .

والسابع : أن الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب . حكاه عطية العَوْفى .

والثامن : أن الشفع الركعتان من صلاة المغرب والوتر الركعة الثالثة . قاله أبو العالية .

والربيع بن أنس . والتاسع : أن الشفع والوتر الخَلْق كله منه شفع ومنه وتر . قاله ابن زيد .

والعاشر : أن العدد منه شفع ومنه وتر . قاله الحسن . والحادى عشر أن الشفع عشر ذى الحجة والوتر أيام من الثلاثة قاله الضحاك .

والثانى عشر : أن الشفع هو الله لقوله تعالى «ما يكون من نَجْوَى ثلاثة إلا هو رابعهم(١)» والوتر هو الله لقوله تعالى : « قل هو الله أحد » قاله سُفْيان بن عُيَيْنة .

والثالث عشر : أن الشفع آدم وحواء ، والوتر هو الله تعالى . قاله مقاتل بن سليمان .

والرابع عشر : أن الشفع هو الأيام والليالى والوتر اليوم الذى لا ليلة معه وهو يوم القيامة . قاله مقاتل بن حيّان .

والخامس عشر : أن الشفع درجات الجنات لأنها ثمان ، والوتر دركات النار لأنها سَبْع ، فكأن الله عز وجل أقسم بالجنة والنار . قاله الحسين بن أبى الفضل .

والسادس عشر : أن الشفع تَضَادُّ أوصاف المخلوقين: عِزّ وذل ، وقُدْرة وعجز ، وقوة وضعف ، وعلم وجهل ، وحياة وموت . والوتر انفراد صفة الله سبحانه : عِزّ بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت . قاله أبو بكر الورّاق.

والسابع عشر : أن الشفع الصفا والمروة ، والوتر البيت .

والثامن عشر : أن الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر بيت المقدس .

والتاسع عشر : أن الشفع القِران فى الحج والتمتع ، والوتر الإفراد .

والعشرون : الشفع العبادات المتكررة كالصلاة والصيام والزكاة ، والوتر العبادة التى لا تتكرر وهى الحج . حكى هذه الأربعة أبو إسحاق الثعلبى .

***

قوله تعالى : « والليل إذا يَسْرِ » قرأ ابن كثير ويعقوب : « يَسْرى » بياء فى

(١) سورة المجادلة ٧ .

الوصل والوقف ووافقهما فى الوصل نافع وأبو عمرو وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى : « يَسْرِ » بغيرياء فى الوصل والوقف .

قال اللغويون منهم الفرّاء والزجّاج : والاختيار حذف حرف الياء لثلاثة أوجه : أحدها : لمشاركتها من الآيات . والثانى لاتباع المصحف . والثالث أن العرب قد تحذف الياء وتكتفى منها بكسر ما قبلها ، وأنشدوا :

كفّاك كفٌّ ما يُليق (١) درهماً   جُودًا وأخرى تُعْطِ بالسيف الدماَ

وفى قوله تعالى : « يَسْرِ » قولان : أن الفعل للّيل ، ثم فى ذلك قولان : أحدها إذا يَسْرِي ذاهباً . رواه عطية عن ابن عباس ، وهو قول الجمهور . والثانى : إذا يَسْرِى مُقْبلا . قاله قتادة .

والقول الثانى : الفعل لغيره ، والمعنى : إذ يُسْرَى فيه ، كما يقال ليلٌ نائم أى يُنَام فيه . قاله الآخفش .

***

قوله تعالى : « هل فى ذلك » أى فيما ذكر « قَسَم لذى حِجْر » أى عقل . وسمى الحِجْر حِجْرا لأنه يحجر صاحبه عن القبيح ، وسمى عقلًا لأنه يَعْقِل عمّا لا يَحْسُن ، وسمى النُّهى لأنه يَنْهَى عمّا لا يَجْمل . ومعنى الكلام : أن من كان ذا لُبٍّ عَلِم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه دلائل على توحيده وقدرته فهو حقيق أن يُقْسِم به .

وجواب القسم : « إنّ ربك لَبِالمرصادِ » فاعترض بين القسم وجوابه قوله تعالى « ألم تَرَ كيف فَعَل ربُّك بعاد »

والمشهور أن المراد بالعشر عشر ذى الحِجة .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أيامٍ العملُ الصالح فيها أحبّ إلى الله عز وجل من هذه الأيام » يعنى أيام العشر . قالوا : يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله عز

(١) مايليق : مايمسك ، وهى كناية عن الكرم .

وجل ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله عز وجل إلا رجلا خرج بنفسه وماله ثم لم يَرْجع من ذلك بشىء »

انفرد بإخراجه البخارى [١]

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مامن أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العَشْر فأكثروا فيهن التهليل والتكبير والتحميد [٢] »

أخبرنا عبد الله بن على المقرى بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أفضل أيام الدنيا العَشْر . قالوا يارسول الله ولا مثلهن فى سبيل الله ؟ قال : ولا مثلهن فى سبيل الله إلا من عفَّر وجهه فى التراب » .

وقد روى فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أن كل يوم من أيام العشر يَعْدل صيامَ سنة ، وليلة جَمْع تَعْدل ليلة القَدْر .

قال أبو عثمان النَّهْدى : كانوا يعظِّمون ثلاث عشرات : العشر الأول من ذى الحجة ، والعشر الأخير من رمضان ، والعشر الأول من المحرم .

* * *

اعلموا رحمكم الله أن عَشْركم هذا ليس كعشر ، وهو يحتوى على فضائل عشر :

الأولى : أن الله عز وجل أقسم به فقال : « وليال عَشْر [٣] »

والثانية : أنه سمـاه الأيام المعلومات فقال تعالى : « ويَذْكروا اسم الله فى أيامٍ معلومات [٤] » قال ابن عباس : هى أيام العشر .

والثالثة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له بأنه أفضل أيام الدنيا .

والرابعة : حثّ على أفعال الخير فيه .

---

(١) صحيح البخارى كتاب العيدين باب رقم ١١ وأخرجه أحمد فى مسنده ١/٢٢٤ ، ٢/٧٥،٢٢٨ ، ١٣٢ . وابن ماجه فى كتاب الصيام باب صيام العشر حديث رقم ١٧٢٧ .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ٢/٧٥ .

(١) سورة الفجر ٢ (٢) سورة الحج ٢٨

والخامسة : أنه أمر بكثرة التسبيح والتحميد والتهليل فيه .

والسادسة : أن فيه يوم التَّرْوية . وفى حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صام العشر فله بكل يوم صوم شهر ، وله بصوم يوم التروية سنة [١] »

قال الزاهدى: وإنما سمى بيوم التروية لأن عرفات لم يكن بها ماء فكانوا يتروّوْن من الماء إليها .

والسابعة : أن فيه يوم عرفة وصومه بسنتين.

والثامنة : أن فيه ليلة جَمْع وهى ليلة المزدلفة ، وقد سبق بيان فضلها .

والتاسعة : أن فيه الحج الذى هو ركن من أركان الإسلام .

والعاشرة : وقوع الأضحية التى هى علم للمِلّة الإبراهيمية والشريعة المحمدية . ومن أراد أن يضحى كُره له إذا دخل عليه عشر ذى الحجة أن يأخذ بَشَرته وأن يقلِّم أظفاره أو يحلق شعره ، وليتشبه بالمُحْرِمين . ومن أصحابنا من قال يَحْرُم ذلك كله .

أخبرنا على بن عبيد الله بسنده عن سعيد بن المسيِّب قال : سمعت أم سلَمة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان له ذبح يذبحه فإذا أهلَّ هلال ذى الحجة فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئا حتى يضحِّى [٢] » .

***

مالنفسِي عن مَعادِى غفلت ... أتراها نسيتْ مافعلتْ
أيها المغرور فى لَهْو الهوى ... كلُّ نفسٍ سترى ماعملتْ
أفٍّ للدنيا فكم تخدَعنا ... كم عزيزٍ فى هواها خذلَتْ
رُبَّ ريحٍ بأناس عصفَتْ ... ثم ماأن لَبِثت أن سكَنتْ
وكذاك الدهر فى تَصْرِيفه ... قدمٌ زلَّتْ وأخرى ثَبتَتْ

(١) أنظر الأحاديث فى ذلك فى مجمع الزوائد ١٨٩/٣ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الأضاحى حديث رقم ٤٢ والترمذى فى كتاب الأضاحى باب ٢٢ وابن ماجه كتاب الأضاحى باب ١١ .

ويدُ الأيام من عاداتها أنها مُفْسدة ماأصلَحتْ
أين من أصبح فى غفلته فى سرور ومُرادات خَلَتْ
أصبحت آماله قد خَسِرت وديارُ لَهْوِه قد خَرِبَتْ
فغدتْ أمواله قد فُرِّقت وكأنَّ دارَه ماسُكِنتْ
جُزْ على الدار بقلبٍ حاضر ثم قل يادار ماذا فَعلتْ
أوجهٌ كانت بُدورًا طُلَّعا وشُموساً طالَما قد أشرقَتْ
قالت الدار تفانَوْا فمضَوا وكذا كلُّ مقيمٍ إن ثبتْ
عاينُوا أفعالهم فى تُرْبهم فاسأل الأجْداث عما استُودِعتْ
كلُّ نفسٍ سوف تَلْقَى فِعْلها وَيْحَ نفسٍ بهواها شُغِلتْ
إنما الدنيا كظلٍّ زائلٍ أو كأحلام منامٍ ذهبَتْ

***

أين من ملك وقهر ، واستعمل فى حَفْر النهر ونَهر ، ضَمَّ الموتُ ذلك البشر ، وأخمد التلفُ ذلك الشَّرَر ، وتقضت الآفاتُ قويّات المِرَر ، وعلموا أنه لايُصْلح الأشَرُ البشَر ، واستبانوا أن بَيْعهم بيع الغَرَر .

كم راعت المنون سِرْبا سربا ، كم أثارت قَسْطلاً [1] وحَرْبا ، تالله لقد جالت بُعْدًا وقُرْبا ، فاستلبت البعدى وذوى القربى ، كم عمرت بخراب دُورهم تُرْبا ، فسَلْ بها حال سَلْبها كيف استلبتهم سَلَبا .

أين ملوكها وأمراؤها ، ومُدَّاحها وشعراؤها وسُحَراؤها وخُدامها ، وأحرارها وعبيدها وأُسَراها وغَناؤها بالأموال وثراؤها ، باكرتْهم والله بُكَراؤها [2] فأعجز إبطاءهم إبرادها [3] ، فضمَّتْهم عن قليل صحراؤها :

أمّا الجديدَ ان من ثوبى ومن جَسدى فيَبْليان ولا يبْلى الجديدانِ

(١) القسطل : الغبار . (٢) كذا ولعلها جمع بكير . كأمير وأمراء .
(٣) كذا والإبراد : الدخول فى آخر النهار .

بُرْد الشباب وبُرْد الناسج ابتُذلا وهل يدوم على البُرْدَيْن بُرْدانِ
الدهرُ لونان أعْيَا ثالثٌ لهما وكم أتاك بأشباه وألوانِ
لوكان يعرف دنياه مصاحبُها أرادها لعدوّ دون إخوانِ
وما أبالى وأرْدانى مبرَّأة من العيوب إذا ما الحتف أرْدَانِى(١)

***

يامن قد سارت بالمعاصى أخباره ، يامن قد قَبُح إعلانه وإسراره ، يافقيرا من الهدى أَهْلكه إعساره ، أتؤثر الخسران قل لى أو تختاره ، ياكثير الذنوب وقد دنا إحضاره ، يا مأسورا فى حَبْس الزلل لا ينفعه إحصاره ، نَقْدك بَهْرَجٌ إذا حك معياره ، كم رُدَّ على مثلك درهمه وديناره ، يامحترقا بنار الهوى متى تخبو ناره ، مايَلين قلبك لغامز ، ومايُرى لما تشتهى متجاوز ، ماهذ الفعل فعل فائز ، إن مطيع الزمان حال عاجز ، وإن بَيْن يديك لمَفاوز ، فيها أهوال وهَزاهز(٢) تقومِّك ولا تستوى ، من يغيِّر الغرائز ؟

أيتها النفس اسمعى لقيلى أنت من الحياة فى أصيلِ
وفى غُرور أمل طويل فلا يُغرّنْك ضُحَى التأميلِ
فقد دنت شَمْسك للأفولِ

***

عباد الله : هذه الأيام مَطايَا فأين العُدَّة قبل المنايا ، أين الأنَفة من دار الأذايا ، أين العزائم أرضيتم بالدنايا ، إن بليَّة الهوى لاتُشْبه البلايا ، وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايا ، يامَسْتورين ستظهر الخبايا ، سَرِيّة الموت لاتشبه السرايا ، قضية الزمان ليست كالقضايا ، راعى السلامة يقتل الرعايا ، رامِى المنون يُصْمِىَ(٣) الرَّمَايا ، ملك الموت لا يقبل الهدايا . أيها الشاب ستُسْأل عن شبابك ، أيها الكهل تأهَّب لعتابك ، أيها الشيخ تدبَّر أمرك قبل سَدّ بابك ، كنت فى بداية الشباب أَصْلَح ، فياعجبا كيف أَفْسَد من أَصْلَح ، يامريض القلب قِف بباب الطبيب ،

---

(١) أرادنى : أهلكنى (٢) الهزاهز : الدواهى والشدائد .
(٣) يصمى : يقتل ، يقال : رماه فأصماه ، إذا أصاب مقتله .

يامبخوس الحظ اشكُ فواتَ النصيب ، لذْ بالجناب ذَليلا ، وقف على الباب طويلا ، واتخذ في هذا العَشْر سبيلا، واجعل جَناب التوبة مَقِيلا ، واجتهد في الخير تجد ثوابا جَزِيلا ، قل في الأسحار : أنا تائب ، نادِ في الدجى :قد قَدِم الغائب :

أنا المسيء المذنب الخاطِي   المفْرط البيِّن إفراطِي
فإنا تعاقبْ أنا أهلٌ له   وأنت أهلُ العفوِ عن خاطِي

ألجأني إلى الذل أنا الجاني ، وألقاني الزلل على باب الأسف بدمعي القاني،ولقدأ قْرِح شأني[1] من خوف شاني شاني :

اعفُ عني وأقلني عَثْرتي   ياعمادِي لملمّات الزمنْ
لاتعاقبني فقد عاقبني   ندَمٌ أتلفَ رُوحي والبدَنْ
لاتطيِّر وسَنًا عن مُقْلة   أنت أهْديتَ لهاطِيبَ الوسَنْ
إنْ تؤاخذني فمن ذا أرْتجي   وإذا لم تَعْفُ عن ذنبي فمَنْ

الكلام على قوله تعالى

« ألم ترَ كيف فعل ربُّك بعادٍ »

خوّف المخالفين ما فَعل بنظرائهم . وفي إرم أربعة أقوال : أحدها : أنه اسم أمّة من الأمم ، ومعناه : القديمة . قاله مجاهد . والثاني : أنه اسم قبيلة من قوم عاد . قاله قتادة . والثالث : أنه اسم لجد عاد لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . قاله إسحاق . وقد قرأ ابن مسعود وابن عمر : « بعادِ إرمٍ » على الإضافة .

والرابع : أنه اسم بلدة .

ثم فيها ثلاثة أقوال : أحدها أنها دمشق . قاله سعيد بن المسيِّب وعكرمة. والثاني : الإسكندرية . قاله محمد بن كعب . والثالث : أنها مدينة صنعها شدّاد بن عاد . قاله كعب .

---

(١) الشأن : مجرى الدمع إلى العين

فيخرج على قوله تعالى « ذات العِمَاد » أربعة أقوال : أحـدها : أنهم كانوا أهل عُمُد وخيام . والثانى : أن المراد بالعماد : الطُّول . قاله الزجَّاج، يقال : عمد إذا كان طويلا. والثالث : ذات الشدة . والرابع : ذات البناء المحكم .

قوله تعالى : « التى لم يُخْلق مِثْلُها فى البلاد » فيه قولان : أحدهما : القبيلة فى طولها وقوتها . والثانى : المدينة .

أخبرنا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف بسنده عن وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج فى طلب إبل له شردتْ ، فبينا هو فى صحارى عدَن أَبْيَن[1] فى تلك الفلوات إذ هو قد وقع على حصن ، حول ذلك الحصن قصور كثيرة ، فلما دنا منها ظن أن فيها أحدا يسأله عن إبله فإذا لا خارج ولا داخل . فنزل عن ناقته فعقَلها ثم استلَّ سيفه ودخل من باب الحصن فإذا هو ببابين عظيمين لم يرفى الدنيا شىء أعظم منهما ولا أطول . وفى البابين نجوم من ياقوت أبيض وياقوت أحمر تضىء البابين ما بين الحصن والمدينة ، فلما رأى الرجل أعجبه وتعاظمه الأمر فدخل فإذا هو بمدينة لم ير الراءون مثلها قط ، فإذا هو فى قصور كل قصر معلَّق تحته أعمدة من زبرجد وياقوت . ومن فوق كل قصر منها غُرَف . ومن فوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وكل مصاريع تلك القصور وتلك الغرف مثـل مصارع باب المدينـة بالياقوت الأبيض والأحمر ، مفروشة تلك القصور وتلك الغرف باللؤلؤ وبنادق المِسْك والزعفران ، فلـما عاين الرجلُ ذلك ولم ير أحـدا هَاله ذلك وأفزعه ثم نظر فى الأزقّة فإذا هو بشجر فى كل زقاق منهـا قد أثمر ، وتحت الأشجار أنهـار مُطَّردة يجرى ماؤها فى قنوات من فضة ، فقال الرجل إن هذه لَلْجَنّة التى وصف الله عز وجل . ثم حمل معه من لؤلئها وزبرجدها ثم عاد إلى بلده فأظهر ما كان معه وأعلم النـاس أمره . فبلغ ذلك معاوية بن أبى سفيان فكتب إلى صنعاء فجىء به فسأله عمّا رأى فأخبره فأنكر ذلك ، فأراه ما قد أخذ منها لؤلؤا قد اصفرّ وبنادق مِسْك لم يجد لها ريحا ففتّها فإذا ريح المسك ، فبعث إلى كعب

(١) عدن أبين : مخلاف باليمن، يقال إنه سمى بأبْين بن زهير من سبأ . وانظر معجم البلدان ١١٠ (ط أوربا) .

وقال : إنى دعوتك إلى شىء رجوت أن يكون علمه عندك هل بلغك أن فى الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة عُمدها زبرجد وياقوت وحصباؤها لؤلؤ ؟ فقال : نعم هى إرم ذات العماد التى بناها شداد بن عاد . قال حدّثنا حديثها . فقال : إن عادا الأول كان له ابنان شديد وشداد فهلك عاد وملك ابناه البلاد ولم يبق أحد إلا فى طاعتهما ثم مات شديد فملك شداد وحده فكانت له الدنيا جميعا ، وكان مُولَعا بقراءة الكتب وكلما مرَّ بذكر الجنة دعته نفسه إلى أن يبنى مثلها عتوًّا على الله عز وجل ، فأمَّر على صنعتها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان ثم قال : انطلقوا إلى أطيب فَلَاة فى الأرض وأوسعها فاعملوا لى مدينة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد وفوق القصور غرف من فوق الغرف غرف واغرسوا تحت تلك القصور فى أزقتها أصناف الثمار وأجروا تحتها الأنهار فإنى أسمع فى الكتب صفة الجنة وأنا أحب أن أجعل مثلها فى الدنيا . فقالوا : كيف نقدر على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال : ألستم تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدى ؟ قالوا : بلى . قال فانطلقوا إلى معادن الزبرْجد والياقوت والذهب والفضة وخذوا ما فى أيدى الناس من ذلك . وكتب إلى كل ملك فى الدنيا يأمره أن يجمع ما فى بلاده من جوهرها ويحفر معادنها ، فجمعوا ذلك فى عشر سنين ، وكان عدد الملوك مائتين وستين ملكا وخرج الفَعَلة فتبددوا فى الصحارى فوقعوا على صحراء عظيمة نقية من الجبال والتلال فإذاهم بعيون مطردة فقالوا : صفة التى أُمرنا بها . فأخذوا بقدر الذى أمرهم من الطول والعرض وأجروا قنوات الأنهار ووضعوا الأساس وأرسلت إليهم الملوك بالزبرجد والياقوت والذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وأقاموا فى ذلك ثلاثمائة سنة ، وكان عمرُ شداد تسعمائة سنة فلما أتوه فأخبروه بفراغهم منها قال : انطلقوا فاجعلوا عليها حِصْنا واجعلوا حول الحصن ألف قصر عند كل قصر ألف عَلَم يكون فى كل قصر وزير من وزرائى . ففعلوا ثم أخبروه فأمر ألف وزير من خاصته ومن يثق به أن يتهيأوا للنقلة إلى إرم ذات العماد وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجهاز فأقاموا فى جهازهم عشر سنين ثم سار بمن أراد فلما بلغ إلى مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى

أصحابه وعلى من كان معه صيحةً من السماء فأهلكتهم جميعا ولم يدخل إرم ولا أحد ممن كان معه ولم يُقْدَر على أحد منهم حتى الساعة (١) .

وروى الشَّعْبى عن دَغْفل الشيبانى عن علماء حمير قالوا : لما هلك شدَّاد بن عاد ومن معه من الصيحة ملك بعده ابنه ابن شداد وقد كان أبوه خلَّفه بحضرموت على ملكه وسلطانه فأمر بحمل أبيه من تلك المغارة إلى حضرموت وأمر فحفرت له حَفِيرة فى مغارة فاستودعه فيها على سرير من ذهب وألقى عليه سبعين حُلَّة منسوجة بقضبان الذهب ووضع عند رأسه لوحاً عظيما من ذهب وكتب عليه :

اعتبر بى أيها المغْ رُورُ بالعُمر المديدِ
أنا شدَّاد عادٍ صاحب الحِصْن العميدِ
وأخو القوة والبأ ساء والمُلك المشيدِ
دان أهلُ الأرض لى من خوف وعيدِى
وملكت الشرق والغر ب بسلطان شديد
وبفضل الملك والعُدّ ةِ فيه والعديد
فأتى هودٌ وكنا فى ضلالٍ قبل هودِ
فدعانا لوقبلنـــا ه فى الأمر الشديدِ
فعصينـــاه ونادىِ تُ ألاهل من مَجِيد
فأتتنا صيحة تهـــ وى من الأفق البعيد
فتوافَيْنـــا كزرع وسَفَا بَيْدا حَصيدِ (٢)

---

(١) مثل هذه الأخبار عن كعب ووهب لا قيمة لها من الناحية التاريخية أو الدينية فهى صنع خيال تستهويه العجائب ، وليست نقلا عن ثقة ولا وصفا لمشاهد .

(٢) السفا : كل شجر له شوك . والبيداء : الصحراء .

قوله تعالى

« وثمود الذين جابُوا الصخرَ بالواد »

قطعوه ونقبوه « وفرعون ذى الأوتاد » فيه ستة أقوال : أحدها : أنه كانَ يعذِّب الناس بأربعة أوتاد يشدهم فيها ثم يرفع صخرة فتلقى على الإنسان فتَشْدَخه . قاله ابن عباس . والثانى : أن المعنى : ذو البناء المحكم . قاله الضحاك . والثالث : أن المراد بالأوتاد الجنود ، كانوا يشدون مُلْكه . وهذه الأقوال الثلاثة عن ابن عباس . والرابع : أنه كان يبنى مناراً يذبح عليها الناس . والخامس : أنه كان له أربع أسطوانات يأخذ الرجل فيمدّ كل قائمة منه إلى أسطوانة فيعذبه . روى القولان عن سعيد بن جُبَير . والسادس : أنه كانت له أوتاد وأرْسان وملاعب يلعب به عليها . قاله عطاء وقتادة .

قوله تعالى : « الذين طَغَوا فى البلاد » يعنى عادا وثمودا وفرعون عملوا بالمعاصى وتجبَّروا على أنبياء الله تعالى فأكثروا فيها الفساد بالقتل والمعاصى .

« فصبَّ عليهم ربُّك سوط عذاب » قال ابن قتيبة : إنما قال : سوط عذاب لأن التعذيب قد يكون بالسَّوْط . وقال الزجاج جعل سوطه الذى ضربهم به العذاب .

« إنّ ربَّك لَبالمرصادِ » أى يرصد من كفَر به بالعذاب . قال الأزهرى : المرصاد المكان الذى يجد فيه الراصدُ العدوَّ

سجع على قوله تعالى

« إنّ ربَّك لبالمرصاد »

أين من أصبح بلذاته مغتبطا ، أمْسَى فى ممَاته مُغْتَبطا ، أين من كان أمْره فُرطا ، نَدِم إذ ارتكب غلطا ، أين من سلك سبيلا شَطَطا ، نزل لحدًا ما فيه وِطَا ، وجاء الملَكان فأفزَعا وأفْرَطا ، وافتضَح بقبيحه وانكشف الغطا .

مابين يَوْم المُهينات وبين يوم المُغريات
إذا تأملت بعيداً إلا كما بين ها وهاتِ

قل للمشغولين بالفساد الواقفين مع العناد : إلى متى ظُلْم العباد ، كم مُسْتَلب مانال المراد « إنّ ربك لَبالمرصاد » .

أمَا عادَ العذابُ على عاد ؟ أما أمْرَض وما عاد ، أين من ادّعى الربوبية أو كاد ؟ كاده الجبّار فيمن كاد « إن ربك لبالمرصاد » . بيناهم فى ظلم المظالم سُلب على أقبح فعله الظالم ، فبات يَقْرع سِنَّ نادم ولكن لمّا عثَر الجواد . أُخِذ والله فى مَضيقه . وأغصَّه الموت بريقه ، وبقى متحيِّرا فى طريقه لا ماء ولا زاد . كأنك بك قد بلغت النَّبْوة ، وصرعت صرعةً تعجزك الأَوْبة . وقمت تَعَرض يومئذ سِلَع التوبة ولكن وقت الكساد ، فلا تغتر بمالك وقَصْرك ، ولا تَعْجَب بنَهْيك وأمرك ، ياطائر الهوى ستؤخذ من وَكْرك ومَا تُعْجز الصيّاد ، « إنّ ربّك لَبالمرصاد »

من لك إذا سئلت عن خلقك وجوزيت بأقبح عملك ، تالله إن تُبْت من ذلك فكل عَشْرك أعياد .

كم أرشدك إلى رَشادك وأنت على فسادك ، كم أدعوك إلى إسعادك وأنت مع سُعَادك ، ضُرب بوقُ رحليك وما اهتممت بزادك ، أنا فى وادٍ وأنت فى واد . لقد بالغتُ لك فى النصائح وقمت مُنْذِراً عُقْبى القبائح ، والطريقُ واضح والعَلَم لائح ، « ومن يُضْلل الله فماله من هاد » والحمد لله وحده .

المجلس الحادى عشر
فى ذكر يوم عرفة

الحمد لله الذى لهيْبة عظمته تحرّك الساكن وارتجّ ، ولعظيم قدرته التطمت أمواج البحر وثجّ[(١)] ، ومن يسير بلائه استغاث الشديدُ الصبرِ وضجّ ، وإلى كثير عطائه قطع قاصدوه العميق الفَجّ[(٢)] ، الذى أظهر فى شهْركم هذا من دماء القرابين السفح والشجّ ، وأحبَّ من أكثر الدعاء فيه وألحّ ولجّ ، وسمّاه ذا الحِجة وشرَع فيه إلى بيته الحج ، الذى استدعى من شاء إلى زيارة بيته العَتيق ، وحرّك عَزْم القاصد وأعانه بالتوفيق ، وسهّل للسالكين إلى حرَمه مُسْتوعر الطريق ، ووعَد الطائعين القبولَ وهو بإنجاز الوعد خَليق ، وأزْعَج قاصديه عن مساكنهم وأخرجهم من أماكنهم بالتشويق ، فرضوا من أهلهم وفريقهم بالبعاد والتفريق ، وسارت بهم الأيْنق[(٣)] عن الرَّبع الأنيق ، وجدّت بهم النجائبُ من كل بلدٍ سَحِيق ، فأقبلوا بين ماشٍ على قدميه استَنْشاه يقينُ الصّديق «وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كل فَجٍّ عَميق » .

أحمده حمد موقن آمن به وعَرفه ، وأشكره على إدراك ذى الحجة ويوم عرَفة ، وأشهد له بنفى المثل فى الذات والصِّفة ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالرحمة وبالرأفة وصَفه ، صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبه أبى بكر الصديق الذى حالفه وما خالَفه ، وعلى عمر الذى رفض الدنيا أنفَة ، وعلى عثمان الذى جهّز جيش العُسْرة وأسْعفه ، وعلى عليٍّ الذى ما أشكل عِلْم إلا وكشفه ، وعلى عمه العباس الذى عظّم الله بيته وشرّفه .

عبادَ الله : إن يومكم هذا يومٌ قد عظم الله أمره ورفع على الأيام قَدْره .

وقد روينا أن الله تعالى أقسم به فقال : « و الشَّفْعِ والوَتْرِ » [(٤)] فذكرنا عن النبى

---

(١) ثج : سال . (٢) الفج : الطريق الواسع .
(٣) الأينق : جمع ناقة . (٤) سورة الفجر .

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الشفعُ يوم النحر والوتر يوم عرفة » وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى قوله تعالى : «وشاهدٍ ومشهود»(١) قال : الشاهد والمشهود يوم عرفة .

ومن فضائله أن الله عز وجل أنزل فيه : « اليومَ أكملتُ لكم دِينكم »(٢) .

أخبرنا هِبَة الله بن محمد بسنده عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر رضى الله عنه فقال : ياأمير المؤمنين إنكم تقرءون آية فى كتابكم لوعلينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عِيداً . قال : وأىّ آية هى ؟ قال : قوله تعالى : « اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممْتُ عليكم نِعْمتى ورضيت لكم الإسلام دِيناً » قال : فقال عمر رضى الله عنه : والله إنى لأعلم اليومَ الذى نزلتْ فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التى نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلمْ، نزلت عشيةَ عرفة يوم جُمعة » .

أخرجاه فى الصحيحين(٣) .

ومن فضائله أن الله تعالى يباهى بالحاج فيه ملائكته ويعم بالغفران .

أخبرنا سعد الخيْر بن محمد ، عن يونس بن يوسف ، عن ابن المسيب ، قال : قالت عائشة رضى الله عنها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مامن يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليَدْنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء .

انفرد بإخراجه مسلم(٤) .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بسنده عن أبى الزبير عن جابر قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم عرفة ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بهم الملائكة فيقول : انظروا إلى عبادى أتونى شُعْثا غُبْرا من كل فج عميق ، أشهدكم أنى

(١) سورة البروج (٢) سورة المائدة
(٣) صحيح البخارى ٣/١٠٣ (كتاب التفسير) وصحيح مسلم كتاب التفسير حديث رقم ٥ .
(٤) صحيح مسلم كتاب الحج حديث رقم ٤٣٦ وأخرجه أيضاً ابن ماجه كتاب المناسك باب الدعاء بعرفة .

قد غفرت لهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما من يوم أكثر عتيقا من يوم عرفة »[١] .

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ بسنده عن أيوب عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عَشِيّة عرفة ينزل الله عز وجل فيه إلى السماء الدنيا فيقول الله تعالى للملائكة : انظروا إلى عبادي هؤلاء شُعْثا غُبْرا جاءوني من كل فَجّ عميق ضاجّين يسألوني[٢] رحمتي ولم يروني ويتعوّذون بي من عذابي ولم يروني . فلم ير يوم أكثر عَتِيقا ولا عتيقة منه ، ولا يغفر الله فيه لمختال[٣] »

أخبرنا إسماعيل بن أحمد ، قال أخبرنا أبو الغنائم بن أبي عثمان بسنده عن الصباح ابن موسى ، عن أبي داود الشَّعْبي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يبقى أحدٌ يوم عرفة في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا غُفر له . فقال رجل : لأهل معرّف[٤] يارسول الله أم للناس عامة ؟ قال : لا بل للناس عامة .

فأما ثواب صائميه فأخبرنا ابن الحصين بسنده عن عبد الله بن معبد عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم يوم عرفة فقال : « كفارة سنتين » .

وأخبرناه عاليا عبد الرحمن الأنماطي بسنده عن عبدالله بن مَعْبد عن أبي قتادة أن رجلا قال : يارسول الله أرأيت صيام يوم عرفة ؟ قال أحتسب على الله أن يكفِّر السنة الماضية والباقية .

انفرد بإخراجه مسلم[٥] . وفي لفظ : إني أحتسب على الله أن يكفِّر السنة التي قبله والسنة التي بعده »

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/٢٢٤ ، ٣٠٥ . والطبراني في الصغير والكبير . ورجال أحمد موثقون . مجمع الزوائد ٣/٢٥٢ .

(٢) الرواية في مجمع الزوائد : ولم يروا رحمتي ولم يروا عذابي .

(٣) رواه أبو يعلى بنحوه وفيه محمد بن مروان العقيلي وثقه ابن معين وابن حبان وفيه بعض كلام وبقية رجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٣/٢٥٣ . (٤) كذا في ت . وفي ب : لأهل معروف . ومعرف : الموقف بعرفات (٥) صحيح مسلم كتاب الصوم حديث رقم ١٩٦

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن حماد بن سلمة عن عطاء الخراسانى أن عبد الرحمن ابن أبى بكر دخل على عائشة رضى الله عنها يوم عرفة وهى صائمة والماء يرشُّ عليها فقال لها عبد الرحمن : أفطرى . فقالت أفطر وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن صوم يوم عرفة يكفِّر العام الذى قبله»(١) .

واعلم أن صومه مستحب لغير الحاج . فأما الحاج فلا يستحب له صومه ليتقوى على الدعاء ولكونه ضَيْفا لله تعالى .

فأما ما يختص بالذكر فيه فمنه التكبير عقيب الصلوات المفروضات فابتداؤه فى حق المحلّ : صلاة الفجر يوم عرفة . وفى حق المحْرِم صلاة الظهر من يوم النحر ، ويجتمعان فى صلاة العصر آخر أيام التشريق . وصفة التكبير شَفْع : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

ومن الأذكار ما أخبرنا به أبو الفتح ابن أبى القاسم بسنده عن حمّاد بن أبى حميد ، عن عمران بن شُعَيْب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خَيْر الدعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير(٢) » .

وقد رويت صلاة ليوم عرفة ليس فيها شىء يصح ولا يثبت فلذلك تنكَّبْناها .

وكان ابن عمر رضى الله عنهما يُحْيى ليلة النَّحْر وقد ذكرنا فى فضل إحيائها حديثا فيما تقدم .

***

(١) رواه أحمد . وعطاء لم يسمع من عائشة ، بل قال ابن معين : لاأعلمه لقى أحداً من أصحاب النبى صل الله عليه وسلم . مجمع الزوائد ٣/١٨٩ .

(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه كتاب الدعوات باب فى دعاء يوم عرفة . قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وحماد بن أبى حميد هو محمد بن أبى حميد وهو أبو إبراهيم الأنصارى المدنى وليس بالقوى عند أهل الحديث . صحيح الترمذى ٢/٢٧٨ (ط الأميرية)

واعلموا أن يوم النحر يوم عظيم قال صلى الله عليه وسلم : « أفضل الأيام عند الله عز وجل يوم النحر ثم يوم النَّفْر[١] » .

وقد سبق ذكر آداب العيد وما يُفعل فى يوم النحر : أن لا يأكل حتى يفرغ من الصلاة وأن يضحى من أمكنه .

وفى حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الأضحية « إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نَفْسًا» [٢] .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : بكل شعرة حسنة . وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضى الله عنها : « قومى إلى أضْحيتك فاشهديها فإن لك بكل قطرة من دمها أن يغفر الله لك ما سلَف من ذنوبك . فقيل له : هذا لآل محمد خاصة ؟ قال بل هى لآل محمد وللناس عامة »[٣] .

أنبأنا أحمد بن على بن المجلّى بسنده عن عيسى بن على بن عيسى بن داود بن الجراح ، قال قرئ على أبى القاسم بن زيد وأنا أسمع قيل له : حدثكم عمرو بن النضر الغزال ، عن عصمة ، عن أبى جعفر أنه قال « أولُ قطرة من دم الأضحية كفارة لأربعة آلاف خطيئة » .

ومن شرف يوم النحر أن الله سبحانه وتعالى ابتلى به الخليل بذبح ولده . وقد ذكرنا القصة فى أول الكتاب .

الكلام على البسملة

لك فى المشيب أكْبَر الوعظ لو ... فكَّرتَ يامُعْرضا عن الوعظ صَفْحَا
أهْدَت الأربعون منـــه إلى لَيْـ ... ـل عِذَارَيْك والمفـــارق صُبْحَا

(١) أخرجه أبو داود . ويوم النفر هو اليوم الثاني من أيام التشريق .
(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه وابن ماجه فى كتاب الأضاحى .
(٣) رواه البزار وفيه عطية بن قيس وفيه كلام كثير ، وقد وثق . مجمع الزوائد ١٧/٤ .

عاد فَوْداك والذوائبُ والعا رض فَجْرا من بعد ما كُنَّ جُنْحا[١]
وهَب الشيبُ قَوْسه لك واعتا ض على الكَرّة من شِطَاطك[٢] رُمْحا
عَملُ المرء كالتجارة عند المو ت يَرى خُسْرانها والرِّبحا
فلحَى اللهُ مَعْشراً لايرون الذَّ مَّ ذَمًّا لهم ولا المدائح مَدْحا
كلُّ ذى غفلةٍ تراه بخيلا بحُطام الدنيا وبالدين سَمْحا
بات من جهله وأضحى يظن الـ عيد فِطْرا يأتى عليه وأضْحَى
كذَّبته الظنونُ ما العيد إلا لامرئٍ آمِنٍ من النار لَفْحا

***

لله در أقوام أعيادهم قبولُ الأعمال ، ومرادهم أشرف الآمال ، وأحوالهم تجرى على كمال ، وحِلَاهم التُّقَى وياله من جَمال .

أنبأنا زاهر بن طاهر بسنده عن محمد بن يوسف بن عبد الله قال : سمعت أبا ثابت الخطاب يقول : رأيت فتحا الموصلى فى يوم عيد أضحى وقد شمَّ ريح العِنَاز[٣] فدخل إلى زقاق فسمعته يقول : تقرَّب المتقربون بقربانهم وأنا أتقرَّب بطُول حُزنى ، يا محبوبا كم تتركنى فى أزقّة الدنيا محزونا . ثم غُشِىَ عليه وحُمل فدفناه بعد ثلاث .

أين من ضحَّى بشهوات نفسه فأمات حظها ، أين من حثَّها على لحاق السلف الصالح وحَضّها ، أين من خوَّفها حسابها وحذَّرها عَرْضها ، أين من قطَع من طول المجاهدة طُولَها وعَرْضها ، وأين من أدرك من مقامات المقبولين ولو بعضها ، أين من أعْمَل عزائم الوفاء وأهْمَل هِمَم الجفاء وقصَد نَقْضها ، يامن يُسَرّ بعيد وقد تعدَّى الحدود ، أترضى أن تحشر فتتحسَّر لفوات المقصود . لقد أسمعتْك المواعظُ من إرشادها نُصْحا ، وأخبرك الشيبُ أنك بالموت تُقْصَد وتُنْحَى ، وشرَح الزمانُ حالَ من شرح قبلك شرحاً . أين من فرح بعيد

(١) جنحا : سودا . والجنح من الليل : الطائفة منه . (٢) الشطاط : الطول وحسن القوام واعتداله .
(٣) فى ت : فشم ريح اللحم حين دخل فى بعض الأزقة . وفى ب : ريح القتار . والعناز : جمع عنز . (التبصرة ٢/١٠)

الفطر وعيد الأضحى ؟ أما تزوّد الحنوطَ من العطر وفى القبر أضحى « ياأيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدْحا » .

***

جمعوا لينتفعوا فلما أن دعَوْا أموالَهم حينَ الردَى لم تَنفَعِ
واستدفعوا بالمال كلَّ مضَرة حتى أتى الأمرُ العزيزُ المَدْفَعِ
وكأنهم لم يعلمـــوا أن الذى جمعوا بمَرْأًى للخُطوب ومَسْمعِ
هتف الحِمَام بكل حَىٍّ منهمُ فأجابه مُسْتـكرَها كالطيِّعِ
وأرامُ فى مَضْجـــع وأتامُ من مَطْلع وسَقامُ من مَـكْرَعِ

يامن كلما جُذب عن لهوه رسَب ، هذا بَرِيد الموت لك فى الطلَب ، بادِرْ قبل الفَوات فالزمان ينْتهب ، وانتظر سَلْب الدهر ما وهَب[1] ، أين الجامع المانع للذهب ؟ ذهَب ، أين مُخاصِم الأقدار قل لى من غلَب ؟ أتاه الفاجع فاقترب وما ارتقب ، وأبْرَزه من قصْره ولطالَما احتجَب ، يا مُعْرضا عنا عناك التعب ، يا هاجرا لنا إلى كم ذا الغضب ، يا مُضْغة باعَاقَة خِدْمتنا نَسَب ، يامؤْثرا غيرنا بعت الدُّرَّ بالخشب ، أمَا يسوقك إلى الخير مايشوق ؟ أمَا يعوقك عن الضَّيْر ما يعوق ؟ متى ترجع حُرًّا يا مَرْقوق ، متى تصير سابقًا يامسبوق ، إياك والهوى فـكم قتل عاشقا معشوق ، أولُ الهوى سَهْل ثم تتخرق الخروق ، كلما حُصد نباته بمِنْجل الصبر أخرجت العروق ، إن لَذَّ شربه فى الفم فشربه شَجاً فى الحُلوق ، وإنما لذّات الدنيا مثل خَطْف البروق، ميِّز بين ما يفنى وما يبقى تر الفروق ، خَلِّ خِلَّ التوانى إن أردت أن تفوق ، تالله مانصحك إلا مُحبّ أو صدوق .

ستعلم أيها العاصى ما أتيت ، وستدرى يوم الحساب من عصيت ، وستبكى دماً لقُبْح ما جنَيْت ، كأنك بالموت قد جاء فانتهيت[2] وارعَوْيت ، وتذكَّرت تلك الخطايا فتعست

(١) الأصل : وهب وهب . ولعل الصواب ماأثبتناه .
(٢) ت : فانتبهت .

وبكت ، وأخْلِي منك البيتَ شئت أو أبيت ، وصحت بلسان الأسف : «رب ارجعونى» ونيت ، انهض ياحياً تادرا قبل أن تسمَّى باسم ميت ، ويحك تأمل أمرك وافتح عينيك ، ويحك كم نُعبى[1] من الذنوب عليك ، إن سهام الموت قد فوَّقت إليك ، اقبل نصحى وقم نادما على قدميك ، وأحسنها أرضَ عرفة وقل لبيك اللهم لبيك .

الكلام على قوله تعالى
« وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا[2] »

قال المفسرون : لما فرغ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بناء البيت أمره الله تعالى أن يؤذِّن فى الناس بالحج فقال إبراهيم : يارب وماَيبْلغ صوتى ؟ قال : أذِّن وعلىّ البلاغ. فعلا أبا قُبَيْس[3] وقال : يا أيها الناس إن ربَّكم قد بنى بيتا فحُجُّوه . فأسمعَ من أصْلاب الرجال وأرحام النساء ممن سبق فى علم الله عز وجل أن يحج فأجابوه : لبَّيك اللهم لبيك .

وقوله : « رجالا » أى مُشاة . وقد حج إبراهيم وإسماعيل ما شيَيْن ، وحج الحسن ابن على عليهما السلام خمسا وعشرين حجةً ماشيا والنجائب تُقَاد معه . وحج أحمد بن حنبل رضى الله عنه ماشيا مرتين .

سجع على قوله تعالى
« وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا »

أمر الله نبيه الخليل بعد بناء بيته الجليل أن ينادى عبيده إلى الفضل الجزيل ، ليحطّ عنهم مولاهم كلَّ وِزْر ثقيل ، فقال سبحانه وتعالى «وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رِجَالا». يا إبراهيم نادِهم ليحصل نَفْعهم فى مَعادهم ، وأزْعجهم بندائك من بلادهم وأخرجهم

---

(١) كذا فى ت . وفى ب : كم تعبى . (٢) سورة الحج ٢٧ (٣) أبو قبيس : جبل بمكة .

عن أهلهم وأولادهم فليقصدوا بابى مسْرعين عِجَالا « وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رِجَالا » .

ياغافلا عنِّى أنا الداعِى ، يامتخلفا عن زيارتى أنا ألْقَى الساعى ، يا مشغولا عن قصدى لو عرفتَ اطّلاعى ، أنا أقمْتُ خَليلى يدعو إلى سبيلى ، وأقبلت بتنويلى على محبِّى إقبالا « وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا » .

لله دَرّ أقوام فارقوا ديارهم وعانقوا افتقارهم ، وآثروا غبارهم وطهَّروا أسرارهم ، يَدْعون عند البيت قريبا سميعا ، ويقفون بين يديه بالذل جميعا ، ويسعون فى مَرَاضيه سعيا سريعا ، وقد ودَّعوا مطلوب شهواتهم توديعا ، فأفادهم مولاهم أنْ رَجَعهم كيوم أخرجهم أطفالا .

هجروا الكَدَر وهاجروا إلى الصَّفَا ، وقصدوا المروة بعد أن أمُّوا الصَّفَا ، وحَذِروا الردَّ وخافوا الجفا ، وتعلقت آمالهم بمن هو حسبهم وكفى .

نادِ زُوَّارى أنا أدعوهمْ نحو بيتى لينالوا شَرَفَا
فهمْ وَفْدى إذا مانزلوا بحَرِيمى إذ دنَوْا مُزْدَلفَا
ولهم عندى مزيدٌ ولهم من نَوالى ما أحبُّوا طُرَفَا
فارقوا أوطانهم إذ قصدوا نحو بابى يَطْلبون الزُّلفَى
فلهم منِّىَ مهما أمَّلوا سلَفاً يَنْمى ويُنْشِى[1] خَلَفَا

قد أحْرَم القومُ عن الحلال فأَحْرِموا أنتم عن الحرام ، منعوا أنفسهم من الطِّيب فاحذروا أنتم جِيفةَ الهوى ، ياحُسْنهم وقد نزَعوا المَخِيط ونَزَعوا عن التضييع والتفريط ، وملأوا بالتضرع البسيط ، فارقوا لأجل مولاهم أولادهم ، وأعْرَوا عن رقيقِ الثياب له

(١) كذا فى ت . وفى ب : ويثنى .

أجسادَهم ، وتركوا فى مَرَاضيه محبوبهم ومُرادهم ، فأصبحوا قد أعطاهم مولاهم وأمْنَوا وقد أفادهم .

استَنْعاهم إليه فاجتهدوا وجَدُّوا ، وتزوّدوا التقوى فى طريقهم واستعدوا ، وأتعبوا الأعضاء فى خدمته وكَدُّوا ، وطرقوا بأنامل الرجاء بابَ اللَّجَأ فما رُدُّوا ، ناداهم وهم فى الأصلاب والأرحام ، واستصلحهم لزيارة بيته الحرام ، وأكرمهم بالغفران فيا نعم الإكرام ، ورَحِم شَعَثَ الرءوس وغُبار الأقدام، وأنتم إن بَعُدْتم عن ذلك المقام فقد شاركتموهم فى الإيمان والإسلام ، فارغبوا بالتضرّع إلى المليك العلام ، فإنه معروف بالفضل موصوف بالإنعام .

***

ذكر عن مالك بن أنس رحمه الله تعالى قال : صحبت جعفر الصادق رضى الله عنه فلما أراد أن يلبّى تغيَّر وجهه وارتعدت فرائصه فقلت : مالك يا بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : أردت أن ألبّى . قلت : فما يوقفك ؟ قال : أخاف أن أسمع غير الجواب !

وقف مُطَرِّف(١) وبكر ابنا عبد الله فقال مُطَرف : اللهم لاتردَّهم من أجْلِي . وقال بكر : ما أشرفه من مقام لو لا أنى فيهم !

وروى عن الفُضَيْل بن عِيَاض أنه وقف بعرفة والناس يدعون وهو يبكى بكاء الثكلى المحترقة ، فلما كادت الشمس أن تسقط قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : واسوأتاه منك وإن عَفوْت !

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن على بن هزارمرد الصوفى قال:سمعت ابن محبوب تلميذ أبى الأديان يقول : ما رأيت خائفا إلا رجلا واحدا ، كنت بالموقف فرأيت شابا مُطْرقا منذ وقف الناس إلى أن سقط القُرْص(٢) ، فقلت له : ياهذا ابسط يدك للدعاء فقال لى : ثَمّ وَحْشة . فقلت له : فهذا يوم العفو عن الذنوب . قال فبسط يده ووقع ميتا .

---

(١) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير ، تابعى .   (٢) سقط القرص : غابت الشمس .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن أبى بكر محمد بن دواد الدِّينَورى قال : سمعت أبا عبد الله بن الجلّاء يقول : كنت بذى الحليفة وشاب يريد أن يُحْرِم ، فكان يقول : يارب أريد أن أقول لبيك اللهم لبيك فأخشى أن تجيبنى بلا لبَّيك ولا سَعْديك . يردِّد ذلك مرارا ، ثم قال : اللهم لبَّيْك . مَدَّ بها صوته وخرجت روحه . رحمة الله عليه .

وقال سَرِىّ(١) : لقيت فى طريق الحج حبشية فقلت : إلى أين ؟ قالت : الحج . قلت : الطريق بعيد . فقالت :

بعيدٌ على كَسْلان أو ذِى مَلَالة فأما على المشتاق فهو قريبُ(٢)

ثم قالت : ياسرىّ إنهم يرَوْنه بعيدا ونراه قريبا . فلما وصلت البيتَ رأيتها تطوف كالفتى الشاطر ؛ فنظرت إليها فقالت : ياسرىّ أنا تلك العبدة لما جئته بضعفى حَملنى بقوّته .

لما حجَّ الشِّبْلى وأشرف على جدران مكة قال :

أبُطْحَان مكة هذا الذى أراه عِياناً وهذا أنا !

ثم غُشى عليه ، فلما أفاق قال :

هذه دارهُمْ وأنت مُحِبٌّ ما بقاء الدموع فى الآماقِ

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمى ، وحدثنا عنه ابن ناصر ، قال أخبرنا أحمد بن على بن ثابت بسنده عن الحسين بن عبد الرحمن قال : حج سعيد بن وهب ماشيا فبلغ منه وجَهد فقال :

قدَمَىَّ اعتوَرَا رَمْل الكثيب واطرقا الآجِنَ من ماء القَليبِ(١)

رُبَّ يومٍ رُحْتما فيـــــه على زَهْرة الدنيـــا وفى وادٍ خصيبِ

وسماعٍ حَسَنٍ من حسَنٍ صَخِب المِزْهَر كالظَّبى الرَّبيبِ

---

(١) هو أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى ، صوفى بغدادى المولد والوفاة توفى سنة ٢٥١ هـ .
(٢) ت : فأما على المشتاق غير بعيد .
(٣) اعتورا : تداولاه فى المشى . والآجن : الآسن . والقليب : البئر .

فاحسبا ذاك بهـذا واصـبرا وخُذا من كل فَنٍّ بنصيبِ
إنمـــا أمشِى لأنى مُذْنب فلعل الله يعفو عن ذنوبى[١]

كأنى الآن بالمحامل تئنّ، وبالزَّوامل[٢] تحنّ، وبالمطىّ تُرْزِم[٣]، وبالجفون تُسْجِم[٤]، والشوقُ إلى البيت قد عَمل عملَه، والمؤمِّل يلاحظ أمله :

ولى أنَّة الشاكى وإنْ بَعُدَ[٥] المدى ما بَيْننا وتنفُّسُ المكروبِ

***

قوله تعالى

« وعلى كل ضامرٍ »

أى رُكْبانا على ضُمْر من السفر. نجائب تحمل الأحباب، صَوَابر على الإنضاء والإتعاب، تَرْفل بالزائرين إلى رب الأرباب، ادّخرتُ لهم التحف والبشائر، ونظرت إلى صبرهم على فراق العشائر، ودعوتهم إلى نيل الأمل[٦] الوافر، ورحمت شَعَث الشَّعِث وغُبَار المسافر، وكتبت فى حسناتهم خطوات كل ذى خُفّ وحافر، وأربحت تجارة كل واردٍ نحوى وصادر، وأعَدْتهم إلى مَنَازلهم وما فيهم خاسر، فنادهم : « يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ».

قوله تعالى

« يأتين من كل فَجّ عميق »

يأتين : فعل للنوق[٧]. وقرأ الأعمش وابن أبى عَبْلة «يأتون» على أنه فعل للرجال. والفج العميق : المكان البعيد.

صبروا على مشاق الطريق بين هبوط وصعود ومضيق، واحتملوا لأجل خُلق الرفيق،

---

(١) روى ابن الجوزى هذه الأبيات فى ذم الهوى ص ٥٢ (٢) الزوامل : جمع زاملة وهى التى يحمل عليها من الإبل وغيرها. (٣) ترزم : تحن. (٤) تسجم : تسيل دموعها. (٥) ت : وهد بعد. (٦) ت : الأمر. (٧) كذا فى ت. وفى ب : فعل النوق.

ورضوا من فريقهم بالبعاد والتفريق ، وحُدِيتْ بهم المطايا من كل بلد سحيق ، وجانَبوا مايشين وصاحَبوا ما يليق ، وصابروا ظمأ الشفاء وقلة الريق ، فلأسقينّهم يوم لقائى من السلسبيل والرحيق ، فنادهم « يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

***

قوله تعالى

« ليشهدوا منافع لهم »

وهى ربح التجارة فى الدنيا والثواب فى الأخرى .

سبحان من إلى بيته حَملهم وبفِنائه أنزلهم وإلى حَرَمه أوصلهم ، وبإخلاص قَصْده جَمّلهم ، فلقد جمع الخيرَ الجمَّ لهم « ليشهدوا منافع لهم » .

حرَّكهم بتوفيقه فثاروا ، واستدعاهم إلى بيته فساروا ، وأوصلهم إلى حَرَمه فزاروا ، فياحُسْنهم فى الطواف إذا سعَوْا وداروا ، واجتمعوا بالآمال حول البيت واستداروا ، فضافَهم من أضافهم إلى الأحباب وأنزلهم « ليشهدوا منافع لهم » .

يا كثرة ما أعطاهم من العطايا ، يا شرَف ما أنالهم من الهدايا ، فلقد تلقّاهم بالجود والتحايا ، وحَطَّ عنهم من الذنوب والخطايا ما أثقلهم . أتعبهم المشى وأزعجهم المركوب ، وكان ذلك هيِّنا فى قُرْب المحبوب فأنعم عليهم بكل مطلوب ، وقابلهم بالعفو عن الذنوب وقَبِلهم . تعلقوا بذيل رحمتى ولطفى ، وسألونى مودتى وعطفى ، واشتغلوا بى دون غيرى ويكفى « فلا تعلم نفسٌ ما أُخْفى لهم » .

إخوانى : إن لم نَصِل إلى ديارهم فلنصل انكسارنا بانكسارهم ، إن لم نَقْدر على عرفات فلنستدرك ما قد فات ، إن لم نصِلْ إلى الحِجْر فَلْيَلِنْ كلُّ قلبٍ حَجَر ، إن لم نَقْدر على ليلة جَمْع ومنى فلنقم بمأتم الأسف هاهنا . أين المنيب الأوّاب أين الجدّ السابق ، هذا

يومٌ يُرْحم فيه الصادق . هذا أوان يطَّلع فيه الخالق ، يامؤملا مثله قد لا يوافق ، من لم يُنبْ فى هذا اليوم فمتى ينيب ، ومن لم يجب فى هذا الوقت فمتى يجيب ، ومن لم يتعرَّف بالتوبة فهو غريب ، ومن لم يُقرَّ بالعفو فماله من نصيب ، أسفاً لعبدٍ لم يُغفر له اليوم ماجنَى ، كلما همَّ بخير نقض الطَّرْد ما بنَى ، حضَر مواسم الأرباح فما حصَّل خيرا ولا اقتنى ، ودخل بساتين الفَلَاح فما مَدَّ كفاً ولا جَنَى ، ليت شعرى من منّا خاب ومن منا نال المنى .
فياإخوانى : إن فاتنا نزول مِنًى ، فلننزل دموع الحسرات هاهنا . وكيف لا نبكى ولا ندرى ماذا يُراد بنا ، وكيف بالسكون وما نعلم ما عنده لنا :

فلذا الموقفِ أعْدَدْنا البكا ولذا اليوم الدموعْ تُقْتَنَى

اللهم إنا نقف لك على الأقدام كقيام القاصدين البيت الحرام ، يا غافر الذنوب اغفر ذنوبنا ، يا ستار العيوب استر عيوبنا ، يا كاشف الكروب اكشف كروبنا ، يا منتهى الآمال بلِّغنا مطلوبنا . برحمتك يا أرحم الراحمين .

الطبقة الثالثة

تشتمل على ذكر خلق ابن آدم والأرض والسماوات

فيها ثلاثة مجالس

المجلس الأول

يذكر فيه خَلْق ابن آدم

الحمد لله الخالق بقدرته مادَبَّ ودرج ، الفاتق بصنعته ماالتأم وارتتج ، الراتق بحكمته ما افترق وانفرج ، الدالّ على وحدانيتــه بالبراهين والحجج ، أنشأ الأبدانَ من النُّطَف وحفِظ فيها الُمهَج ، ونوَّر العيون فأحسن فى تركيبها الدَّعَج[١] ، وأنطق اللسان فأبان سُبل المراد ونهج ، وعلَّم الإنسان البيــان فإذا خاصَم فَلج[٢] ، بقدرته سكن المتحرك فما زال ولا اختاج ، ولهيبته تحرَّك السا كن فتغيَّر وانزعج ، طوى اللطفَ فى تكاليف الخلائق ودَرج « وما جعل عليـكم فى الدين من حَرج » خلَق البحرين هذا عذبٌ فُرَات وهذا مِلْح أجاج ومَرج ، واستخرج بدائــع الودائع من بواطن اللُّجَج ، وعَلِم ماظهر فى الأرض ورأى ما فيها وَلج ، بَصِير يرى جَريان الدماء فى باطن الودَج ، سميع يدرك بسمعه صوت البا كى إذا نَشَج ، لا يَخْفى على بصره فى سواد الليـل سوادُ الشَّبج[٣] ولا يَعْزب عن سمعه أنين المدْنَف[٤] يرجو الفرَج ، أنزل كلاما قديما من وَرد بحرَه ارتوى وابتهج ، قرآنا عربيا غير ذى عِوَج . أحمده حمد من جمــع المحامد فى حمده ودرج ، وأشهد أنه العظيم القَدْر الرفيع الدَّرَج ، وأصلى على رسوله محمد الذى إلى قاب قوسين عَرج ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق الذى لا يبغضه إلا الرَّعاع الهمج ، وعلى عمر الذى يفوح من ذِكْره أذ كَى الأرَج ، وعلى عثمان الذى جمع الإنفاق إلى الصِّهر فازدوج ، وعلى علىّ الُمجْمَع على حبه فإن خرج شخصٌ من الإجماع خرج ، وعلى عمه العباس الذى افتخر به بيتُ الخلافة وابتهج .

***

(١) الدعج : سواد العين مع سعتها . (٢) فلج : غلب وظفر .
(٣) الشبج : صدر القطا . ويضرب به المثل فى الخفاء فيقال : أخفى من القطا .
(٤) المدنف : المريض الثقيل المرض .

قال الله تعالى : « ولقد خلَقْنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طين »[١]

المراد بالإنسان هاهنا آدم عليه السلام . والسُّلاَلة فُعَالة ، وهى القليل ممّا يُسلُّ ، فاستُلَّ من كل الأرض . وقد روى أبو موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه أنه قال : إن الله خلَق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض وقد ذكرنا قصة آدم عليه السلام فى أول الكتاب[٢] .

قوله تعالى : « ثم جعلناه نطفةً » يعنى ابن آدم . والمراد بالنطفة المنىّ « فى قَرار » يعنى الرحم « مَكين » أى حَريز قد هُيِّئَ لاستقراره فيه .

قوله تعالى : « ثم خلَقْنا النُّطْفة عَلَقةً » والعلقة دمٌ عَبيط[٣] جامد . وسميت عَلَقة لتعلّقها بما تمرُّ به ، فإذا جفّت فليست عَلَقة . والمُضْغَة لَحْمة صغيرة ، وسميت بذلك لأنها بقدر ما يُمْضَغ .

« فخلقنا المضغة عِظاما فكَسَوْنا العظامَ لَحْما ثم أنشأناه خَلْقاً آخَر » . وفى محل هذا الإنشاء قولان : أحدهما : بطن الأم . ثم صفة الإنشاء فيه قولان : أحدهما : نفخ الروح . رواه عطاء عن ابن عباس وبه قال أبو العالية والشَّعْبى[٤] . والقول الثانى : أنه بعدخروجه من بطن أمه .

ثم فى صفة هذا الإنشاء أربعة أقوال : أحدها : أن ابتداء ذلك الإنشاء أنه استهل ثم دُلَّ على الثَّدْى وتقلَّب من حال إلى حال . رواه عطية عن ابن عباس . والثانى : أنه استواء الشَّباب . قاله ابن عمر . والثالث : خروج الأسنان والشعر . قاله الضحاك . والرابع : إعطاء العقل والفهم . حكاه الثعلبى .

« فتبارَكَ اللهُ » أى تعالى ورَفُع « أحْسَنُ الخالِقين » أى المصوِّرين والمقدِّرين .

أخبرنا هبة الله بن محمد ، أنبأنا الحسن بن على التميمى ، أنبأنا أحمد بن جعفر ،

---

(١) سورة المؤمنون ١٢ . (٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص١٤ (٣) العبيط : الطرى .
(٤) كذا ، ولم يذكر القول الثانى فى صفة هذا الإنشاء .

حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يُجْمع خَلْقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون عَلَقة مثلَ ذلك ، ثم يكون مُضْغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملَك فينفخ فيه الروح ويُؤمر بأربع كلمات : رزقه وأجَله وعمله وشقىّ أم سعيد . فو الذى لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهلِ الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

أخرجاه فى الصحيحين[1] .

وفى أفراد مسلم من حديث حذيفة بن أُسَيْد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مَرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملَكا فصوّرها وخلَق سمعها وبصَرها وجلْدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى فيَقْضى ربك ماشاء ، ويكتب الملَك . ثم يقول : يارب رزقه ؟ فيقضى ربك ماشاء ، ويكتب الملَك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده فلا يزيد على ما أُمِر ولا يَنْقُص »[2] .

***

قال علماء المتطبّبين : أول الأحوال الحادثة فى المنى أن يكون له زبد ثم يوجد النفخ مندفعا إلى وسط الرطوبة إعداداً لمكان القلب ، ثم تتميز الأعضاء ويتنحى بعضها عن مماسّة بعض ويحيط بالجنين ثلاثة أغشية : غشاء تُنْسج فيه العروق ، وغشاء ينصبّ فيه[3] بَوْل الجنين ، وغشاء يجمع الرطوبة التى تَرْشح من الجنين .

وللرأس أربعة عظام : [ثلاثة] كالجدران وواحد كالقاعدة ، وجعلت هذه الجدران أصْلب من اليافوخ لأن السقطات والصدمات عليها أكثر ويخف القحف لمعنيين : أحدهما لئلا يَثْقُل على الدماغ . والثانى لينفذ منه البخار .

---

(١) صحيح البخارى كتاب التوحيد باب ٢٨ وأول كتاب القدر وصحيح مسلم كتاب القدر حديث رقم ١ ومسند أحمد ١٩٧/٥ (٢) صحيح مسلم كتاب القدر حديث رقم ٣ (٣) ب : إليه .

ومن العظام ماهو أساس للبدن كفقار الصُّلب يُبنى عليه كما يبنى السقف على الخشبة الأولى ، ومنها كالمِجَنّ كالقحف فإنه جُنَّة للدماغ من الآفات. وخُلق جوهر الدماغ باردا رطباً ليناً دسماً . فأما بَرْده فلأمرين : أحدهما تعديل الحرارة التى تَنْفذ إليه من القلب . والثانى : لئلا يحترق لكثرة ما يتأدّى إليه من حركات الروح فى التخيّل والفكر [والتفكر والذكر][1] . وهذه القوى الثلاث مسكنها الدماغ فموضع التخيّل البطنان المقدّمان من بطون الدماغ ، وموضع الفكر البطن الأوسط ، وموضع الحفظ المؤخَّر من بطون الدماغ . وأما رطوبته ولينه فلئلا تُجففِّه الحركات ، وأما خَلْقه دسما فليكون ماينبت فيه[2] من العصب ليِّنا .

وقد جُلِّل الدماغ بغشاءين : أحدهما رقيق يليه والآخر صفيق يلى العظم . وإنما خلقا ليكونا حاجزين بين الدماغ والعظم .

وأما العين فإنما جعلتا اثنتين ليتكونا إذا عرضت لإحداهما آفة قامت الأخرى بالبصر . وكل عين مركبة من عشرة أجزاء وهى سبع طبقات وثلاث رطوبات ، والطبقات كقشور البصل إن أصابت بعضها آفة نابت الأخرى . والرطوبات يقع[3] النظر بالوسطى وهى صافية منيرة . والرطوبتان[4] من جانبيها ، فواحدة موضوعة خلفها تقرب من طبيعتها تتناول الغذاء أو تقلبه إلى طبعها فتتناول منه الرطوبة المُبصرة . والرطوبة الثانية تُندِّى المبصرة لئلا تجفّ . وخُلق الهُدْب ليدفع مايطير إلى العين وليعدِّل الضوء بسواده .

وأما الأذن فجعل لها صدف مُعرّج[5] ليجمع الصوت . وخلق الأنف لينحصر فيه الهواء فيعتدل فى حلوله[6] قبل أن يَنْفذ إلى الدماغ والرئة ، ثم هو سِتْر للفضلات المنحدرة . واللسان آلة لتقايب الممضوغ وتقطيع الصوت فى إخراج[7] الحروف وإليه تمييز الذوق .

(١) س ا . (٢) ا : منه . (٣) كذا فى ب . وفى ا : نفع . (٤) ا : والرطوبات .
(٥) ب : معوج . (٦) ا ب : فى طوله . (٧) ا : فى آخر الحروف .

والشفتان غطاء للفم والأسنان ومحبسا لِلّعاب ومُعينا على الكلام وجَمالا .

واللَّهاة : جوهر لَحْمى معلّق على أعلى الحنجرة ومنفعته تدريج الهواء لئلا يَقْرَع[١] ببرده الرئة فجأة . ولِيمنع الدخان والغبار كأنه باب مُوصَد على مخرج الصوت بقَدْره .

والأسنان اثنان وثلاثون سِنًّا ، فمنها ثَنِيَّتان من فوق وثنيتان من تحت ورَبَاعِيَتان من فوق ورباعيتان من تحت ، ونابان من فوق ونابان من تحت ، ثم الأضراس وهى عشرون من كل جانب من الفم خمسة ، فمنها الضَّوَاحك وهى أربعة أضراس تلى الأنياب إلى جنب كل ناب من أسفل الفم وأعلاه ضاحك ، ثم بعد الضواحك الطواحن ويقال لها الأرحاء وهى اثنا عشر طاحنا من كل جانب من الفم واحد من فوق وواحد من أسفل ، فالأنياب للكسر والرباعيات للقطع والأضراس للطحن .

وخرَز[٢] العنق سَبْع وفَقَار الصَّدْر إحدى عشرة فَقْرة والصدر مؤلَّف من سبعة أعظم ، والساعد مؤلَّف من عظمين متلاصقين يسميان الزَّنْدَيْن والفوقانى الذى يلى الإبهام أدق والسفلانى أغلظ لأنه حامل .

وعظام الأصابع غير مجوَّفة لتكون أقوى على الثبات فى الحركة[٣] والقبض ، وطال بعضها لتستوى عند القبض . والظفر سَند للأنملة وآلة للحكّ والتنقية .

والصُّلْب مَسْلك النخاع ، والمعدة تَهْضِم بحرارة فى لحمها وبحرارة[٤] أخرى مكتسبة من الأجسام المجاورة ، والطحال مُنْفرش تحتها من اليسار وهو وعاء لبعض فضلاتها . وللكبد عرقان أحدهما يجذب إليها الطعام فيطبخه ويوجهه فى العِرْق الآخر إلى البدن ويبعث الماء منه[٥] إلى الكليتين والرغوة الصفراوية إلى المرارة والرسوب السوداوى إلى الطحال .

والقلب مخلوق من لحم قوى ليكون أبعد من الآفات ،وقد أُميل يسيراً إلى اليسار

---

(١) ب : يفزع. (٢) ب : وجوز العنق . (٣) ا : فى الحركات
(٤) ا : وبحرارات أخر . (٥) ب : ويبعث المائية .

ليبعد عن الكبد ، وله زائدتان كالأذنين فيهما كخزانتين يقبلان النسيم ويرسلانه إلى القلب بقدر .

والمرارة كيس معلق من الكبد إلى ناحية المعدة تجذب الخلط الغليظ والمرار الأصفر[١] فينقى الكبد عن الفضول ويسخنها ، ولولا أن المرارة تجذب المرة الصفراء لسرت إلى البدن مع الدم فتولد منها اليرقان الأصفر فهى تجذبه وتقذف منه جزءا إلى المعى فيغسل ما فيها من الأثفال بلذعه وتحريكه لها ، وجزءا إلى المعدة ليعينها بحرارته على الهضم .

وجميع عظام البدن بعدد أيام السنة يظهر منها للحس مائتان وخمسة وستون والباقية صغار تسمى السمسمانية .

وقد روى مسلم فى أفراده من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خُلق كلُّ إنسان من بنى آدم على ستين وثلاث مائة مَفْصل ، فمن كبَّر الله وحمِد الله وهلَّل الله وسبَّح الله واستغفر الله وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظما ، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة ، فإنه يمشى حينئذ وقد زحزح نفسه عن النار[٢] » .

وعصَل البدن خمسمائة وتسعٌ وعشرون عضلة .

والمرارة بيت الصفراء والرئة بيت البلغم والطحال بيت السوداء والمثانة بيت البرودة والكلى بيت الشهوة والقلب بيت النفس .

وفى بعض هذا ما يحرك الفكر[٣] فيوجب العلم بعظمة الخالق سبحانه فيحث على امتثال أمره واجتناب نواهيه .

وقد كان بعض العلماء فى مركب فهاج[٤] البحر فأخرج كتاب التشريح ونشره نحو السماء كالمستشفع به ، فأنكر قومٌ ذلك فقال بعض العلماء : كأن يقول : يامن هذا من آثار حكمته وصنعته اكشف عنا !

---

(١) أ : الأصفرى . (٢) صحيح مسلم كتاب الزكاة حديث رقم ٥٤ . (٣) أ : التفكر .
(٤) أ : فثار .

الكلام على السمر

لا تَرْقُدنَّ لعينــك السَّهرُ   وانظر إلى ما تصنع الغِيَرُ[١]
انظر إلى عِــبَر مصرَّفة   ما دام يمــكن طَرْفَكَ النظرُ
مازِلْت تسمع أو ترى عِبَرا   إن لَمْ يخُنك السمعُ والبصَرُ
فإذا جَهِلْتَ ولم تجدْ أحــداً   فسَلِ الزمانَ فعنده الخبَرُ
وإذا نظرت تريد مُعْتَبرا   فانظر إليك ففيك مُعْتَبرُ
أنت الذى تُمْسى وتصبح فى الـ   دنيــا وكل أموره غَررُ
أنت المصرَّف كان فى صِغَر   ثم استقلَّ بشخصِه الكِبَرُ
أنت الذى تَنْعــاه خِلْقَتُه   يَنْعاه منــه الشَّعْر والبشَرُ
أنت الذى تُعْطَى وتُسْلَب لا   يُنْجيه من أن يُسْلَب الحــذَرُ
أنت الذى لا شىء منــه له   وأحقُّ منك بمالكَ القــدَرُ
والحادثات صُروفها عَجبٌ   والعيش فيه الصَّفْو والكَدرُ
يَبْغِى بنو الدنيــا عِمارتَها   ولَيَخْرَبنَّ جميعُ ما عَمَروا
عجباً من الدنيا ومن عبر الد   نيــا وكيف تصرَّف الغِيَرُ
ما زِلْت مُذ صُوِّرتَ فى سَفَر   وستنقضِى وسينقضى السَّفَرُ
يا من يؤمِّل أنت منتظر   أملا يطول ولست تنتظرُ
ماذا تقول وأنت فى غُصَص   ماذا تقول وأنت مُحْتَضرُ
ماذا تقول وقد وضِعْت على   ظَهْر السرير وأنت تُبْتَدرُ
ماذا تقول وأنت فى جَدَثٍ   ماذا تقول وفوقك المدَرُ

---

(١) أ : العبر .

ماذا تقول وقد لحقت بما[١] يجرى عليه الرِّيحُ والمَطَرُ
نبْنى البقاء ولا بقاء لنا تتَعاور الرّوَحاتُ والبكَرُ
كم قد عفَتْ عينٌ لها أثَرٌ درَستْ ويَدْرُس بعدَها الأثَرُ

***

الدنيا مَعْبر فاقنع باليسير ، وليكن همّك فى الرحيل والمسير ، كم من جامع لها فرّقته ومن مُحب لها أهلكته ومزّقته ، من قنع بالبُلْغة فيها سَلِم ، ومن أكثر منها أسِف وندِم .

عليك بتقوى الله واقْنع برزقِه فخيرُ عِبـاد الله من هو قانِعُ
ولا تُهْلك[٢] الدنيا ولاطَمعٌ لها فقد يُهلِكُ المغرورَ فيها المطامِعُ
صبراً على نَوْبات ما ناب واعترفْ فما يستوى حُرٌّ صَبُورٌ وجازعٌ[٣]
أعاذلُ ما يُغْنى الثراء عن الفتى إذا حَشْرجت بالنفس منه الأضالِعُ

مرّ أبو حازم رحمه الله عليه بجزار فقال : يا أبا حازم خذ من هذا اللحم . فقال : ليس معى درهم . فقال : أنا أُنظرك . فقال : أنا أُنْظر نفسى .

وقال بكر بن عبد الله : يكفيك من الدنيا ما قنعت به .

كان ابن السَّماك رحمه الله يقول :

إنى أرى من له قُنوعٌ يَعْـدلُ من نالَ ما تمنّى
والرزقُ يأتِى بلا عناء وربما فات من تَعَنّى

كان وهب بن مُنبِّه يعظ عطاء الخراسانى ويقول له : ألم أُخْبَر أنك تأتى الملوك وتحمل علمك إليهم ؟ ياعطاء ارضَ بالدُّون من الدنيا مع الحكمة ولا تَرْض بالدون من الحكمة مع الدنيا ، ويحك ياعطاء إن كان يُغْنيك ما يكفيك فإن أدْنى ما فى الدنيا يكفيك ، وإن

(١) أ : بمن . (٢) كذا بالأصل . (٣) الأصل : بجازع .

كان لا يُغْنيك ما يكفيك فليس من الدنيا شيء يكفيك .

نَصِف القُنوعَ وأيُّنا يَقْنَعْ أو أيُّنا يرضَى بما يَجْمَعْ
لله دَرّ ذوى القناعة ما أصْفَى معاشَهمُ وما أوسَعْ
من كان يبغى أن يلذّ وأن تُهْدَى جوارحُه فما يَطْمَعْ
فَقْر النفوس بقدر حاجتها وغِنَى النفوس بقدر ما تَقْنَعْ

عَرِىَ أُوَيْس رحمة الله عليه حتى جلس فى قَوْصَرة . وقدِم بشر الحافى من عبادان ليلًا وهو مُتَّزر بحصير . وكان أبو معاوية الأسود يلتقط الخِرَق من المزابل ويغسلها ويلفقها فيقال له : إنك تُكسى خيرا من هذا فيقول : ما ضَرّهم ما أصابهم فى الدنيا جبَر الله تعالى لهم بالجنة كلَّ مصيبة[1] .

وأُتى إبراهيم بن أدهم بستين ألفا فردّها وقال : كرهت أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء .

***

رأت عُدّتى فاسترائَتْ[2] رَحِيلى سَبِيلك إنّ سواها سَبِيلى
تَرَجَّى قُفولى لها فى الثَّوِىّ[3] لعلّ المنية قبل القُفولِ
لقد قذفَتْ بِىَ صَعْبَ المرامِ واستجملتْ لِىَ غيرَ الجميلِ
سأَقْنَى[4] العفافَ وأرضىَ الكَفافَ وليس غِنَى النفس جَوْر الخليلِ
ولا أتصدَّى لمدح الجواد ولا أستعدّ لمدح البخيل
وأعلم أن ثياب الرجاء تُحِلُّ العزيزَ محلَّ الذليلِ
وأن ليس مُسْتغنيا بالكثير من ليس مُسْتغنيا بالقليل

***

(١) ينبغى منهم هذه النصوص على وجهها ، فهى دعوة إلى الزهد فى الحرام ، ولا ينبغى أن تتخذ ذريعة إلى تحريم الطيبات . (٢) استرائث : استبطأت . (٣) الثوى : مكان الثواء وهو الإقامة .
(٤) أقنى : أحفظ وألزم .

كتب حكيم إلى أخ له : أما بعد فاجعل القُنوع ذُخْرا ولا تعجل على ثمرة لم تُدْرِك ، فإنك تدركها فى أوانها عَذْبة ، والمدبِّر لك أعْلَم بالوقت الذى يصلح لما تؤمِّل فثِقْ بخيرته لك فى أمورك كلها .

أخبرنا محمد بن عمر الفقيه بسنده عن يحيى بن عروة بن أُذَيْنة قال : لما أتى أبى وجماعة من الشعراء هشام بن عبد الملك فأنشدوه فلما عرف أبى قال : ألست القائل :

لقد علمتُ وما الإسراف من خُلُقى أنّ الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى له فيعنّينى تطلُّبه ولو قعدتُ أتانى لا يُعَنّينى

فهلّا جلستَ فى بيتك حتى يأتيك ؟ فسكت أبى ولم يجبه فلما خرجوا من عنده جلس أبى على راحلته حتى أتى المدينة وأمر هشام بجوائزهم فقعد أبى فسأل عنه فلما خُبِّر بانصرافه قال : لاجرم والله لَيَعْلمن أن ذلك سيأتيه . ثم أَضْعَف له ما أعطى واحدا من أصحابه وكتب له فريضتين .

إذا ضَنّ من ترجو عليك بنفعه فدَعْه فإنّ الرزق فى الأرض واسعُ
ومن كانت الدنيا مُنَاه وهَمَّه سبَاه المُنَى واستعبدته المطامعُ
ومن عَقَل استَحْيَى وأكرمَ نفسه ومن قَنع استَغْنى فهل أنت قانعُ

الكلام على قوله تعالى

« ثم إنكم بعد ذلك لميتون »

يامن هو على محبة الدنيا مُتَهالك ، أمَا علمت أنك عن قليل هالك ، أما تيقنت أن الدنيا محبوب تارك ، ثم لست لها بعد العلم بها بتارك ، قدِّر أنك ملَكْت الممالك ، أمَا الأخير سَلْبك من أهلك ومالك ، هذا حسام الموت مَسْلول ، ليس بكالّ ولا مَفْلول ، وكلُّ دم أراقه مَطْلول ، أذلّ والله أصعب الحُمْس[1] وفَتك قَبْرا بالأسْود الشُمْس[2] ، وفلّ

(١) الحمس : جمع أحمس وهو الشديد الصلب فى القتال . (٢) الشمس : جمع أشمس وهو القوى الشديد .

السيفَ ولم يُفَلّ بالتُّرْس ، وساوَى فى القبر بين الزَّنْج والفُرْس ، وأعاد الفصحاء تحت البلاء كالخُرس ، ومحا بالتَّرَح أثر الفَرح بالعُرس :

يَغْدو ابنُ آدم للمعاش فيلـ ـقاه الحِمَام بأَضيق الطُّرقِ

لا يَبْهَجن بمُلْكه مَلِك فالبَدْر غايتُه إلى المَحْقِ

أين الوالدون وما ولدوا ، أين الجبارون وأين ما قصدوا ، أين أرباب المعاصى على ماذا وردوا ، أمَا جنَوْا ثمراتِ ما جنوا وحصَدوا ، أمَا قَدِموا على أعمالهم فى مآلهم ووَفَدُوا ، أما خَلَوا فى ظلمات القبور ؟ بكوا والله وانفردوا ، أما ذلوا وقلُّوا بعد أن عَتَوا ومَرَدُوا ، أمَا طلبوا زادا يكفى فى طريقهم ففقدوا ، أما حلَّ الموتُ فَحلَّ عَقْد ما عقَدوا ، عاينوا والله كلَّ ما قَدَّموا ووجدوا ، فمنهم أقوامٌ شَقُوا وأقوامٌ سَعِدوا :

لا والدٌ خالدٌ ولا ولَدُ كلٌّ جليد يَخُونه الجَلَدُ[1]

كأن أهلَ القبور لم يسكنوا الدُّ ورَ ولم يَحْيَ منهمُ أحـدُ

ولم يـكونوا إلا كهيئتهم لم يولَدوا قَبْلها ولم يَلِدوا

[يامن نَعَى من مضى كذاك غداً تُنْعَى ، فبادْر فقد أتاك غَدُ][2]

يا ناسيَ الموت وهو يذكره مالك[3] بالموت إذ أتاك يَدُ

دارُك دارٌ يموت ساكنُها دارك يُبْلِي جديدَها الأَبَدُ

تبـكى على من مضى وأنت غدا يوردك الموتُ فى الذى وردُوا

لو كنت تدرى ماذا يريد بك الـ ـمَوْت لأبـكى جفونَك السُّهدُ

***

أين الذى ملـكوا ونالوا ؟ زالوا ، وستئول إلى ما إليه آلوا ، هذا مصيرنا يا معاشر

(١) الأبيات لأبى العتاهية انظر ديوانه ص ٥٨ . (٢) لم يرد هذا البيت فى الديوان .

(٣) الديوان : هل لك بالموت إن أتاك . .

الغافلين ، واللحود بيوتنا بعد الترف واللين، والقيامة تجمعنا وتُنْصَب الموازين ، والأهوال عظيمة فأين المتفكِّر الحزين « إنما تُوعدون لآتٍ وما أنتم بمُعْجِزين » .

يارهين الآفات والمصائب، ياأسير الطارقات النوائب ، إياك وإيّا الآمالِ الكواذب، فالدنيا دارٌ ولكن ليست بصاحب ، أمَا أرتك فى فعلها العجائب فيمن مشى فى المشارق والمغارب ، ثم أرتك فيك شَيْب الذوائب ، إنّ سهام الموت لَصوائب، لا يردها محارب ولا يفوتها هارب ، تدبّ إلينا دَبيب العقارب ، بَيْنا نسمع صوت مِزْهر صارصوتَ نادب ، يا أسير حب الدنيا إن قتَلتْك مَنْ تطالب ، كأنك بك قد بتّ فرحا مسرورا فأصبحت تَرِحا مَثْبورا ، وتُرِك مالك لغيرك موفورا ، وخرج من يدك فصار للكُلّ شُورى ، وعاينتَ ما فعلت فى الكتاب مسطورا ، وعلمت أنك كنت فى الهوى مغرورا، واستحالت صَبا الصِّباَ فعادت دَبُورا ، وأُسْكنت لحداً تصير فيه مأسورا ، ونزلت جَدَثا خَربا إذ تركت قصرا معمورا ، ودخلت فى خبر كان « وكان أمر الله قَدَرا مقدورا » .

وما هذه الدنيا بدار إقامة ... فيَحْزن فيها القاطنُ المترحِّلُ
هى الدار إلا أنها كمفازَة ... أناخَ بها ركبٌ وركبٌ تحمَّلُوا
وإنا لمن مَرَّ الجديدين فى الوغَى ... إذا مرَّ منها جَحْفل كَرَّ جَحْفَلُ
تجرِّد نَصْلًا والخلائقُ مِفْصَلٌ ... وتُنْبض سهماً والبريّة مَقْتَلُ
وما خَلْفَنا منها مفرٌّ لهاربٍ ... فكيف لمن رام النجاةَ التخيّلُ
وكلٌّ وإنْ طال الثَّواء مصيره ... إلى مَوْرِدٍ ما عنه للخَلْق مَعْدَلُ

الموت مُسْرِع مجدّ غير رائث ، والأموال عن قليل تمْضى للوارث ، وكأنك بوقوع الحادثات وحصادالحارث ، ياطويل الأمل هل قلبك لابث ، لاتسمعن الحالَ فلست بماكث ، يامطالبا بالجدّ وهو لاعب عابث ، يامعاهدا باللسان والعَزْم ناكث ، يامن أعماله إذا فتِّشت خبائث ، صَرَّح الشّيب وطال ما جَمْجَم[1] ووَضح فجره وما كان قد تبلّج ، أوضح طريق

(١) جمجم فى خبره : لم يبينه .

الحذَر وبيَّن المنهج،أين الشباب ؟ رحَل مُسرعا وهَمَاج(١)، إنّ نار الفراق فى القلب تتأجّج، إن فؤاد المتفكر يكاد أن ينضج ، هذه خيول الرحيل قد أقيمت تُسْرَج ، والشكوك قد أزيلت والحق أبْلَج ، هذا وأنت بالمعاصى مُغْرًى و تَلْهج ، لك كأس من المنون صِرْف لا يُمزَج، يامن هو فى الكفن عن قليل مُدْرَج ، يالابساً حُلة من البلاء لم تُنْسج، يا من بضاعته إذا نُقدت كلها بَهْرج ، ياسالكا طريقَ الهوى عَوْسَج(٢) ، كيف الطمع فى المرتجَى والباب مُرْتج ، يامن ضَيَّقت الذنوب خِناقه أين المخرج ، ياعظيم فَقْرك فى القبر من منك أَحْوج ، ما هذا الغرور أىّ مطمئن لم يُزعَج :

أَخْلَق الدهرُ الشبابَ الحسَنا ما أظن الوقتَ إلا قد دَنَا
قد قطَعْنا فى التصابى بُرْهةً وجرَرْنا فى الذنوب الرَّسَنَا
وركبنا غَيَّنــا جهلًا به فوجــدناه علينا لا لنَا
وشرَيْنا الدُّونَ بالدِّين فما عُذْرمن قــد باع بيعاً غَبِنَا

لقد بان السبيل ولاح المنهج ، فما للقلب عن الهدى قد عرَّج ، أمايُزْعجك الترهيب ؟ أما يَشُوقك الترغيب ؟ إلام تروغ عن النصح رَوغان الذِّيب ، وتلفَّت إلى أحاديث المنى الأكاذيب قف على باب « وإنْ كُنَّا لخاطئين » لتسمع : « لا تَثْرِيب » ، من التوفيق رَفْض التوانى ، ومن الخذلان مسامرة الأمانى .

إخوانى : نَذيركم قد صدَق ، والمجتهد قد سبَق ، وقد مضى نهارُ العمر وبقى الشفَق، وآخر جَرْعة اللذة شَرَق ، وصاحب الدنيا منها على فرَق . رب غُصْن ناضر كُسر إذا سبق ، رب زرع قامت سوقه رماه الغَرق . أين الرَّفيق ساقه سوَّاق مارفَق ، هذا وكلكم يدرى أين انطلق ، أمَا رأيتم مضجعه فى القبر بالحدَق ، واعجبا لقلب المتفكر كيف ما احترق ، أمَا شاهدتموه وقد تقطعت منه العُلَق(٣) ، وتقمَّص بعد عُرْيه جلبابَ الخوف

(١) هملج : أسرع فى جريه . (٢) العوسج : المعوج.
(٣) العلق : جمع علقة وهى مايتعلق به .

والفَرق ، وخرس لسانه وقد طال ما نطق :

فما تزوَّد مما كان يَجْمعه إلا حَنُوطا غداةَ البَيْن فى خِرَقِ

وغير نفخة أعوادٍ[1] يُشَبُّ له وقَلَّ ذلك من زادٍ لمُنطلِقِ

أيها المتيقظون وهم نائمون ، أتبنون مالا تَسْكنون وتجمعون مالا تأكلون ، كونوا كيف شئتم فستُنْقلون « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » . يامقيمين ستَرْحلون ، يامستقرين ماتُتْرَكون ، ياغا فلين عن الرحيل ستَظْعنون، أرا كم متوطِّنين تأمنون المنون « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » .

طول نهاركم تلعبون وطول ليلكم ترقدون ، والفرائض ما تؤدون ، وقد رضيتم عن الغالى بالدُّون ، لا تفعلوا ما تفعلون « ثم إنكم بعد ذلك لميِّتون » أمّا الأموال فتجمعون والحقَّ فيها ما تُخْرجون ، وأمّا الصلاة فتضيعون وإذا صليتم تَنقُرون . أترى هذا إلى كم يكون « ثم إنكم بعد ذلك لميِّتون » أين العتاة المتجبرون ، أين الفراعنة المتسلطون ، أين أهل الخيلاء المتكبرون ، قدِّروا أنكم صِرْتم كهم أما تسمعون ، « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » ما نفعتهم الحصون ولا رُدَّ المال المَصُون ، هبَّت زَعْزع الموت فكسَّرت الغصون ، قدِّروا أنكم تزيدون عليهم ولا تنقصون « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » تقلبوا من اللذات فى فنون ، وأخرجهم البطَر إلى الجنون ، فأتاهم ماهم عنه غافلون « كم تركوا من جنات وعيون « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » .

لو حصل لكم كلُّ ما تحبون ونما جميع ما تؤتون ، ونلتم من الأمانى ما تشتهون ، أينفعكم حين ترحلون ؟ « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » . إلى متى وحتى متى تُنصحَون وأنتم تكسبون الخطايا وتجترحون ، أأمنتم وأنتم تَسْرحون ذِئبَ هلاك فلا تبرحون.« ثم إنكم بعد ذلك لميتون »

---

(٢) الأعواد : الخشب .

لا تفرحوا بمـا تفرحون فإنه لغيركم حين تُطْرحون ، وإيّاكم مَنْ يراكم مِنْ بَراكم تمرحون ، قد خسرتم إلى الآن فمـا تربحون « ثم إنـكم بعد ذلك لميتون » .

ويحـكم الدنيـا دار ابتلاء وفُتون ، وقـد زجركم عنها المُفْتون ، وكم رأيتم من هالكٍ بهـا مفتون وكأنـكم بـكم قد حُملتم على المُتون ، كم أدلـكم على النظافة وتختارون الأَتُون .

المجلس الثانى
فى ذكر السموات وما فيهن

الحمد لله الذى رفع السموات مزيَّنة بزينة النجوم ، ومثبِّت الأرض بجبال فى أقاصى التُّخوم ، عالم الأشياء بعلمٍ واحد وإن تعدَّد المعلوم ، ومقدِّر المحبوب والمكروه والمحمود والمذموم ، لا ينفع مع مَنْعه سَعْى فكم مجتهِد محروم ، ولا يضر مع إعطائه عَجْز فكم عاجز وافر المقسوم ، اطلع على بواطن الأسرار وعلم خفايا المكتوم ، وسمع صوت المريض المدْنَف المحروم ، وأبْصر وَقْع القطر فى سحاب مركوم « وما نُنزله إلا بقدَر معلوم » .

جلَّ أن تحيط به الأفكار أو تتخيله الوهوم ، وتكلَّم فكلامه مَسْموع مقروء مَرْقوم[1] ، وقضَى فقضاؤه إذا شاء إنفاذه محتوم ، وبتقديره معصية العاصى وعصمة المعصوم ، « الله لا إله إلا هو الحىُّ القيُّوم » .

قضى على الأحياء بالممات ، فإذا بلغت الحلقوم فات المقصودُ المُرَام وعزَّ المطلوب المروم ، ونقل الآدمى عن جملة الوجود إلى حيِّز المعدوم وبقى أسير أرضه إلى يوم عَرْضه والقدوم ، فإذا حضر حسابه نُشر كتابه المختوم وجوزى على ما حواه المكتوب وجمعه المرقوم « وعنَت الوجوه للحىِّ القيُّوم » .

أحمده حمدا يتصل ويدوم ، وأشهد أنه خالق الأعيان والرسوم ، وأصلى على رسوله محمد صلاة تبلغه على المرُوم ، وعلى صاحبه أبى بكر الصِّديق على السائل والمحروم ، وعلى عمر المنتصف بين الظالم والمظلوم ، وعلى عثمان المتهجد إذا رقَد النَّؤوم ، وعلى علىّ الذى حاز الشرف والعُلوم ، وعلى عمه العباس سيد الأعمام على الخصوص والعموم .

قال الله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بَنَيناها وزيَّناها وما لها من فُروج[2] » .

---

(١) الأصل : موهوم . محرفة . (٢) سورة ق ٦ .

خلق الله عز وجل الماء فثار منه دخان فبنى منه السموات . قال قال أبو القاسم ابن أبي برة : السماء بيضاء لكن من بُعدها تُرَى خضراء . وقال الربيع بن أنس: السموات أولها مَوْج مَكفوف ، والثانية من صخرة ، والثالثة من حديد ، والرابعة من صُفْر أو نحاس ، والخامسة من فضة ، والسادسة من ذهب ، والسابعة من ياقوتة حمراء[١] .

وقال إياس بن معاوية : السما على الأرض مثل القُبّة .

وقال أبو الحسين ابن المنادِى : لا اختلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكُرَة فإنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدَوْر الكرة على قُطْبين ثابتين غير متحرِّكين ، أحدهما فى ناحية الشمال والآخر فى ناحية الجنوب . وكرة الأرض مبنية فى وسط كرة السماء كالنقطة من الدائرة .

وفى حديث العباس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : بينهما مَسِيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة[٢] » . وكَنَف كل سماء خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض .

قال العلماء : وكذلك الأرضون السبع فى كثافتها وبُعْد ما بين الواحدة والأخرى فذلك مسيرة أربع عشرة ألف سنة ، سِوَى ما تحت الأرض من الظُّلمة والنور وما فوق السموات من الحُجب والظلمة إلى العرش . وهذا على قَدْر مسير الآدمى الضعيف فأما لِلْمَلَك فإنه يَخْرِق ذلك فى ساعة واحدة .

وفى حديث حُذَيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل لما أبْرَم خَلْقه فلم يبق غير آدم خلق شمسين من نور عرشه ثم أرسل جبريل فأمَرَّ جناحه

(١) هذه أساطير لا وجه لها من الحق .

(٢) من حديث أخرجه الترمذى فى صحيحه كتاب التفسير، سورة الرحمن . قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

على وجه القمر ثلاث مرات فمحا عنه الضوء وبقى فيه النور[١] » .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشمس تذهب حتى تسجد بين يدى ربها عز وجل فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها[٢] » .

وأصغر النجوم بقدر الدنيا مرات . وفى السماء السابعة البيت المعمور يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك ثم لا يعودون إليه . وبَعْد السماء السابعة سِدْرة المنتَهى إليها ينتهى ما يَعْرج من الأرض فيُقبض منها ، وإليها ينتهى ما يُهْبَط به من فوقها فيُقْبض منها .

وبَعْد هذا الكرسى . قال صلى الله عليه وسلم : « ما السموات السبع فى الكرسىّ إلا كحَلْقة مُلْقاة فى أرض فَلَاة » ثم العرش وهو ياقوتة حمراء .

***

فأما الملائكة ففى أفراد مسلم من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خُلقت الملائكة من نور[٣] » .

ومن أعظم الملائكة خَلْقاً حملةُ العرش وعددهم اليوم أربعة أحدهم على صورة البشر قد وكِّل بالدعاء لنسل الآدمى ، والآخر على صورة النسر قد وكِّل بالدعاء لأجناس الطير ، والآخر على صورة الثور قد وكل بالدعاء للنسل البهيمى ، والآخر على صورة السبع قد وكل بالدعاء لأجناس السباع، فإذا جاءت القيامة زِيد فيهم أربعة[٤] .

أخبرنا عبد الأول بن عيسى ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُذن لى أن أحدِّث عن مَلَك من ملائكة الله من حَملة العرش

(١) هذا حديث موضوع ذكره فى اللآلئ المصنوعة ١/٥٦ . (٢) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق . وصحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٢٥٠ . والمقصود تصوير خضوعها لأمر الله وجريانها بقدره .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الزهد حديث رقم ٦٠ .

(٤) هذه إسرائيليات تسربت إلى أذهان المسلمين ، وقد ذكر أمية بن أبى الصلت فى شعره أن من الملائكة من هو على صورة ثور ومنهم من هو على صورة رجل ، وتلك أساطير لاقيمة لها .

ما بين شَحْمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة(١) » .

أخبرنا عبد الأول بسنده عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل أذِن لى أن أحدِّث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض وعنقه مثنية تحت العرش وهو يقول : سبحانك ما أعظمك ربنا ، قال فيردّ عليه ، ما يَعلم ذلك الذى يحلف بى كاذبا(٢) » .

وقال عبد الله بن سَلَام : لما خلَق الله عز وجل الملائكة واستووا على أقدامهم رفعوا رءوسهم إلى السماء فقالوا : ربنا مع من أنت ؟ قال : مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقه .

***

فأما أعمال الملائكة فجمهورهم مشغول بالتعبّد كما قال الله سبحانه وتعالى « يسبِّحون الليلَ والنهار لا يَفْتُرون(٣) » .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن مؤرِّق ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطَّت السماء وحقّ لها أن تئِط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه مَلك ساجد(٤) » .

ومن الملائكة موكَّل بعمل ، فمنهم حملة العرش قد وكِّلوا بحَمْله ، وجبريل صاحب الوحى والغلظة فهو ينزل بالوحى ويتولى إهلاك المكذِّبين، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة وإسرافيل صاحب اللوح والصُّور ، وعزرائيل قابض الأرواح وله أعوان وهؤلاء الأربعة هم المقسِّمات أمْراً . ومنهم كُتّاب على بنى آدم وهم المعقبات ، مَلَكان فى الليل وملكان فى النهار .

---

(١) أخرجه أبو داود . تيسير الوصول ٢/٢٨ . (٢) الذى أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن محمد بن العباس والحاكم فى المستدرك : إن الله عز وجل أذن لى أن أحدث عن ديك الخ وقال الحاكم: صحيح للاسناد .

(٣) سورة الأنبياء ٢٠ .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ٥/١٧٣ والترمذى فى صحيحه كتاب الزهد باب ٩ وابن ماجة فى الزهد باب ١٩ .

أخبرنا هِبَة الله بن محمد، أنبأنا الحسن بن على ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله ابن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن هَمَّام ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتُوا فيكم فيسألهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادى ؟ فقالوا تركناهم وهم يصلُّون وأتيناهم وهم يصلون » .

أخرجاه فى الصحيحين[١] .

ومنهم موكَّل بالشمس ، ومنهم موكل بالقَطْر ،والرعدُ صَوْت مَلك يزجر السحاب ، والبَرْق ضَرْبه إياه بمخاريق[٢] . ومنهم موكَّل بالرياح والأشجار . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس من شجرة تخرج إلا معها ملك موكَّل بها .

ومنهم ملائكة سيَّاحون فى الأرض يتتبعون مجالس الذِّكر ، وملائكة يبلِّغون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من أمته السلام ، وملائكة موكَّلون بمكة والمدينة ليمنعوا عنها الدجال إذا خرج .

ومن الملائكة من هو مشغول بغرس شجر الجنة .

قال الحسن : إنّ أحدهم ليَفْتر فيقال له : مالك ؟ فيقول : فتر صاحبىَ عن العمل . فكان الحسن يقول : أمِدُّوهم رحمكم الله .

وقال كعب : إن فى الجنة ملَكا يصوغ حِلْية أهل الجنة منذ يوم خُلق إلى أن تقوم الساعة !

أخبرنا محمد بن ناصر عن صفوان بن عمرو قال : سمعت خالدَ بن مَعْدَان يقول :

---

(١) صحيح البخارى ٢/١٧٣ (ط الأميرية) وصحيح مسلم كتاب الصلاة ومواضع المساجد ونصه : « يتعاقبون فيكم ملائكة حديث رقم ٢١٠ .

إن لله عز وجل ملائكة أربعة يسبحون تحت العرش يسبح بتسبيحهم أهل السموات ، يقول الملك الأول : سبحان ذى المُلْك والملكوت . ويقول الثانى : سبحان ذى العِزّة والجبروت ، ويقول الثالث : سبحان الحىّ الذى لايموت .

وقال هارون بن رئاب : حمَلة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت رَخِيم تقول أربعة : سبحانك وبحمدك على حِلْمك بعد عِلْمك وتقول الأربعة الأُخَر : سبحانك وبحمدك على عَفْوك بعد قُدْرتك .

وقال سعيد بن جبير : « أتى جبريلُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة ، وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة ، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة » . وقد روينا أن ملَكا نصفه من نار ونصفه من ثلج وهو يقول : يا من ألّف بين الثلج والنار فلا النار تذيب الثلج ولاالثلج يطفىء النار ، ألِّف بين عبادك المؤمنين(١) .

الكلام على البسملة

بينما المرء غافل إذ أتاه ... من يد الموت سالبٌ لا يُصَدُّ
فتأهَّبْ لما له كلُّ نفسٍ ... عُرْضة الأَسْر إنما الأمر جِدّ
خاب من كان همه هـذه الد ... نيا فأضحى من نيلها يستمدُّ
فجَناها إن أسعدت مُستْعار ... ليس من ردِّه لمن نالَ بُدُّ
كم أدالت من أهلها وأزالت ... ذا جلال من نعمة لا تُحَدّ
بدَّلته من طيب مَغْناه فقرا ... عادِماً ما حَوى ولم يُغْن جَـدُّ
أين من كان ناعم الوجه أضحى ... ما له من نهاية الحسن ضِدّ

(١) من حديث طويل موضوع ذكره السيوطى فى اللآلىء المصنوعة ١/٦٤ . قال ابن الجوزى : موضوع والمتهم به ميسرة كذاب وضاع .

قد محاه ثراه حين حَواه ووهَى مِعصم وكَفٌ وزندُ
وجفا أُنْسَه أخٌ كان برًّا وصديقٌ دانٍ وصَحْبٌ وجُنْدُ
واستوى فى البِلَى رئيس ومَرْ ءوس وأعْيَا بالأسْر حُرٌّ وعَبْدُ

***

ياغافلا قد طُلب ، يا مخاصما قد غُلب ، ياواثقا قد سُلب ، يا حازما قد خُلب كأنه به قد قُلب ، إياكَ والدنيا فما الدنيا بمأمونة ، وتزوَّد للسفر فلا بد من مؤونة ، إذا قدرت على الكمال فلا ترضَ دونه ، واصدُق فى أمرك تأتك المعونة ، أين المغرورون بغرورها أين المسرورون بسرورها؟ صاح بهم الموتُ فأجابوا ، واستحضرهم البلى فغابوا ، ظنوا بلوغ الآمال وتوهّموا ، واعتقدوا دوام السلامة فلم يَسْلَموا ، وأُعْلموا بالرحيل وكأنهم لم يعلموا ؛ وناولوا أنفسهم أعِنَّة الهوى وسلَّموا ، كم هتف بهم نذير الفراق فلم يفهموا ، فلما بلغوا منتهى الآجال ولم يظلموا ، خلَوا فى ألحادهم بما كانوا قدَّموا .

ولَسْنا بأبقى منهُمُ غير أننـــا أقمنا قليلًا بعـــدهم وتقدَّموا

***

أفتٍ لنفسٍ تُؤثر ما يَضِيرها ، ما ترعوى وقدمرّ نظيرها ، ماتُصْغى إلى المواعظ وقد قال نذيرها ، أمَا نهَاها لمّا علَاها قَتِيرها(١) ، أمَا لاح لبصر البصيرة مصيرها ، أما يرجع إلى العقول مستشيرها ، أتقدر على نفس إن تلفتْ تستعيرها ؟ قل لهذه النفس الجهولة فى فعلها ويحها إنما تسعى فى قتلها ، أمَالها عِبَر ممن كان قبلها ، كأنها بها تبكى على الأيام كلها ، إذا حانت المنية وبعثت بعضَ رسلها ، وعبثت يدُ القاطع بموصول حبلها ، وامتدت كفُّ الأجل إلى عُرَى الأمل تحلّها .

تساوَى الناسُ فى طُرق المنايا فما سَلِم الصريحُ ولا المجينُ
تدَيَّنا البقاء من الليـالى ومِنْ أرواحنا تُوفَى الديونُ

---

(١) القتير : الشيب ، أو أوله .

كأنا قد شككنا فى المنايا ... وعند جميعنا الخبرُ اليقينُ

***

إخوانى : تأمّلوا العواقب تأمُّل من يراقب ، وتفكروا فى النهاية فبين العقل ترى الغاية ، الموت قريبٌ أَمَم ، كم أهلك من أمم ، لقد ارتهن الذّم وتشبّث باللِّمَم ، فيامن ستَخْلَق منه الرِّمَم أسماع أم صَمَم ، من ارتحل بغير الطبع حَسُن وحَزُم ، من علم شرف المطلوب جَدَّ وعزَم ، إنما يكون الاجتهاد على قدر الهِمَم ، إنما ينافَس فى المطلوب على حسب القيم :

وحبٌّ دنياك طَبْع فى المقيم بها ... وقد مُنيتَ بقِرْن منه غَلّابِ
لما رأيت سجايا الدهر تُرْحِضنى(١) ... ردَدْت قَدْرى إلى صَبْرى فأغلَى بى
والعقل يَسْعى لنفسى فى مصالحها ... فما لطبعٍ إلى الآفات جذّاب
احذَرْ من الناس أدناهم وأبعدهم ... وإن لَقُوك بتبجيل وتَرْحابِ
كلَّمتُ باللَّحْن أهلَ اللحن أونسهم ... لأن عَبِيَ عند القوم إعرابى
عند الفراقد أسرارى مخبَّأة ... إذ لستُ أرضَى لآرابِى بآرابِ(٢)

***

أيها الشاب تدَبَّر أمرك فإنك فى زمن الربح ووقت البَذْر وإبان الفضائل ، احذر أن يخدعك العدوُّ عن نفيس هذا الجوهر فتُنْفقه بكفِّ التبذير ، تالله لئن فعلتَ لتغرسن بذلك شجرة الندامة فيتساقط عليك من كل فَنَن(٣) منها فنٌّ حسرة . واعرف قَدْر ما تؤمَّن به هذا الجوهر من الفضائل ، واحذر من اختلاس العدوّ له ، فصابِرْ فكأن قد انقضى الموسم .

---

(١) ترحضنى : تعنينى وتتعبنى . (٢) الفراقد جمع فرقد وهو النجم الذى يهتدى به . وآراب الأولى : جمع إرب وهو الحاجة وآراب الثانية جمع إرب أيضاً وهو العقل .
(٣) الفنن : الغصن .

واعلم أن الشيطان يُرَاصدك ليفتنك وقوةُ الطبع له عليك، والشباب شُعْبة من الجنون، فاكسر عاديةَ الهوى بوهن أسبابه .

وقال أبو موسى : طوبى لمن وقِى شرَّ شبابه . وقال أبو بكر ابن عيَّاش : وددتُ أنه صُفح لى عما كان فى الشباب وأن يدى قُطعت !

واعلم أنه لما كان جهاد الشباب ومخالفة الطبع صعباً صار الشابُّ التائب حبيب الله عز وجل .

إخوانى : من رأى التناهِى فى المبادِى سَلِم ، ومن لم يرَ العواقب شَغله ما هو فيه عمّا بين يديه .

يا هذا : أمَّا ما قد مضى من ذنوبك فليس فيه حيلة إلا التدارك ، فرب مُدْرِك لما فات ، الأسَى بالأسى . وأنا أضرب لك مثلا لتحذر فيما بعد جنسَ ما كان قبل : إذا راقت الحَلْواء لمحموم اعترك الهوى والعقل فالهوى ينظر إلى العاجل والعقل يتلمَّح العواقب ، فإن آثرَ مَشُورة العقل منَع نفسه عمّا تشتهى نظراً إلى ما إليه الصبر ينتهى ، فإذا زالت حُمَّاه تناول من غير أذى ما اشتهاه ، وإن اجتذبه رائق المشتهَى فأنساه المنتهَى تمتَّعَ يسيرا ببلوغ الغرض فزاد به ذلك المرض ، وربما ترقَّى إلى الموت ولا تَدارُكَ بعد الفَوْت. فياعجبا لمختار العاجل وهو يعلم ندَمه فى الآجل ، لقد ضيَّع موهبة العقل الذى به شرف الآدمى ، وزاحم البهائمَ فى مقام النظر إلى الحاضر .

الكلام على قوله تعالى
« وترى كلَّ أمةٍ جاثية »

الجاثية : الجالسة على الرُّكَب . والمعنى أنها غير مطمئنة ، والأقدام يوم القيامة مثل النَّبْل فى الجعبة ، والسعيد من يجد لقدميه موضعا .

قوله تعالى « كلُّ أمةٍ تُدْعَى إلى كِتَابِها » فيه قولان: أحدهما : كتاب حسناتها وسيئاتها. رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثانى : كتابها الذى أنزل على رسولها . ذكره الماوردى .

قال ابن مسعود : الأرض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها يرون أكوابها وكواعبها ، ويَعْرَق الرجل حتى يرشح عرقه فى الأرض قامةً ثم يرتفع إلى أنفه وما مسَّه الحساب بعد . قالوا : وممَّ ذاك ؟ قال : مما يرى الناسَ يُصنع بهم . قيل له : فأين المؤمنون ؟ قال : على كراسى قد ظُلِّل عليهم بالغمام ما طولُ ذلك اليوم عليهم إلا كساعة من نهار .

***

يا من قد ملأ كتابَه بالقبيح وهو عن قليل رهن الضريح ، ألا تمحو قُبح ما سطَّرت، هلّا تدبرت ما تُمْلى ونظرت ، لقد سوَّدْت الكتاب بالزلَل ، وأكثر ما دخَل المنطقَ الدَّخَل ، وحتَّام وإلام ؟ أَبَقِى شيء بعد وَهَن العظام ؟

يا دائما على هجره وإعراضه ، يا ساعيا فى هواه وأغراضه ، يامن قد أخذ بناء جسمه فى انتقاضه ، عليل الخطايا لا يزال فى إمراضه ، هذا عسكر الممات قد دنا بارتكاضه ، هذا بَرْق العتاب قد لجَّ بإيماضه ، كيف قدَر جَفْن العاصى على إغماضه ، كيف ينسى ما قد مات قِدْما من أبعاضه ، لو سمع صخرُ الفَلَاة لومَك أوذاق الألم من إمْضَاضِه، لعادت

جَلاميـدُ الفَلَا كرَضْرَاضه (١) ، يا من يعلم غلط عُذْره ووجه إدْحاضه ، يا ساعيا إلى ما يؤذِى برِكَاضه ، ياهاجرا نَصِيحه لَيته أبغض قبيحه كإبغاضه ، استقرَض المالكُ بعض مالِك وتقعد عن إقراضه ، لقـد أنذرك سهمُ الردى وقوعه قبل إنْباضه(٢) ، فأحَدَّ حَدَّ حديدته وأسنَّه(٣) بمقراضه :

بادرْ بمعروفك آفاتِه فبِنْية الدنيا على القُلْعَه(٤)

وازرع زروعاً يُرتضى ريعها يوماً فكلٌ حاصدٌ زَرْعَهْ

***

أفّ لعيش آخره الندامة ، آهٍ من سفرٍ نهايته بدايةُ القيامة .

إخوانى : هذا نذير الموت قد غدا يقول : الرحيلُ غدا ، كأنكم والله والأمر معا ، طوبى لمن سمع فوعَى ، كيف بكم إذا صاح إسرافيل فى الصُّور بالصُّوَر ، فخرجت تسعى من تحت المدَر ، وقد رُجَّت الأرض وبُسَّت الجبال ، وشخصت الأبصار لتلك الأهوال ، وطارت الصحائف فقَلِق الخائف وشاب الصِّغار ، وبان الصَّغَار ، وزفرت النار وأحاطت الأوزار، ونُصب الصراط وآلمت السِّيَاط، وحضر الحسابُ وقوِى العذاب ، وشهد الكِتاب وتقطعت الأسباب ، فكم من شيخ يقول : واشيبتاه ، وكم من كهل ينادى : واخيبتاه ، وكم من شاب يصيح : واشباباه ، بَرزت النارُ فأَحْرقت ، وزفرت غضباً فمزّقت، وتقطعت الأفئدة وتفرّقت ، وقامتْ ضوضاء الجدل ، وأحاط بصاحبه العمل ، والأحداقُ قد سالت والأعناق قد مالت ، والألوان قد حالت ، والمِحَن قد توالت ، أين عُدّتك لذلك الزمان، أين تصحيح اليقين والإيمان ، أترضى يومئذ بالخسران ؟ أمَا تعلم أنك كما تَدِينُ تُدان ؟

---

(١) الإمضاض : مصدر أمضه الأمر إذا أحزنه. والجلاميد : جمع جلمد وهو الصخر . والفلا: الصحراء . والرضراض : الحصى أو صغارها .

(٢) الإنباض : تحريك القوس لينطلق السهم . (٣) الأصل : وانتبه . (٤) القلعة : الانقلاع . قال فى القاموس : ومنزلنا منزل قلعة : أى ليس بمستوطن. أو معناه: لا تملكه أو لا ندرى متى نتحول عنه .

كم فى كتابك من زَلَل ، كم فى عملك من خَلَل ، هذا وقد قَرُب الأجل ، إى والله أجَلّ ، كم ضيَّعت واجبا وفَرْضا ونقضت عهدا مُحْكَما نقضا ، وأتيت حراما صريحا مَحْضا ، يا أجسادا صِحَاحا فيها قلوبٌ مَرْضَى .

***

عبادَ الله : أطْوَل الناس حُزْنا فى الدنيا أكثرهم فرحا فى الآخرة ، وأشد الناس خوفا فى الدنيا أكثرهم أمْنا فى الآخرة . يقول الله عز وجل : « أنا لا أجمع على عبدى خوفين ولا أمْنَيْن ، إذا أمِننى فى الدنيا أخَفْته فى الآخرة ، وإذا خافنى فى الدنيا أمَّنته فى الآخرة » .

إخوانى : المؤمن يتقلَّب فى الدنيا على جَمَرات الحذَر فى نيران الخوف ، يرهب العاقِبة ، ويحذَر المعاقبة ، فالنار متمكِّنة من سويداء قلبه ، إن هو هفا توقَّدت فى باطنه نارُ الندم ، وإن تذكَّر ذنبا اضطرمت نار الحزن ، وإن تفكر فى مُنْقَلبه التهبت نار الحذَر ، وإن صفا قلبه لمحبةَ خالقه صار القلب جمرةً بنار الفَرَق ، فإذا ورد القيامةَ عادت ناره نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، فإذا جازَ على الصراط لم تقاوم نارُ التعذيب نيرانَ التهذيب ، فتنادِى بلسان الاعتراف بالتفضيل : جُزْ فقد أطفأ نورك لهبى !

فإن هو حضر القيامة على زَلَل لم تَصْدق توبتُه منه فأوجب ذلك خمودَ نوره فقد خبَتْ نارُ حذَره فى باطن قلبه ، فإذا لفحته جهنم فأحرقت ظاهره أحسَّت بأثر شُعْلة الخوف فى باطنه فكفَّت كفَّها عنه . فلو قيل لها أين شِدة شِدّتك وأين حديدة حِدّتك لقالت : لا مقاومة لى بنيران باطنه وإن قَلَّت :

يُحْرَق بالنار من يحسُّ بها فمن هو النـــار كيف يحترقُ

***

هذه صفة المؤمن فأين إيمانك هذا لذى الحسنات وقد خسِر ميزانك ، شأنك الخطايا

فهلّا قرِح شانك[١] ياممهلا نفسَه سيشهد جِلْدك ومكانك ، اليقظة اليقظة يانيام ، الحذَر الحذر فقد سُلَّ الحُسَام ، الزهدَ الزهد قبل الفِطَام ، كأنكم بكم فى أثواب السَّقام تَرُومون الخلاص وقد عزَّ المرام ، فستندمون على ما مضى من الآثام ، وتخرس الألسن وينقطع الكلام .

إخوانى: أحضروا القلوب لهذا الملام ، تالله ما أكرم نفسَه من لا يهينها ، ولا يزينها من لا يشينها .

دخل عثمان رضى الله عنه على غلام له يعلف ناقته فرأى فى علفها ما كره فأخذ بأذن غلامه فعَركها ثم ندم فقال : افعل بى ما فعلت بك ، فأبى الغلام فلم يدَعْه حتى فعل فجعل عثمان رضى الله عنه يقول له : شُدَّ شد . حتى ظن أنه قد بلغ منه مثل ما بلغ ثم قال عثمان: واهاً لقصاص الدنيا قبل قصاص الآخرة .

كان القوم تحت حَجْر المحاسبة وكأنك مُطْلَق .

كان ابن السَّماك يقول : ألا منتبه من رقدته ، ألا مستيقظ من غفلته ، ألا مُفِيق من سَكْرته ، ألا خائف من صَرْعته ، أقسم بالله لو رأيت القيامة تخفق بزلازل أهوالها وقد علَت النارُ مُشْرفة على أهلها وجىء بالنبيين والشهداء لسرَّك أن يكون لك فى ذلك الجمْع منزلة وزلفى .

أبعدَ الدنيا دار مُعْتَمل ، أم إلى غير الآخرة مُنْتَقَل ؟ كلا والله لقد صمَّت الأسماع عن المواعظ وذهلت القلوب عن المنافع .

وعظ أعرابى ابنه فقال : أى بنى إنه من خاف الموتَ بادر الفَوْت ، ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات أسرعت به التَّبِعات ، والجنة والنار أمامك .

---

(١) الشأن : مجرى الدمع فى العين .

فيا ليتنى هامداً لا أقومُ إذا نهضوا ينفُضُون اللِّمَم(١)
ونادى المنادِى على غفلةٍ فلم يَبْقَ فى أُذنٍ مِن صَمَمْ
وجاءت صحائفُ قد ضُمِّنت كبائر آثامهم واللَّمَم(٢)

***

(سجع)

يا أسفا للعصاة فى مآبها ، إذا قلقت لقطع أسبابها ، وغابت فى الأسى عند حضور عِتَابها « كلُّ أمة تُدْعَى إلى كتابها » . قامت الأمم على أقدامها فأقامت تبكى على إقدامها ، وسالت عيونٌ من عيون غرامها ندَما على آثامها فى أيامها واحتقابِها « كلُّ أمةٍ تُدْعَى إلى كِتَابها » .

ظهرت أهوالٌ لا توصَف ، وبدت أمور لا تُعْرَف ، وكُشف حالاتٌ لم تكن تكشف ، إن لم تنتبه لهذا فأنت أعْرَف ، ستعلم من يلوم نفسه عند عَذابها « كلُّ أمة تُدْعَى إلى كتابها » قِيدت جهنم فبدَتْ بأزِمَّتها ، فبكت النفوسُ على دناءة هِمَّتها ، كم من ديونٍ تعلقتْ بذمتها ، على أنه يكفيها ما بها « كلُّ أمة تدعى إلى كتابها » .

أنت تدرى ما فى كتابك ، وستبكى والله عند عتابك ، وستعلم حالك يوم حسابك ، إذا كلَّت كلُّ الألسن عن جوابها « كل أمة تُدْعى إلى كتابها » ياله يومٌ لا كالأيام ، تيقَّظ فيه من غفل ونام ، ويحزن كل من فرح فى الآثام وتيقن أن أحْلَى ما كنت فيه أحلام ، واعجبا لضحكِ نفسِ البكاء أوْلى بها « كل أمة تدعى إلى كتابها » .

كم من نفس ترى بعين الصلاح تفعل الخير فى المساء والصباح ، عملت أعمالا ترجو بها الفلاح ، فلاح لها مالم يكن فى حسابها « كل أمة تدعى إلى كتابها » .

ذكَّر الله نفوسَنا مُرّ شرابها ، وجعلنا ممن مدَّ باع التقوى فباع وشَرى بها ، وحفظنا إذا حارت النفوس لشدة أوصابها ، ورزقنا قبولَ موعظته فقد أوصى بها « كل أمة تدعى إلى كتابها » .

(١) للمم : جمع لمة بالكسر وهى : الشعر المجاوز شحمة الأذن . (٢) اللمم بفتح اللام : صغار الذنوب .

المجلس الثالث

فى ذكر الأرض وعجائبها

الحمد لله القديم فى مجده، الكريم فى رِفْده، الرحيم فكل خير من عنده، اللطيف فى كل حال بعَبْده، مَدَّ الأرض بقدرته والعجبُ فى مَدّه، وزينها بنباتها وألوان وَرْدِه، وسقاها كأس القطر بواسطة بَرْقه ورَعْده، وجمع فى الغصن الواحد بين الشىء وضِدّه، وقوَّم الثمار بالماء من حر الشمس وبَرْده، إلٰه خوَّف بوعيده وشوّق بوعده، وقدَّر فاهتدى مَن هَداه وضلّ من لم يهده، وسمع فلم يَعْزب عن سمعه صوت المضطرّ بعد جَهْده، وأبصر فرأى جريان دم العبد فى عِرْقه وجلده، وعلم ما فى باطن سِرّه من برّه وحقده، وعَزْمه وحَزْمه، وبُغْضه ووِدِّه، وغَمّه وفكره، وعلمه وقصده، وحِلْمه وحبه وزهده، ولفِّه ونَقْضه، وأخذه وردّه، وقدَّر أعماله فى حياته وحالَه فى لحده، وجعل فى الحكمة نسيانَ أهله من بَعْده، فإن كان صالحا عَبَق فى قبره نَشْرُ وَرْده، وإن كان عاصيا خلِّى بقبيحه وخطىء ببُعْده، فسبحان من لا يعترض العقل على أفعاله بل يقف على حده « وإنْ من شَىْء إلا يُسبِّحُ بحمده » .

أحمده حمداً لا يَقْدر الخلائق على عَدّه، وأصلى على رسوله وعبده، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق الذى كان الإسلام مُنحلًّا لولا قوة شدّه، وعلى عمر وحيد التدبير فى السياسة وفَرْده، وعلى عثمان قائم الليل والدمع يجرى على خدّه، وعلى علىّ المصلى مع الرسول قبل بلوغ رُشده، وعلى عمه العباس الذى أخذ له البيعة على جنده .

***

قال الله تعالى : « والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء مَوْزون[١] » .

(١) سورة الحجر ١٩ .

قال ابن عباس : خلق الله عز وجل الماء فكان على متن الريح ، وخلق الحوت فوق الماء ثم كبس الأرض عليه فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأُثْبتت بالجبال .

وقال السُّدّى عن أشياخه : أخرج الله عز وجل من الماء دخانا سمَا عليه فسماه سماء ، ثم أيْبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين ، فالأرض على حوت فى الماء ، والماء على ظهر صَفاة ، والصفاة على ظهر مَلَك ، والملك على صخرة ، والصخرة والحوت فى الريح(١) قال وهب : واسم الحوت بهموت .

وقال قتادة : عُمْران الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ فى مثلها ، فالسِّند والهند من ذلك اثنا عشر ألف فرسخ فى مثلها ، وهم ولد حام ، والصين ثمانية آلاف فرسخ فى مثلها وهم ولد يافث . والروم ثلاثة آلاف فرسخ فى مثلها ، والعرب ألف فرسخ وهم والروم جميعا من ولد سام .

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لمّا خلَق الله الأرض جعلت تَميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرّت ، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يارب هل من خَلْقك شىء أشد من الجبال ؟ قال : نعم الحديد . قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار . قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال : نعم الماء قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الماء ؟ قال : نعم الريح . قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح ؟ قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها عن شماله(٢) » .

قال العلماء : أول جبل وضع على الأرض جبل أبى قُبَيْس ، وكان أول من بنى فيه رجل يقال له أبو قُبَيْس ، فسمى بذلك . وكان يقال له فى الجاهلية الأمين لأن الركن كان

---

(١) هذه أساطير لا سند لها ولا تمثل الفكر الإسلامى الصحيح الذى يترك الظن والتخرص فيما لا علم له به . وإذا أبقينا مثل هذه الأقاويل فى كتبنا فإنما نبقيها على أنها تراث قديم قد يفيد فى تاريخ العلم فى تلك العصور .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ٣/١٢٤ والترمذى فى صحيحه كتاب التفسير .

مستودَعا فيه من زمان الطوفان ، وهو أحد الأَخْشَبين . ومن مشاهير الجبال جبل ثور بمكة ، والحَجُون جبل واحد بالمدينة ، وجبل العَرج بين مكة والمدينة يمضى إلى الشام حتى يتصل بلبنان ثم يتصل بجبال أنطاكية والمصّيصة ، فيسمى هنالك اللُّكَام . وفى سرَنْديب الجبل الذى أهبط عليه آدم وعليه العُود والفُلْفل وفيه دابّة المسك ، وجبل الروم الذى سدّ فيه ذو القرنين على يأجوج ومأجوج طوله سبعمائة فرسخ وينتهى إلى البحر المظلم .

وقد ذكر قدامة أن الذى وجد فى الإقليم الأول من الجبال تسعة عشر ، وفى الإقليم الثانى سبعة وعشرون جبلا ، وفى الإقليم الثالث أحد وثلاثون ، وفى الرابع أربعة وعشرون ، وفى الخامس تسعة وعشرون ، وفى السادس أربعة وعشرون ، وفى السابع أربعة وعشرون أيضا . فجميع ماعرف من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلا . وقد أحصيت المعادن كالجص والنورة فوجدوها سبعمائة معدن .

والأقاليم سبعة : فالإقليم الأول : الهند ، والثانى : الحجاز ، والثالث : مصر ، والرابع بابل ، والخامس : الروم ، والسادس : الترك ويأجوج ومأجوج ، والسابع : الصين . ومقدار كل إقليم سبعمائة فرسخ . والبحر الأعظم محيط بذلك كله يحيط به جبل قاف . وأما الأنهار فمنها النيل والفرات ودِجْلة وسَيْحان وجيحان .

وكان قد أوحى الله تعالى إلى دانيال عليه السلام : احفرلى نهرين بالعراق فقال : إلٰهى بأى مَساحٍ وبأىّ رجال؟ فأوحى إليه أن أعدّ سِكّة حديد وعرِّضها واجعلها فى خشبة فألقها خلف ظهرك فإنى باعث إليك الملائكة يعينونك . فحفر فكان إذا انتهى إلى أرض أرملة أو يتيم حاد عنها حتى حفر دجلة والفرات .

ومن العجائب فى الدنيا : عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : من العجائب التى وصفت فى الدنيا أربع : منارة الإسكندرية عليها مرآة حديد يقعد القاعد تحتها قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فيرى من بالقسطنطينية وبينهما عَرْض البحر . وسودانى من نحاس على قضيب

من نحاس على باب الشرقى برومية . فإذا كان أوان الزيتون صفر ذلك السودانى فلا يبقى سودانية إلا جاءت معها بثلاث زيتونات : زيتونتان فى رجليها وزيتونة فى منقارها فألقته على ذلك السودانى فتحمل أهل رومية فيعصرون ما يكفيهم لِسُرجهم وإدامهم إلى العام المقبل . ورجل من نحاس بأرض اليمن مادّيده إلى وراء يقول : ليس ورائى مَذْهب ولا مَسْلك ، وهى أرض رَجْرَاجة لا يستقر عليها الأقدام غزاها ذو القرنين فى سبعين ألفا فخرج عليهم نمل كالبخَاتىّ فكانت النملة تخطف الفارس عن فرسه . وبطة من نحاس على عمود من نحاس فيما بين الهند والصين. فإذا كان يوم عاشوراء شربت البطة من الماء حاجتها ومدت منقارها فيفيض من فيها من الماء ما يكفيهم لزروعهم ومواشيهم إلى العام المقبل(١) .

***

قال العلماء : أول من سكن الأرض الجن ، وكانوا يعبدون الله عز وجل ، ثم تناول بعضهم بعضا بالقتل . قال ابن عباس : الجن ضعفاء الجان .

قال مجاهد : ملَكَ الأرضَ كلها أربعة : مؤمنان وكافران ، فأما المؤمنان : سليمان بن داود وذو القرنين عليهما السلام . والكافران: نمرود وبخت نَصَّر .

وقال كعب : ساكن الأرض الثانية الريح العقيم ، وساكن الأرض الثالثة حجارة جهنم ، وفى الرابعة كبريت جهنم ، وساكن الأرض الخامسة حيّات جهنم، وساكن الأرض السادسة عقارب جهنم ، وفى السابعة إبليس موثَق يد أمامه ويد خلفه ورجل أمامه ورجل خلفه فتأتيه جنوده بالأخبار فى مكانه ذلك .

فأما الجن فهم ثلاثة أنواع : جان وجِنّ وشياطين . وكلهم خلقوا قبل آدم . وفى الجان ثلاثة أقوال : أحدها : أنه أبو الجن . رواه الضحاك عن ابن عباس ، وهو مخلوق من مارج من نار . والمارج : لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت . والثانى : أن

(١) هذه أيضاً أساطير وتصورات قديمة جانبها الحق ولا دليل لها من الواقع . فلننظر إليها على أنها تصوير لفكر خرافى لاعلمى .

الجان هو إبليس . قاله الحسن وعطاء . والثالث : أن الجان مسيخ الجن كما أن القِردة والخنازير مسيخ الإنس . رواه عكرمة عن ابن عباس .

فأما الشيطان فهو كل متجبر عاتٍ من الجن ، وكذلك المارد والعفريت . وفى إبليس قولان : أحدهما أنه كان من أشراف الملائكة . والثانى : أنه كان من الجن . قال مجاهد: لإبليس خمسة أولاد : نبر والأعور ومسوط وداسم وزلنبور. فأما نبر فهو صاحب المصائب يأمر بشق الجيوب ولطم الخدود ، وأما الأعور فيأمر بالزنا ، ومسوط صاحب الكذب يلقى الرجل فيخبره بالشىء فيتحدث الرجل به ، وداسم يوقع بين الرجل وأهله ، وزلنبور يركز رايته فى السوق ويوقع بينهم(١) .

الكلام على البسملة

أضحَكَ سِنَّك بُعْدُ الأمــــل ... ولم يُبْك عينك قُرْبُ الأجَلْ
كأنك لم ترَ حيًّا يُســـاق ... ولم ترَ مَيْتا على مُغْتَسلْ

قل للذين غفلوا ولعبوا كأنهم قد تعبوا ، مالهم عبرة فى الذين ذهبوا ، أمَا الكأس بيد الساقى ومنه شربوا .

سَــيْر الليالى إلى أعمارنا خَببُ ... فما تبين ولا يغْتاقها نَصبُ
كيف النجاء وأيديها مصمِّمة ... بذَبْحنا بمُدًى ليست لها نُصبُ(٢)
وهل يؤمِّل نَيْلَ الشَّمْل ملتئما ... سَفْرٌ لهم كلَّ يوم رِحْلة عجَبُ
وما إقامتنا فى منزل هتفتْ ... فيه بنا مُذ سكنَّا رَبْعه نُوَبُ
وآذنتنا وقـــد تمَّتْ عِمارته ... بأنه عن قليلٍ داثرٌ خرِبُ
أزْرت بنا هذه الدنيا فما أملٌ ... إلا لرَيْب المنايا عنـــده أربُ

(١) ليس هذا الكلام حجة على شىء ، وإنما هو تصور قصاص يستثيرون الخيال .
(٢) النصب : جمع نصاب ، وهى جزأة السكين .

ليست سهامُ الموت طائشةً وهل تطيش سهامٌ كله نُصبُ
ونحن أغراض أنواع البلاء بها قبلَ الممات فمَرْميٌّ ومُرْتقب
أين الذين تناهَوْا فى ابتنائهم صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا

***

انتبهوا يانيام ، افهموا هذا الكلام ، قد بقيت لكم أيام ، هذا عُود الحياة قد يبس ، ونُور الشباب بالشيب منطمس ، ولسان الفرَح بالترَح قد خَرس ، وسواء فى الموت المُهمِل والمحترِس ، ولا فرق عنده بين اللين والشَّرس . إخوانى : كم رأيتم من قبر مندرس ، إخوانى : كم تُلى عليكم زَجْر ودُرس . إخوانى : كأنكم فى كف المختلِس ، إنما هو نفَس منطلق وكأن قد حُبس ، ترى متى ينقّى هذا القلب الدنس ، إلى كم ذا المريض كل يوم ينتكس ، إنما أنت بقية الراحلين فاعتبر بهم وقسْ :

نائباتٌ فى كل يوم تَنُوبُ وخُطوبٌ تأتى وتمضى خطوبُ
ما عجيبٌ مَكْر الزمان ولكن ثقةُ النفس بالزمانِ عجيبُ
كم دعتنى إلى زخارفها الدنـ يا فنادت منِّى الذى لا يجيبُ
ومتى سامحتْ خليلاً بحَظّ خالفتْها فاسترجعتْه الخطوبُ
كم إلى كم نَذُود عنها ونَنْهَى غير أن القلوب ماتستجيبُ
وصلاح الأجسام سَهْل ولكن فى صلاح القلوب يَعْيَى الطبيبُ

الدنيا بحر عَجَّاج ، ليس راكبه بناج ، الدنيا كظُلْمة ليل دْاج ، ليس فيها إلا الزهد سراج ، هدوءها انزعاج وسكونها اختلاج ، ضيِّقة الفِجَاج كَدِرة المزاج ، لا تغرَّنك ولو ألبستك التاج ، وقد خاطَر من حَمل فى الوَحْل الزُّجَاج ، تريك السلامة تَغْريرا وتمويها ، وتظهر المحاسن والقبائح وتخفيها ، تبين كل كف كانت تبنيها ، ماتعتذر إلى جريحها كِبْراً وتيها :

هى الدنيا فلا يَغْررك منها زخارف تستغرّ ذَوِى العقولِ

أقلُّ قليلها يكفيك منها ولكن ليس تَقْنع بالقليلِ

***

مِحَن الدنيا ولذاتها أنموذج مافى الآخرة ، فلو أصغى سَمْعُ القلب فهم .

لما أهديت مُعَاذة العدَوية إلى صلة بن أشْيَم أدخله ابنُ أخيه الحمَّام ثم أدخله بيتاً مطيَّبا فقام يصلى حتى برق الفجر ، فقامت فصلت .قال : فأتيته فقلت : ياعم أُهديتْ إليك ابنة عمك فقت تصلّى ؟ ! فقال يابن أخى أدخلتنى أمس بيتاً أذْكرتنى به النار ، ثم أدخلتنى الليلة بيتا أذكرتنى به الجنة ، فما زال فكرى فيهما إلى الصباح !

يا أيها الراحِل وما له رَوَاحل ، يكفى فى الوعظ أربعون كَوَامل ، كلهن من فِعْل الخير عَواطِل ، متى تسمع قول العاذِل ، متى تؤثِّر المكاتبات بالرسائل،أمَا أنت فى صف الحرب تُقاتِل ، هذا العدو يَنْصب الحبائل قد فوّق السهم وأمّ المَقَاتِل ، إلى متى ترضى باسم جاهل ، إلى متى تُؤْثر لقب غافل ، كم تَعِد بالتوبة وكم تماطل ، أين قلبك ؟ قَلْبك على مَراحل .

كم أسمعك الموت وعيدك، فلم تنتبه حتى قطع وريدك،ونقض منزلك وهدم مَشِيدك، ومزّق مالك وفرق عبيدك ، وأخلى دارك وملأ بيدَك ، أما رأيت قَرِينك ؟ أما أبصرت فقيدك ، يا ميتا عن قليل مهِّد تمهيدك ، وانظر لنفسك مجتهدا وحقِّق تجويدك، لقد أمرضك الهوى وفى عَزْمه أن يزيدك ، ياعجبا للجاهل المغرور كيف يشتغل بعمارة الدُّور ، قد بَعث الموتُ للرحيل المنشور ، السَّقام أقلامه واللحودُ السطور :

خُذْ ما صفا لك فالحياةُ غرورُ والموتُ آتٍ واللبيب خبيرُ
لا تعتبنَّ على الزمان فإنه فَلَك على قُطب الهلاك يدورُ
تَعفو السطور إذا تقادم عهدها والخَلْق فى رقّ الحياة سطورُ
كلٌّ يفِرّ من الردَى لِيفوته وله إلى ما فرَّ منه مَصيرُ

فانظر لنفسك فالسلامة نُهْزة   وزمانها ضافِى الجناح يطيرُ
مرآة عيشك بالشباب صَقِيلة   وجناح عمرك بالمشيب كَسِيرُ
بادِر فإن الوقت سيْفٌ قاطعٌ   والعمر جيشٌ والشبابُ أميرُ

***

قوله تعالى
« فإذا انشقَّت السماء فكانت وَرْدة كالدِّهان »

قال المفسرون: تنفرج السماء من المجرّة لنزول من فيها يوم القيامة . « فكانت وَرْدةً كالدِّهَان » . فيها قولان : أحدهما: أنها الفَرس الوَرْدة[1] تكون السماء كلونها. قاله أبو صالح والضحاك . قال الفراء : الفَرس الوَرْدة تكون فى الربيع إلى الصُّفْرة فإذا اشتد الحر كانت حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت إلى الغُبْرة . فشبّه تلوّن السماء بتلون الوردة من الخيل . قال الزجاج : الكُمَيْت الورد يتلوّن ، فيكون لونه فى الشتاء خلاف لونه فى الصيف ، ولونه فى الفصل خلاف لونه فى الشتاء والصيف ، فالسماء تتلون من الفزَع .

والثانى : أنها وردة النبات وقد تختلف ألوانها إلا أن الأغلب عليها الحمرة . ذكره الماوردى .

وفى الدِّهَان قولان : أحدهما أنه واحد الأديم الأحمر . قاله ابن عباس . والثانى : أنه جمع دُهْن ، والدهن تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وصفرة . حكاه اليزيدى، وإلى نحوه ذهب مجاهد . وقال الفرّاء: شبّه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل ، وشبه الوردة فى اختلاف ألوانها بالدهن .

قوله تعالى : « فيومئذ لا يُسْأل عن ذَنْبه إنْس ولا جانّ » فيه ثلاثة أقوال : أحدها :

---

[1] الورد من الخيل : بين الكميت والأشقر .
(التبصرة ٢/١٣)

لا يُسْأَلون ليُعْلم حالهم، لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك . والثانى : لا يَسْأَل بعضُهم بعضا عن حاله لاشتغال كل منهم بنفسه . والقولان عن ابن عباس . والثالث : لا يُسْأَلون عن ذنوبهم لأنهم يُعْرفون بسيماهم فالكافر أسود الوجه والمؤمن أغرّ مُحَجّل من أثر وضوئه . قاله الفراء. وقال الزجّاج لا يُسأل عن ذنبه بسيفهم ولكنه يسأل سؤال توبيخ .

قوله تعالى : « يُعْرَف المجرمون بِسِيمَاهم » قال الحسن : بسواد الوجوه وزرق الأعين « فيُؤْخَذ بالنواصِي والأقدام » فيه قولان : أحدها أن خَزنة جهنم تجمع بين نواصيهم إلى أقدامهم من وراء ظهورهم ثم يدفعونهم على وجوههم فى النار - قاله مقاتل . والثانى : يؤخذ بالنواصى والأقدام يُسْحَبون إلى النار . ذكره الثعلبى .

وروى مردويه الصائغ قال : صلى بنا الإمام صلاة الصبح فقرأ سورة الرحمن ومعنا على ابن الفُضَيل بن عياض فلما قرأ : « يُعْرَفُ المجرمون بِسِيماهم » خرّ مغشيا عليه حتى فرغنا من الصلاة ، فلما كان بعد ذلك قلنا له أما سمعت الإمام يقرأ : « حورٌ مقصورات فى الخيام » فقال شغلنى عنها : يُعْرفُ المجرمون بسيماهُم .

قوله تعالى : « هذه جهنمُ التى يكذب بها المجرمون » يعنى المشركين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها » .

انفرد بإخراجه مسلم(١) .

قوله عز وجل : « يَطُوفون بَيْنَها وبين حَمِيمٍ آنٍ » الحميم : الماء الحار . والآنى : الذى قد انتهت شدة حره . والمعنى أنهم يسعون بين عذاب الجحيم وبين الحميم إذا استغاثوا من النار جُعل غياثهم الحميم الشديد الحرارة .

عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الحميم ليُصَبّ على رءوسهم فينفذ الحميم حتى يَخلص إلى جوفه حتى يَمْرق من قدميه ثم يعاد كما كان (٢) » .

(١) صحيح مسلم كتاب الجنة حديث رقم ٢٩ .
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ٢/٣٧٤ والترمذى فى صحيحه كتاب جهنم باب ٤ .

قوله عز وجل « ولمن خاف مقامَ رَبِّهِ جَنَّتان » وفيه قولان : أحدهما : قيامه بين يدى ربه يوم الجزاء . والثانى : قيام الله على عبده بإحصاء ما اكتسب .

قال مجاهد : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » وهو الذى إذا هَمَّ بمعصية ذكر مقام ربه عليه فيها فانتهى . وقال أبو موسى : جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين.

قال الحسن البصرى : كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه شاب يلازم المسجد والعِبَادة ، فعشقته امرأة فأتته فى خلْوة فكلَّمته ، فحدَّث نفسه بذلك فشهق شهقه فغُشى عليه ، فجاء عمٌّ له فحمله إلى بيته فلما أفاق قال : ياعم انطلق إلى عمر رضى الله عنه فأقرئه منى السلام وقل له : ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فانطلق عمه فأخبر عمرَ رضى الله عنه فأتاه عمر رضى الله عنه وقد شهق فمات فوقف عليه عمر وقال : لك جنتان(١) .

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشابٌّ نشأ فى عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه مُعَلَّق بالمساجد ، ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه ، ورجلٌ تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تَعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله عز وجل خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال : إنى أخاف الله عز وجل » .

أخرجاه فى الصحيحين(٢) .

وقال يحيى ابن أبى كثير : لا يُحْمَد ورعُ امرئٍ حتى يُشْفِى على طمع ويقدر عليه فيتركه حين تركه لله عز وجل .

***

آه من نفس ما يقرّ قرارها ، طلعت شمس الشَّيب وما خبَتْ نارها ، ما لاحت لها شهوة إلا قلَّ اصطبارها ، ما بانت لها موعظة فبان اعتبارها ، كم وعَظها ليلُها ونهَارها

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزى .

(٢) صحيح البخارى كتاب الزكاة باب رقم ١٦ . وصحيح مسلم كتاب الزكاة حديث رقم ٩١ .

نهارُها ، الذّنبُ لباسها والجهل شِعارها ، كم نُسكثر النصائح وماتقل أوزارها ، كم تقوّم وما يصلح ازورارها، كم تُلاءم لُطفا وما يرعوى نِفارها ، كلما جذّ بها أملُها زاداغترارها ، إلى كم مع المعاصى أما يلزمها عارها ، أساء تدبيرها أم قبُح اختيارها ، من يأخذ بيدها إذا طال عِثارها .

إن النفس إذا أُطعمت طَمِعت ، وإذا أُقنعت باليسير قنعت ، فإذا أردت صلاح مرضها فبترك غرضها، احبس لسانها عن فُضُول كلماتها ، وغُضَّ طَرْفها عن محرّم نظراتها ، وكُفَّ كفها عن مؤذى شهواتها إن شئت أن تسعى لها فى نجاتها .

***

إخوانى : علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس ، ما ملكها عبدٌ إلا عزَّ وما ملكت عبداً إلاذلَّ :

الحرصُ فى كل الأفانين يَصِمْ   أما رأيت كل ظَهر يَنْقَصِمْ
وعروةً من كل حىّ تَنفصم   أمَا سمعت الحادثات تَختصمْ
بل حُبّك الأشياء يُعْمى ويُصمّ

قال مالك بن دينار : يقول الله عز وجل : وعزتى إنى لأَهمّ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب .

وقال ميمون بن مِهْران : الذِّكر ذِكران : ذكر باللسان وأفضل منه ذكر الله عند ما يُشْرف عليه من معاصيه .

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان الكِفْل من بنى إسرائيل لا يتورّع من ذنب ، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا فلما قعد منها مقعد الرجل أرعدت وبكت فقال : ما يبكيك؟ قالت هذا عمل لم أعمله قط . فقال اذهبى والدنانير لك . ثم قال : والله لا يعصى الله الكفلُ أبدا فمات من ليلته ، فأصبح مكتوبا على بابه : قد غَفر الله للكِفْل .

يا من لا يترك ذَنْبا يَقْدِر عليه ، يا من أكثر عمله الذى له عليه، كم ضيَّعت فى المعاصى عَصْرا ، كم حملت على الأزر(١) من الوِزْر أزرا ، أترضى أن تملأ الصحائف عَيْبا وخسرا ، أما يكفى سَلْب القَرِين وَعْظا وزَجْرا، لقد ضيَّعت شَطْرا من الزمان فاحفظ شَطْرا ، ما أبقتْ لك الصحةُ حُجةً ولا تركت عُذرا، كم نعمةٍ نزلت بك وما قرنتها شكرا، تقابلها بالمعاصى فتبدِّل العُرْفَ نُكْرا ، كم سترك على الخطايا وأنت لا تُقْلع دهرا ، كم نمت عن صلاة وكم شربتَ خمرا ، كان الشيبُ هِلَالا وقد صار بَدْرا ، تعاهِد ولا تَفِى إلى كم غَدْرا ، أطال عليك الأمَدُ فصار القلبُ صَخْرا ؟ إنما بقى القليل فصَبْرا يانفسُ صبرا .

صِبَاً من شاب مَفْرِقه تصَابِى وإن طَلَب الصِّبَا والقلبُ صابِى
أعاذِلُ راضَنى لك شيبُ رأسِى ولولا ذاك أعياك اقتضابِى (٢)
كفَى بالشيب من ناهٍ مُطَاع على كُرْه ومن داعٍ مُجَابِ
حَطَطْتُ إلى النهَى رَحْلى وكلَّت مَطيَّةُ باطِلى بعدَ الهِبَابِ(٣)
وقُلْت مسلِّما للشيب أهلا بهادِى المخطئين إلى الصوابِ
يذكِّرنى الشبابَ وميضُ بَرْق وسَجْع حمامةٍ وحنين نابِ(٤)
أأُفْجَع بالشباب ولا أُعزَّى لقد غَفَل المعزِّى عن مُصَابِى

(سجع)

ياداثم الخطايا والعصيان ، ياشديد البطَر والطغيان ، ربح المتقون ولك الخسران « ولمن خافَ مقامَ ربِّه جَنَّتان » . يامعتكِفاً على زَلَّه وذنبه ، لا يؤثِّر عنده أليم عَتْبه ، أمّا المصرّ فقد طُمس على قلبه فلا ينفعه وعظ اللسان « ولمن خاف مقامَ ربه جَنَّتان » .

كم خوِّفت وماتخاف ، يامن إذا أُمر بالعدل حَاف ، الويل لك ياصاحب الإسراف

---

(١) الأزر : الظهر . والوزر : الإثم . (٢) الاقتضاب : مصدر اقتضبه ، بمعنى قطعه .
(٣) الهباب : النشاط فى السير . (٤) الناب : الناقة المسنة .

« ولمن خاف مقام ربه جنتان » . لو رأيت أهلَ الزَّيْغ والعناد وأربابَ المعاصى والفساد مُقَرَّنين فى الأصفاد « سَرابيلهم من قَطِران » « ولمن خاف مقام ربه جنتان». قد سُدَّت فى وجوههم الأبواب وغضب عليهم رَبُّ الأرباب ، والنار شديدة الالتهاب والعذاب فيها ألوان « ولمن خاف مقامَ ربه جنتان » أعرضَ عنهم الرحيمُ ومنعهم خيرَه الكريم ، ويتقلَّبون فى الجحيم « يَطُوفون بينهما وبين حميم آن » سَعِيرهم قد أحْرق ، وزمهريرهم قد مزَّق ، ونورُ المتقين قد أشرق ، « متكئين على فُرشٍ بطائنها من استبرق وجَنَى الجنَّتيْن دان » .

سارت بهم إلى الجدّ المطايا ، فأُجْزلت لهم جزيل العطايا ولأرباب الخطايا النيران . منَّ عليهم بنعيم ما مُنَّ[1]، لا يخطر لمن يتوهم ويظنّ ، وقد كفانا صفة الحور من وصَفهن « كأنهن الياقوتُ والمرْجان » .

أيها العاصى قد اجتهدنا فى صَلاحك ، وعرضنا فى التجارة لأرباحك ، وأنت على المعاصى فى مسائك وصباحك ، وبعـدُ فما نَيأس من فَلَاحك « كلَّ يوم ٍ هو فى شان » ولمن خاف مقام ربه جنتان »

(١) مُنَّ : قطع .

الطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ

تشتمل على فضائل العلم والمعاملات

فِيهَا ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ مَجْلِسًا

المجلس الأول
فى فضائل العلم والعمل

الحمد لله الذى بيده الإيجاد والإنشاء ، والإماتة والإحياء ، والإعادة والإبداء ، والإنعام والآلاء ، والرِّخَص والغَلاء ، والحظ والعَلاء ، والعافية، والبلاء، والداء والدواء ، خلَق آدم وخُلقت لأجله الأشياء ، فمن جَرّاه كانت الأرض والسماء، والظلمات والأضواء ، والصباح والمساء ، والريح والماء ، وعلَّمه العِلْمَ فانجلتْ عنه الظَّلْماء ، وعرّفه خَطَّ الخط فجاء الهجاء: الألف والباء ، والتاء والثاء ، والجيم والحاء ، والخاء والدال والذال والراء، والزاى والسين والشين والصاد والضاد والطاء ، والظاء والعين والغَيْن والفاء ، والقاف والكاف واللام والميم والنون والهاء ، والواو ولام الألف والياء .

وبثَّ من نَسْله الرجالَ والنساء ، فمنهم العالم الذاكر ومنهم الجاهل النسّاء، وأكثرهم الغافلون وأقلُّهم الأَلِبّاء ، وليست زَرْقاء اليمامةَ كالأعْشَى ، ولا النهارُ كالليل إذا يَغْشَى ، « إنما يَخْشَى اللهَ من عباده العُلماء »[1] .

أحمده له بتوفيق لحمده الآلاء ، وأقرّ بأنه مالك الملْك يؤتى الملْك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، وأصلِّ على رسوله محمد أشرف راكبٍ حَوْته البَيْداء ، وعلى صاحبه أبى بكر الصديق مُصَاحبه إنْ وقعت الشدة أو الرَّخاء ، وعلى عمر الفاروق الذى دوَّخ الكفر فذلَّت له الأعداء ، وعلى عثمان الصابر وقد اشتد به البلاء، وعلى علىٍّ الذى حصَل له دون الكل الإخاء ، وعلى عمه العباس الذى سألت الصحابة به الغيثَ فسالت السماء .

***

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم

---

(١) سورة فاطر ٢٧ .

فى السماء يُهتَدى بهـا فى ظلمات البَرّ والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة[١] » .

وهذا المثل من أَوْقع المِثَال ، لأن طريق التوحيد والعلم بالآخرة لا يدْرَك بالحِسّ وإنما يُعرف بالدليل ، والعلماء هم الأدِلّاء فإذا فُقدوا ضلّ السالك .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولـكنْ يَقْبض العلمَ بقبض العلمـاء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ العِبَاد رءوساً جُهَّالا فسُئلوا فأفتَوْا بغير علم فضَلُّوا وأضلوا[٢] » .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن صفوان بن عسَّال أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : « إنّ الملائـكةَ لتَضع أجنحتَها لطالب العلم رِضى بما يطلب[٣] » .

وذكر أبو سليمان الخطَّابى فى معنى وَضْعها أجنحتَها ثلاثة أقوال : أحدها بَسْط الأجنحة . والثانى : أن المراد به التواضع لطالب العلم . والثالث : النزول عند مجالس العلم وترك الطَّيران ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم يذكرون الله تعالى إلّا حَفّت بهم الملائـكة[٤] » .

وفى الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى عليه السلام : « والله لأَنْ يهدى الله بك رَجلًا واحدا خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعم[٥] » .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ١٥٧/٣ . وفيـه رشدين بن سعد واختلف فى الاحتجاج به . وأبوحفص صاحب أنس مجهول مجمع الزوائد ١٢١/١ . (٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب العلم باب ٣٤ وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب العلم حديث رقم ١٣ ، ١٤ والترمذى كتاب العلم باب ٥ .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى تيسير الوصول ١٧٢/٣ .

(٤) أخرجه مسلم والترمذى . تيسير الوصول ١٠٥/٢ . (٥) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب المناقب باب مناقب على بن أبى طالب ، ومسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٤ .

وروى أبو الدَّرْدَاء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طُرق الجنة ، وإن العالم لَيستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى الماء ، وإنّ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب ، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء ، فإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر(١) » .

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : تعلَّموا العلم فإن تَعَلُّمه لله خَشْية ، وطلبه عبادة ، ومُذَاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدَقة ، وبذله لأهله قُرْبة ، وهو الأنس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة .

وقال كعب : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : أن تعلَّم ياموسى الخيرَ وعلِّمه للناس فإنى منوِّر لمعلم الخير ومتعلمه فى قبورهم حتى لا يستوحشوا فى مكانهم .

وقال عيسى عليه السلام: من تعلَّمَ وعَلَّمَ وعَمِل فذلك يُدْعَى عظيماً فى ملكوت السماء .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خُيِّرَ سليمان بن داود عليه السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم فأُعطى المال والملك معه .

وقال بعض الحكماء: ليت شعرى أىّ شىء أَدْرك من فاته العِلمُ ؟ وأى شىء فات من أدرك العلم .

ولا يخفى فضل العلم ببديهة العقل ، لأنه الوسيلة إلى معرفة الخالق وسبب الخلود فى النعيم الدائم ، ولا يُعرف التقرب إلى المعبود إلا به ، فهو سبب لمصالح الدارَيْن .

قال الحسن : لولا العلماء لصار الناسُ مثل البهائم . وقال المعافَى بن عمران : كتابةُ حديثٍ واحد أحبُّ إلىَّ من قيام ليلة .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى . تيسير الوصول ١٧٢/٢ .

وكيف لا يقول هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يوزَن مدادُ العلماء مع دم الشهداء فَيَرجح مدادُ العلماء على دم الشهداء[1] » .

* * *

ومن آداب العالم : أن يترك فضولَ الدنيا ليتبعه الناس، فإن الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول ، فإن الطبيب إذا أمَر الحِمْية ثم خَلَّط لم يُلتفت إلى قوله .

أخبرنا على بن عبد الله بسنده عن أبى همَّام الكلاَعىّ عن الحسن أنه مرَّ ببعض القرّاء على بعض أبواب السلاطين فقال : أقرحتم جِباهكم وفرطحتم نِعالكم وجئتم بالعِلْم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم فزهِدوا فيكم ! أمَا إنكم لو جلستم فى بيوتكم حتى يكونوا هم الذين يُرسلون إليكم لكان أعظمَ لكم فى أعينهم ، تفرَّقوا فرق الله بين أعضائكم !

وقال الحسن : إنّ الزبانية إلى فسَقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عَبدة الأوثان ، فيقولون : ربَّنا ما بالنا يتقدمون إلينا ؟ فيقول الله تعالى : ليس من يَعلم كمن لا يعلم !

أخبرنا يحيى بن على بسنده عن الربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعى يقول : من قرأ القرآن عَظُمت قيمته ومن تفقَّه نَبُل قَدْره ، ومن كتب الحديثَ قَويت حُجَّته ، ومن تعلم اللغة رقَّ طبْعُه ، ومن تعلَّم الحساب جَزُل رأيه ، ومن لم يَصُنْ نفسه لم ينفعه عِلْمه .

سمعت إسماعيل بن أحمد يقول سمعت عبدَالله بن عطاء يقول : سمعت أبا نصر الحوارىّ يقول : سمعت أبا حاتم الرازى يقول بسنده عن يونس بن عبد الأعلى يقول ، سمعت الشافعى يقول : كَتبَ حكيمٌ إلى حكيم : يا أخى قد أُوتيت عِلْما فلا تدنِّس عِلمك بظلْمة الذنوب فتَبقى فى الظُّلْمة يوم يسعى أهلُ العلم بنور علمهم .

***

(١) أخرجه الشيرازى عن أنس والموهبى عن عمران بن حصين وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله. انظر الجامع الصغير للسيوطى حديث رقم ١٠٠٢٦ .

والمأخوذ على المتعلم : أن يطلب العلم للعمل به . ففي الحديث: « من طلب العلمَ لِيُباهي به العلماء أو يُمَارِي به السفهاء أو لِيَصْرِف وجوهَ الناس إليه لم يَرَحْ رائحة الجنة[١] » .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أنه قال : « إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة، فذكَر منهم رجلا تعلَّم العلمَ وعلَّمه وقرأ القرآن فيقال له : ما عملتَ ! فيقول : تعلمتُ فيكَ العلم وعلَّمتُه وقرأت القرآن . فيقال : كذَبْت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم فقد قيل . وقرأت القرآن ليقال هو قارئ وقد قيل . ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار[٢] ».

أخبرنا أبو منصور وعبد الرحمن بن محمد بسندهما عن أبي جعفر عبد الله بن إسماعيل ابن توْبة . يقول رأيت أبا بكر الأدمي القارئ في النوم بعد موته بمدّ يده فقلت له : تلك الليالي والمواقف والقرآن ؟ فقال لي : ما كان شيء أضر علي منها لأنها كانت للدنيا . فقلت له : فإلى أي شي انتهى أمرك ؟ قال : قال لي تعالى : آليتُ على نفسي أن لا أعذِّب أبناء الثمانين[٣] .

الكلام على البسملة

نَبْني ونجمع والآثار تَنْدرسُ ... ونأمل اللُّبث والأرواح تُختلسُ
ذا اللبّ فكِّر فما في الخلد من طَمع ... لا بُدَّ ما ينتهي أمرٌ وينعكسُ
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانوا إذا الناسُ قاموا هَيْبةً جلسُوا
ومن سيوفهم في كل معركة ... تُخْشَى ودونهم الحجّاب والحرسُ
أضْحَوا بمَهْلكة في وسْط معركة ... صَرْعى وماشي الورَى من فوقهم يَطِسُ[٤]

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط ، والبزار وفيه سليمان بن زياد الواسطي . مجمع الزوائد ١٨٤/١ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الإمارة رقم ١٥٢ .
(٣) لا يصح مثل هذا الخبر ولا يتفق مع القواعد التي أعلنها الإسلام في الثواب والعقاب .
(٤) يطس : يطأ بشدة . والوطس : الضرب الشديد بالخف وغيره .

وعمَّهم حَدث وضمَّهم جَـــدثٌ باتوا وهم جُثَث فى الرَّمْس قد حُبِسُوا

كأنهم قَطّ ما كانوا وما خُلقوا ومات ذِكْرهم بين الورَى ونُسُوا

والله لو أبصرتْ عينـــاك ما صنعتْ يدُ البِـــلَى بهمُ والدودُ يَفترسُ

لعاينَتْ منظراً تَشْجَى النفوسُ به وأبصرت نُـكُرا مِن دونه النـكسُ

من أوجهٍ ناظرات حار ناظرهـــا فى رونق الحسْن كيف تنطمسُ

وأعظُمٍ بالياتٍ مابهـــا رمَقٌ وليس تبقى وهـــذا وهى تُنْتَهَسُ

وألسنٌ ناطقاتٌ زانهـــا أدب ما شأنُها شانَها بالآفة الخرَسُ

نـكَّسهم ألسنٌ للدهر فاغرةٌ فاهاً فَآهاً لهم إذ بالردَى وُكِسوا

عَروْا عن الوشْى لمّا أُلبسوا حُلَلاً من الرَّغَام على أجسادهم وكُسُوا

وصار لُبس الصَّفَايا من خَلَائلهم جُون الثيابِ وقِدْماً زانَه الوَرْسُ(١)

حتَّام ياذا النُّهى لا تَرْعوى سَفَهاً ودمُع عينيك لا َيهْمِى و َينْبَجِسُ(٢)

***

ياغافلا عن نفسه أمركَ عجيب ، ياقتيل الهوى داؤكَ غريب ، ياطويل الأمل ستُدْعى فتجيب ، وهذا عن قليل وكلُّ آت قريب ، هلّا تذكرت لحدكَ كيف تَبيت وحدكَ ، ويُبَاشر الثَّرى خدَّكَ ، وتقتسم الديدان جِلْدكَ ، ويضحك المحبُّ بَعْدكَ ناسياً عنه بُعْدكَ ، والأهل مُذْوجدوا المالَ ما وجدوا فَقْدكَ ، إلى متى وحتى متى تترك رشدكَ ، أمَا تُحْسن أن تحسن إلينا قَصْدكَ ، الأمر جَدٌّ مُجِّد فلازمْ جِدّكَ .

ذهَب الأحبةُ بعـــد طُول تودّد ونأى المزارُ فأسلموك وأقْشَعُوا

خَـــذلوكَ أفقرَ ما تـكون لغُربة لم يؤنسوك وكُرْبةً لم يَدْفعُوا

---

(١) الصفايا : كذا . والمعروف فى جمع الصفاة ، وهى الحجر الصلد : صفا . وصفوات وجمع الجمع : أصفاء وصفى . والجون : السود . والورس : نبات كالسمسم يصبغ به ، لونه أصفر . (٢) ينبجس : ينفجر .

قُضِى القضاء وصرتَ صاحبَ حُفْرة عنك الأحبة أعرَضوا وتصدَّعوا

ووجد على قبر مكتوب :

سيُعْرَض عن ذكرى وتُنْسى موَدّتى ويَحْدث بَعْدى للخليلِ خليلُ

إذا انقطعت يوماً من العَيْش مُــدَّتى فإن غَنــاء البــاكياتِ قليلُ

إلى متى هذا التخليط والموت بكم محيط ، أين الأخ والخليط بادرَهما موتٌ نشيط ، كيف يلهو هذا الشَّمِيط ، وله أسَدٌ مُسْتشيط ، عليه وسَخ وما يُميط لا بل دمٌ عَبيط[1] ، يار بما انقبض النشيط ، تيقظ فكم هذا الغَطيط ، اقبلْ نصحى واسمع من الوسيط ، ياذا التحركُ فى الهوى لا بد له من سكون ، على هذا كانت الدنيا وعليه تكون ، لا يغرّنك سَهْلها فبعد السهل حُزون ، لا تنظر إلى فرحها فكل فَرِح محزون ، تأمّل فعلها بغيرك فبُغْض المُقْبح يهون ، إن روحك دَيْن الممات وستُقضى الديون ، ما فرحها مُسْتَمّ ولا تَرَحها مأمون ، ما أضحكت السنّ إلا وأبكت العيون ، إياك وإيا المومِس الخَئُون ، إنها لدار الغرور ومنزلٌ للمنون ، كم نلوم على الغَبْن وما يعقل المغبون ، مهلًا أضَمّتم المواعظَ قلبُ هذا مفتون ، يالائماً لى فى الهوى ماذا هوى هذا جنون .

أيها الغافل عما بين يديه لا يذكر الموتَ ولا يلتفت إليه ، شَغله عن العواقب ماالديه وألهاه ماله عمّا عليه :

يالَقَــومِى للآملِ المغرورِ ولِجَاج لا ينقضِى فى الصدورِ

ولنفسٍ مخــدوعةٍ بالأمانى وَلهمّ مُوكَّلٍ بسُرورِ

وانقباضِ الحيــاة عمّا يرجِّيه الفتى وامتداد حَبْل الغرورِ

يَلْتحيه الزمانُ فى كل يوم دائباً كالتحاء غُصْنٍ نَضِيرِ[2]

يتمنَّى فى العيش ما ليس يَلْقا ه وينسى حَزْم الزمان الغَيُورِ

---

(١) العبيط : الطرى الذى لم يجف . (٢) يلتحيه : يقشره .

ولِعين غفَتْ عن الأجل اليَقظا ن أمْسَى بها قريبَ المسيرِ
كلَّ يوم يَهيض للمرء عَظْما وهو يَسْطو فيه بعظمٍ كَسيرِ
يحمل الموت بين جنبيه إذ يغ دو ويخشاه من وراء الثُّغورِ
كلُّ نفسٍ فى مستَقرٍّ عليها والحِمَى من حِمَامها المقدورِ

***

يا من يَجُوب شَرْق الهوى ثم يقطع غَرْبه ، فكم له من طلعة فى طلبه وغُرْبة ، كأنه بسيف الأسف قد سُلَّ من جَفْنه[1] فأسال من جفنه غَرْبه .

قال بعض أصحاب الحسن : ليت ابن آدم لم يُخلق . فقال حبيب العجَمى : فقد وقعتم فاحتالوا !

تالله ما اهتمَّ بالخَلاص إلا أهل التُّقى والإخلاص، أيامهم بالصلاح زاهرة ، ودولتهم للعدو قاهرة ، وأعينهم فى الدُّجَى ساهرة ، يخافون العَرْض على أرض الساهِرة ، والعقولُ للنفوس ناهية آمرة ، وأخلاق الثياب على أخلاقٍ طاهرة ، والدنيا عليهم والقلوب صابرة ، وفى الجملة باعوا الدنيا فاشتروا بها الآخرة .

قال أبو يزيد : جمعتُ أسباب الدنيا فربطتها بحبل القُنوع ، ووضعتها فى مِنْجَنيق الصدق ، ورميت بها فى جبل اليأس، فاسترحت :

قرِّب الحِرص مَرْكَبًا لشقيٍّ إنما الحرصُ مَرْكَب الأشقياء
مرحبًا بالكَفَاف يأتِى عفيًّا وعلى المتعبات ذُيل العَفاء
ضِلَّةً لامرئٍ يشمِّر فى الجم ع لعيشٍ مشمِّر للفَناء
دائبا يُكْثر القناطير للوا رث والعمر دائبا لانقضاء
حبَّذا كثرة القناطير لو كا ن لربِّ الكنوز كَنز بقاء
يَغْتدى يَرْحم الأسيرُ أسيرا جاهلا أنه من الأسَراء

(١) الأصل : من جبنته . محرفة .

يحسب الحظّ كلّه في يديه ... وهو منه على مَدى الجوزاء

ذلك الخائب الشقيّ وإن كا ... ن يرى أنه من السُّعداء[1]

الكلام على قوله تعالى

« فاليومَ لا تظلَمُ نفسٌ شيئا[2] »

ميزان العدل يوم القيامة مستقيم اللسان، تَبين فيه الذّرة فيجزى العبد على الكلمة قالها في الخير والنظرة نظرها في الشر، فيا من زادُه من الخير طفيف، احذر ميزانَ عَدْلٍ[3] لا يَحِيفُ.

أخبرنا ابن المذهب بسنده عن أبي عبد الرحمن الحُبْلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو ابن العاص يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله عز وجل يستخلص رجلًا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فيَنْشر عليه تسعة وتسعين سجلًّا كل سجل مَدّ البصر؛ ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمْتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيُبْهت الرجل فيقول: لا يارب فيقول: بلى؛ إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظُلْمَ[4] اليوم عليك؛ فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة[5] ».

البطاقة: القِطْعة.

---

(١) الأبيات لابن الرومي في ديوانه (٢) سورة يس ٥٤.

(٣) الأصل: ميزان عبد. محرفة.

(٤) الأصل: لا يظالم. (٥) أخرجه الترمذي في صحيحه ٢ / ١٤

أخبرنا محمد بن أبي طاهر بسنده عن يونس بن عبيد عن الحسن قال : بينا عائشة رضى الله عنها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بكَتْ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك؟ قالت: يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمّا فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً : عند الميزان حين يوضع حتى يعلم أتثقُل موازينه أم تخفّ ، وعند الكتاب حين يقال « هاؤم اقرءوا كتابيه » حتى يعلم أين يقع كتابه فى يمينه أو فى شماله أو وراء ظهره . وعند الصراط حين يوضع بين ظَهْرى جهنم حتى يعلم أينجو أم لا ينجو[1] .

(أخبرنا) الكَرُوخى بسنده عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وعن أبى سعيد رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له : ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا وسخّرت لك الأنعامَ والحَرْث وتركتك تَرْأس وتَرْبَع أكنت تظن أنكَ ملاقى يومكَ هـذا ؟ فيقول لا فيقول اليوم أنساكَ كما نسيتنى[2]

أخبرنا ابن الحُصَيْن بسنده عن شعبة عن قتادة عن أبى سعيد الخدرى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يَخلص المؤمنون يوم القيامة من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخول الجنة[3] » .

(١) أخرجه أبو داود فى سننه ، كتاب السنة .

(٢) صحيح مسلم كتاب الزهد حديث رقم ١٤ ، وسنن الترمذى كتاب القيامة ومسند أحمد ٢/ ٤٩٢ .

(٣) صحيح البخارى كتاب المظالم وكتاب الرقاق ومسند أحمد ٣ / ١٣

قوله تعالى : « ولا تُجْزَوْن إلا ما كنتم تعملون »

أتراك بأى عمل تُجْزَى، أتراك تُهَنَّى أو تُعزَّى، قلبك عند الصلاة فى غَيْبة، ولسانك فى الصوم فى غِيبة ، وما صفَتْ لكَ فى العمر ركعة ، وقد مرَّ أكثر الأجل بسرعة ، فانتبه قبل أن يفوت التدارك ، وفرِّغ قلبَك قبل أن تفرغ دارُك .

(أنبأنا) أحمد بن الحسين بن عثمان العطار بسنده عن جعفر بن الحسن ، عن أبيه، عن الحسن بن على عنَ على رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن فى الجنة لشجرة يخرج من أعلاها ومن أسفلها خيل من ذهب مُسْرَجة ملجمة بلجم من در وياقوت لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مَدَّ بصرها ،فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا فيقول الذين أسفل منهم درجة : يارب بِمَ بلغ عبادُك هذه الكرامة كلها ؟ قال فيقال لهم إنهم كانوا يصلّون الليل وأنتم تنامون ، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون ، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون ، وكانوا يقاتلون وكنتم تجْبنون .

قوله تعالى « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون »

وقرأ نافع وأبو عمرو فى شُغْل بإسكان الغين وقرأ ابن يعمر فى شَغْل بفتح الشين وإسكان الغين . وقرأ أبو هريرة فى شَغَل بفتحهما .

وللمفسرين فى المراد بذلك الشغل قولان : أحدهما : أنه افتضاض الأبكار . أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل » قال فى افتضاض الأبكار . والثانى : النعمة . قاله مجاهد .

وقال الحسن : شَغلهم نعيمهم عما فيه أهل النار من العذاب .

وفى قوله تعالى : فاكهون أربعة أقوال : أحدها : فَرِحون . قاله ابن عباس .

والثانى : مُعْجبون . قاله الحسن . والثالث : ناعمون. قاله مقاتل . والرابع: ذوو فاكهة، كما يقال لابِنٌ تامر[١]. قاله أبو عبيدة .

وقرأ أبو جعفر : فَكِهون . وهل هى بمعنى القراءة الأولى ؟ فيه قولان :

أحدهما : أنهما بمعنى واحد . كما يقال حاذِر وحَذِر . قاله الفرّاء . والثانى : أن الفكِه : الذى يتفكّه ، يقال فلان يتفكّه بالطعام . قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : « هم وأزواجهم فى ظلال »

الأزواج : الحلائل . والظِّلال جمع ظل. وقرأ حمزة والكسائى فى ظلَل . قاله الفراء وهى جمع ظل ، وقد تكون الظلال جمع ظلة أيضا .

قال المفسرون : المراد بالظلال كنا القصور . والمقصود أن بناء الجنة محكم عال فلو كان هناكَ شمس كان فى ظلهم ما يردّ .

أخبرنا عبد الأول أخبرنا الداودى ، أنبأنا ابن أعْيَن حدثنا الفَرَبْرى ، حدثنا البخارى ، عن مَعْمَر عن همّام بن منبه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أولُ زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ولا يَمْتخطون ولا يتغوّطون ، آنيتهم فيها الذهب وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم الألُوّة[٢] ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سُوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد ، يسبّحون الله بكرة وعشيا[٣] » (وقال كعب) لو أن امرأةً من نساء أهل الجنة بدَا مِعْصمها لَذهب ضوء الشمس ! .

---

(١) لابن تامر : أى ذو لبن وذو تمر .

(٢) الألوة : عود يتبخر به .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب بدء الخلق باب ماجاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة .

أخبرنا محمد بن منصور، عن عباد بن راشد، عن ثابت البُنَانى، قال: كنت عند أنس بن مالك فقدم عليه ابنٌ له من غزاة فساءله ثم قال ألا أخبركَ عن صاحبنا فلان؟ قال: بينما نحن فى غزاتنا قافلين إذ ثار وهو يقول: واأهلاه واأهلاه. فثُرْنا إليه فظننا أن عارضا عرض له فقلنا: له ما شأنك؟ فقال: إنى كنت أحدِّث نفسى أن لا أتزوج حتى أستشهد فيزوجنى الله تعالى الحور العين، فلما طالت علىّ الشهادة حدَّثت نفسى فى سفرى هذا إن أنا رجعت تزوجت، فأتانى آتٍ فى منامى فقال: أنت القائل: إن أنا رجعتُ تزوجت؟ قم فقد زوَّجكَ الله العَيْناء. فانطلق بى إلى روضة خضراء مُعْشبة فيها عَشْر جَوارٍ فى يد كل جارية صنعةٌ تَصْنعها لم أر مثلَهن فى الحُسْن والجمال، قلت لهن: فيكن العَيْناء؟ قلن: لا نحن من خدمها وهى أمامك، فانطلقت فإذا أنا بروضة أعْشَب من الأولى وأحسن فيها عشرون جارية فى يد كل جارية صنعة تصنعها ليس العَشْر إليهن بشىء من الحسن والجمال. قلت: فيكن العَيْناء؟ قلن: لا ونحن مِنْ خَدَمها وهى أمامَك. فمضيت فإذا أنا بَرْوضة أخرى أعْشَبَ من الأولى والثانية وأحسن، فيها أربعون جارية فى يد كل جارية صنعة تصنعها ليس العشر والعشرون إليهن بشىء فى الحسن والجمال فقلت: فيكن العَيْناء؟ قلن: لا نحن من خدمها وهى أمامكَ. فانطلقت فإذا أنا بياقوتة مجوَّفة فيها سرير عليها امرأة قد فضَلَتْ السرير قلت: أنت العيناء؟ قالت: نعم مرحبا فذهبتُ أضع يدى عليها فقالت: مَهْ إن فيك شيئا من الروح بعدُ، ولكنّ فِطْرَكَ عندنا الليلة.

قال: فما فرغ الرجل من حديثه حتى نادى منادٍ: يا خيل الله اركَبى وأبشرى بالجنة. قال: فجعلت أنظر إلى الرجل وأنظر إلى الشمس ونحن مُصَافّون العدوّ، وأذكر حديثه فما أدرى أيُّهما رأيته بَدَرَ أول؟ هو أو الشمس سقطَتْ أوّلَ؟

فقال أنس: رحمه الله تعالى.

(سجع)

ياهذا لقد بلَغ القومُ الآمال ، ونالوا مُلْكا عظيما لا يزال ، فأين ذاكَ التعب وتلكَ الأثقال ، وبقى المدحُ والتَّرَحُ زال ، « هم وأزواجهم فى ظلال » .

طالَما نصبوا فى خدمة ذى الجلَال ، فشغلتهم عن اللذات أشغال ، وأزعجتهم عن الشهوات أوْجال ، وقلقهم الموت إذا خطر بالقلب وجال ، فإذا وردوا تُلُقُّوا بالنوال ، « هم وأزواجهم فى ظلال » .

بالغ القوم فى التحقيق ، وأَخَذوا بالأمر الوثيق ، وأنذرهم الموتُ فما أَبْلَغهم الرفيق فجدُّوا حتى خرجوا من المضيق ، فأما البَطّال فإنه لما تلجَّح الطريق ، رآه قد طال .

صام القومُ عن الشهوات ، وقاموا لله فى الخلوات ، وحبَسوا الألسنَ عن فُضولِ الكلمات ، وتركوا فى الجلة جُمْلة اللذات ، فانقضى رمضانُ صومِهم ، وجاء شوال ، « هم وأزواجهم فى ظلال » .

كم بينكَ وبينهم ، أَسْخَن الشرُّ عينَكَ وأقرَّ الخيرُ أعينَهم ، نالوا الحظَّ ونِلْت الحَضِيض ، أين أنت وأين هم ، وإنما يُكَال للعبد كما كال .

سبحان مَنْ أصلحهم وسامحهم ، وعامَلهم فأَرْبَحهم ، وأثنَى عليهم ومدحهم ، وأقال مُجْتَرَحهم وقال : « هُمْ وأزواجُهم فى ظِلال » .

قطعوا المهامه ففازوا ، وعبَروا قناطر الخوف وجازُوا ، ونالوا غاية المُنَى وحازُوا ، فسَلِم الربحُ ورأسُ المال « هم وأزواجهم فى ظلال » .

قوله تعالى « على الأرائك متكئون »

قال ثعلب : لا تكون الأريكة إلا سريرا فى قبة عليه شواره ومتاعه ، والشوار متاع البيت .

تعبوا فأربحوا ، وزهدوا فأُبيحوا ، زال نصَبهم وارتفع تعبهم ، وحصل مقصودهم ، ورضى معبودهم .

قوله تعالى : « ولهم ما يَدَّعون » أى ما يتمنّون . قال ابن قتيبة : العرب تقول ادَّع ما شئت . أى تمنَّ ماشئت . وقال الزجّاج : هو مأخود من الدعاء والمعنى : كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم .

وقوله : « سلام » بدل من ما . والمعنى : لهم ما يتمنون سلام أى هذا مُنَى أهل الجنة أن يسلِّم الله عز وجل عليهم . و « قولًا » منصوب على معنى : لهم سلام يقوله الله قولا . وفى حديث جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يقول : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلكَ قوله عز وجل: «سلام قولا من رب رحيم» فينظر إليهم وينظرون إليه ولا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم.

(سجع)

أين المستعدون لهذا الأمر الجسيم ، أين المخاطر فى طلب ذا الفضل العظيم ، أين المتأهب لخِلَع الفوز والتقديم « سلام قولا من رب رحيم » .

لو رأيتهم فى دار الإقامة ، على غاية الفوز والسلامة ، وعلى القوم حُلَل الكرامة ، والملِك يُسْمعهم كلامه العزيز القديم ، « سلام قولا من رب رحيم » .

حلُّوا فى جوار الجبّار ، لحلوا بضائع الأسحار[1] ، فجوزوا أن قيل لهم: جُوزوا بلا عِثَار ، وأشرفُ من جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، أن أشرف عليهم الكريم بكل تكريم ، « سلام قولا من رب رحيم » .

طالما تَمَلْمَلُوا تَمَلْمُلَ السَّلِيم[2] ، وبكوا فى الدُّجى بكاء اليتيم، فانفشع الأمر إلى أنْ سامحَ الغَرِيم ، فأحلّهم برضوانه جناتِ النعيم ، والعيون تجرى من رحيق وتَسْنيم ، وواسطةُ ذلكَ العِقْد المُثَمّن النظيم ، « سلامٌ قولًا من رب رحيم » .

(١) أى العبادات التى كانوا يؤدونها فى وقت السحر . (٢) السليم : اللديغ .

المجلس الثانى

فى ذكر الطهارة

الحمد لله مُحْكِم المخلوق ومُتْقِن الصنعة ، ومالكِ يوم الحشر والجزاء والرَّجعة ، المقدِّر ما شاء فمن ذا الذى يستطيع دَفْعه ، أراد فلم ينتفع العبد إن بذل جُهده ووسعه ، وعلم إخلاص النية من مقصود السُّمعة ، وسَمِع فلم يَمْنع اختلافُ اللغاتِ سَمْعَه ، وأبصر حتى جَوْف الجَوْف وجريان الدَّمعة ، وشرَع فشهدت العقول بصحة الشِّرْعة ، ومنع فمن ذا الذى يعطى ما قدَّر مَنْعَه ، صفاتُه كذاتِه وما يُشْبِه الصانعُ صُنْعه ، الاستواء معلوم والكَيْفُ مجهول ، والإيمان به واجبٌ والسؤال عنه بِدْعة .

أحمده حمداً يدوم ما دامت الأيام السبعة ، وأشهد أنه فالِق الحب عن الطَّلْعة ، وأصلى على رسوله محمدٍ المبعوث بأفضل شِرْعة ، وعلى أبى بكر أول من جمع هذه الربعة ، وعلى عمر فتاح الأمصار فكم قلع قلعة ، وعلى عثمان الصابر على مضيض تلك الصرعة ، وعلى علىّ الذى مدائحه أنقَىُ من كل سلمة ، وعلى عمه العباس أبى الخلفاء وأكرم بهذا البيت رِفعة .

* * *

أخبرنا أبو الحسن الأنصارى بسنده عن يحيى أن زيدا حدثه أن أبا سلام حدثه ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطُّهُور شَطْر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لكَ أو عليك ، كل يَغْدو فبائعٌ نفسَه فمُعْتقها أو مُوبقُها .

انفرد بإخراجه مسلم[1] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الطهارة حديث رقم ١

اعلم أن الطهارة على أربعة أضرب :

الضرب الأول : تطهير البدن عن نجس أو حدث أو فضلة من البدن . فأما طهارة الأنجاس ففي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مرّ بقبرين فقال : « إنهما ليعذّبان وما يعذبان في كبير : أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول(١) » .

قال الخطّابي : معناه أنهما لم يعذبا في أمر كان بكبير عليهما فعله أو يشق .

وروى الدارقطني عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استنزهوا من البولِ فإن عامّة عذابِ القبر منه » .

وأما طهارة الأحداث ففي التفريط فيها وعيد شديد . ففي الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو قال: تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَفرة سافرناها فأدركنا ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجُلنا قال فنادى بأعلى صوته ، مرتين أو ثلاثا : « ويلٌ للأعقاب من النار(٢) » .

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل أمر بعبدٍ من عباده أن يُضرب في قبره مائة جَلْدة ، فلم يزل يَسْأل ويسأل حتى صارت جلدة واحدة ، فامتلأ قبره عليه نارا فلما أفاق قال : لم جلدتموني ؟ قالوا : إنكَ صلّيت صلاةً بغير طَهُور ، ومَررْت على مظلومٍ فلم تنصره » .

* * *

وقد مُدح إسباغُ الوضوء . (أخبرنا) هبة الله بن محمد بسنده عن جامع بن شداد قال سمعت عمران بن أبان يحدّث عن عثمان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله

(١) صحيح مسلم كتاب الطهارة حديث رقم ١١١

(٢) صحيح البخاري كتاب الوضوء ، وصحيح مسلم كتاب الطهارة حديث رقم ٢٥ — ٢٨ .

عليه وسلم : « من أتمّ الوضوء كما أمره الله عز وجل فالصلوات المكتوبات كفارةٌ لما بينهن[1] » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا توضأ العبدُ المسلم أو المؤمن فغسَل وجهه خرجت من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء أو نحو هذا فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشَتْها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيًّا من الذنوب » .

انفرد بإخراج الحديثين مسلم[2] .

وأما غسل الجنابة فروى أبو داود من حديث علىّ عليه السلام أنه قال : مِن تركَ موضع شعرة من جنابة لم يغسلها فُعل به كذا وكذا من النار قال عليه السلام : فمن ثَمّ عاديتُ رأسى . وكان يَجُزّ رأسه .

وأما الفضلات فنوعان : أوساخ تجتمع البراجم والأسنان . قال مجاهــد : أبطأ المَلَكُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه فقال لعلّى أبطأتُ ؟ قال : قد فعلتَ . قال : وما لى لا أفعل وأنتم لا تتسوّكون ولا تقصّون أظفاركم ولا تُنَقّون بَراجمكم !

قال ابن الأنبارى : البراجم : الفُصوص التى فى فصول ظهور الأصابع تبدو إذا جُمعت وتغمض إذا بُسطت . والرّواجب : ما بين البراجم ، بين كل بُرْجمتين راجبة .

أخبرنا عبد الأول بسنــده عن أبى الزّناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لولا أن أشق على أمتى ، أو على الناس ، لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة .

أخرجاه فى الصحيحين[3] .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الطهارة حديث رقم ١١ (٢) صحيح مسلم كتاب الطهارة .

(٣) صحيح البخارى كتاب الجمعة وكتاب الصوم وكتاب التمنى . وصحيح مسلم كتاب الطهارة حديث رقم ٤٢ .

وأخرجا من حديث حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يَشُوص فاه بالسواك[١] .

قال أبو عبيد : الشَّوْص وَالمَوْص : الغَسل . وقال ابن الأعرابى : الشوص: الدلك والموص : الغسل .

أخبرنا علىّ بن عبد الله وأحمد بن الحسين وعبد الرحمن بن محمد بسندهم عن معاوية بن يحيى عن الزهرى عن عائشة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تفضل الصلاة التى يستاك لها على الصلاة التى لا يستاك لهـا سبعين ضِعْفا ، ويفضل الذكر الخفى على غيره من الذكر بسبعين ضعفاً » .

وأما الأجزاء : فقص الشارب ونتف الإبط وحَلْق العانة وتقليم الأظفار .

* * *

والضرب الثانى : تطهير الجوارح عن الآثام . قال الله عز وجل : « إن السمعَ والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا »[٢] .

واعلم أن الجوارح كالسواقى توصل إلى القلب الصافى والكدِر ، فمن كفَّها عن الشر جلت معدة القلب بما فيها من الأخلاط فأذابتها وكفى بذلكَ حِمْية، فإذا جاء الدواء صادف محلا قابِلًا .

ومن أطلقها فى الذنوب أوصلت إلى القلب وسخ الخطايا وظُلَم المعاصى ، فلو وضع الدواء كان بينه وبين القلب حِجَاب ، فلا تـكاد الجوارح تسلم من الخطايا إلا بالعزلة ، فمن أمكنه فما أحسنه ، ومن لم يمكنه تحفَّظ فى مخالطته للخلق تحفُّظَ المجاهد فى الحرب .

* * *

(١) صحيح البخارى كتاب الوضوء وكتاب التهجد . وصحيح مسلم كتاب الطهارة ، حديث رقم ٤٦ و ٤٧ .

(٢) سورة الإسراء ٣٦ .

والضرب الثالث : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة من الحرص والحقد والحسد والكبر وغير ذلك ، ولا يمكن معالجته من أدوائه بدوائه حتى تقع الحِمْية التى وصفناها فى كفّ الجوارح ، ثم يعالَج كلُّ داء بدوائه . وكم من متعبد يبالغ فى كثرة الصلاة والصوم ولا يعانى صلاح القلب، وقد يكون عنده الكبر والرياء والنفاق والجهل بالعلم ولا يحسُّ بذلك ، وقد يكون تطلُّعه إلى تقبيل يدِه وإجابة دعائه ، وهذه آفات لا دواء لها إلا الرياضة بالعلم ليقع التهذيبُ بإصلاح دائِه ، وإنما تَنفع العبادة وتظهر آثارها وتَبِينُ لذّاتها مع إصلاح أمراض القلب .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن عبد الرحيم بن يحيى الدّبلى قال : حدثنى عثمان بن عمارة فقال : ورَدْتُ الحجرة[1] مرةً فإذا أنا بمحمد بن ثَوْبان وإبراهيم بن أدهم وعَبَّاد المقرئ وهم يتكلمون بكلام لا أعقله ، فقلت لهم : يرحمكم الله ؛ إنى شابٌّ كما ترون أصوم النهار وأقوم الليل وأحجّ سنةً وأغزو سنة ، ما أرى فى نفسى زيادةً . فشُغل القوم عنى حتى ظننت أنهم لم يفهموا كلامى ثم حان من واحد منهم التفاتة فقال: ياغلام إنّ همّ القوم لم يكن فى كثرة الصلاة والصيام إنما كان همُّ القوم فى نفاذ الأبصار حتى أبصروا .

* * *

الضرب الرابع: تطهير السرّ عمّا سوى الله عز وجل . وهذه المرتبة العليا ولم تحصل إلا لمن تجلّت له أوصاف الحبيب فدخل فى دائرة المحبة .

أخبرنا عمر بن ظفر بسنده عن سعيد بن عبد العزيز قال : أخبرنا أحمد بن أبى الحوارى قال : سأل محمود أبا سليمان وأنا حاضر : ما أقربُ ما يُتقرب به إلى الله عز وجل فبكى أبو سليمان ثم قال : مثلى يُسْأل عن هذا ! أقرب ما يتقرب به إليه أن يَطَّلع على قلبكَ وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو[2] .

---

(١) كذا ، وحجرة : بلد باليمن كما فى معجم البلدان . (٢) ذم الهوى ٧٧ .

قال ابن جَهْضَم : وحدثنا عبدالجبار بن بشران قال : سمعت سهلًا يقول : من نظر إلى الله عز وجل قريبا منه بَعُدَ عن قلبه كل شيء سوى الله عز وجل ومن طلب مرضاتَه أرضاه الله عز وجل ومن أسْلَم قلبه إليه تولى الله جوارحه[1] .

قال ابن جهضم : وحـــدثنى أحمد بن علىّ قال حدثنى عباس بن عبد الله الهاشمى قال : سمعت سهل بن عبد الله يقول : ما من ساعة إلا والله مُطَّلع على قـــلوب العباد ، فأىّ قلب رأى فيه غيره سلّط عليه إبليس[2] .

قال ابن جهضم : وحدثنى عمر بن يحيى قال سئل الشِّبْلى عن قوله عز وجل « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » فقال : أبصارَ الرءوس عمّا حرم الله ، وأبصارَ القلوب عمّا سوى الله عز وجل[3]

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن علىّ بن عبد العزيز قال سمعت أحمد بن أبى الحَوارى يقول : بات أبو سليمان ذات ليلة فلما انتصف الليلُ قام ليتوضأ فلما أدخل يده فى الإناء بقى على حاله حتى انفجر الصبح وكان وقت الإقامة فخشيت أن تفوت صلاته فقلت : الصلاة يرحمكَ الله فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال : يا أحمـــد أدخلت يدى فى الإناء فعارَضنى عارضٌ من سرِّى : هَبْ أنكَ غسلت بالماء ما ظهر منكَ ، فبماذا تغسل قلبك ؟ فبقيت متفكرا حتى قلت : بالهموم والأحزان فيما يفوتنى من الأنس بالله عز وجل .

* * *

يا هذا إذاتوضأت بغير نية قيل للماء: ابذل له البَلَل لا الطهارة، فإذا نويت قيل له طهارة الظاهر ، فإذا صفا قلبك فقد حصلت طهارتُك حقيقةً !

---

(١) ذم الهوى ٧٧ .   (٢) ذم الهوى ٧٧ .   (٣) ذم الهوى ٧٩ .

(الكلام على البسملة)

أرى الناسَ سَفْرا فى طريق المتالفِ ... فمِنْ بالغٍ أخرى المدَى ومُشارفِ
وما بَطْن هذى الأرض إلا قرارةٌ ... وأرواحُنا مثلُ السيول الجوَارف
وما الدهرُ إلا جَولة ثم أوْلَةٌ ... ونحن بِرَصاد الرقيبِ المشارفِ

أيها المتفكر فى القبور الدوارسِ ، الباكى على من كان به يستأنس ، ابكِ مُطْلَقا ما يَرْعوى بِنَقْل أهل المحابِس ، تيقظْ للخَلَاص ، فإلى كم أنت ناعس ، وقُمْ مبادرا للفَوْت فإلى كم أنت جالس ، ليت شعرى متى تتزود ، ومتى تُبيضّ القلبَ الأسود ، أين الفرار والرقيب بالمرصد ، إلى متى مع الزلل والإسراف، إلى كم مع الخطايا والاقتراف، أين الندم وأين الاعتراف ، لقد سمعتَ من الوعظ كلّ شافٍ كاف ، أنت فيما ينفعكَ قاعد ، وفيما يضر ناهض ، تتوب بلسانكَ وتضر بجنانكَ ، أتُناقض ؟ الشرُّ فى باطنك داخل فى الغوامض ، أسَدُ الشَّرى فى البيع والشِّرا ، فإذا يرى الخديعة خلا المرابض ، يا غافلا عما قد أعدّ له أمَكْر هذا أم بَلَه، ما عُذْر من تمثّر فى ظلمات العيب، بعد إضاءة نور الشيب ، يا أسفى من للمحتضَر ، إذا علم من قد حضَر، وقلّب الطّرْف متحيرا و نظر ، ورأى العجائب وقلّب البصر ، وندم على إغفاله زاد السفر ، وجرى دمع الأسى ثم انهمر واحتاج إلى قليل من الزاد وافتقر، ولم ينفعه كل مَسْتور مُدّخر، وتقطع فؤاده أسفا وانفطر، إن هذا لعبرة لمن اعتبر ، إن كان قد سبقك الغير فأنت على الأثر ، ياهذا الحسابُ شديد والطريق بعيد وقد خاف من لا خوف عليه ، فكيف سكَن من لا أمن له !

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول : وَدِدْتُ أنى شَعْرة فى صدر مؤمن .

وكان عمر رضى الله عنه يقول : وَددْتُ أنى أفلِت كفَافًا لا علىّ ولا لى لو أن لى طِلَاعَ الأرض ذهباً وفضة لافتديتُ بها من هَوْل المُطَّلَع ، لو أن لى الدنيا وما فيها لافتديت بها من هول ما أمامى قبل أن أعلم ما الخبر .

لما طُعِن عمر رضى الله عنه قال له ابن عباس رضى الله عنهما: لِتَهْنِكَ الجنةُ يا أمير المؤمنين. فقال : غُرَّ بهذا غيرى يا ابن عباس قال : ولم لا أقول لكَ هذا ؟ فو الله إنْ كان إسلامكَ لَعِزًّا وإن كانت هجرتك لَفتحا وإن كانت ولايتكَ لَعَدْلا ولقد قُتلت مظلوما . فقال : تشهد لى بذلك عند الله يوم القيامة ؟ فكأنَّه تلكَّأ فقال له علىٌّ بن أبى طالب من جانبه نعم يا أمير المؤمنين نشهد لكَ بذلك عند الله يوم القيامة .

هذا خوف عمر رضى الله عنه وأين مثل عمر ! كانت الصوامت تنطق بفضله وهو أسير خوفه وحُزنه ولو رأيته لقلت له :

سَلْ عن فضائلك الزمانَ فتَخْبُرَا ... فنظير مجدكَ لا أراه ولا يُرَى
أوْ لَا فَدَعْه وادَّعِ الشرفَ الذى ... أعْيَا الأنام فلستَ تَلْقَى مُنْكِرا
ما احتاج يوماً أن يقام بشاهد ... حقٌّ أزال الشكَّ واجتاح المِرَا
فلقد جمعتَ مناقبا ما استجمعتْ ... مشهورةً ما استعْجَمَتْ فتفسَّرا
فضَلَ الأنامَ وأنت أنبَهُم قَرا[1] ... فى حمل نائبة وأعجلهم قِرَا
لو لَمْ تملَّكك الأمورُ قيادَها ... صَفِقَتْ[2] قُرًى مما عَرَى وَوَهَتْ عُرَى
فتقدَّمِ الأمراء غير منازَع ... فوراء زندك كلُّ زند قد وَرى
ما بين مَجْدك والمحاولِ مثله ... إلا كما بين الثُّريَّا والثَّرَى

وكان عمر رضى الله عنه يقول : لو أنى بين الجنة والنار لا أدرى إلى أيتهما أصير لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير .

وكان علىٌّ عليه السلام يقول : آه من قِلَّة الزاد وبُعْد السفر ووحشة الطريق ! واعجبا لخوفهم مع التقوى وأمْنكَ مع المعاصى !

---

(١) القرا : الظهر .

(٢) صفقت : ضعفت أو اضطربت .

يا سكران الهوى متى تُفيق ، رحَـــل الأحبابُ وما عرفتَ الطريق ، واتسعت الرّحاب وأنت فى المضيق ، وقد بقى القليل ونغصٌ بالريق ، وتعاين زفير الموت وتعالج الشهيق ، ويبطل القوىّ ويخرس المِنْطِيق ، وتُغْمَس فى بحر التلف ومن للغريق ، ويخلو ببدنكَ الدود للتقطيع والتمزيق ، وخرب الحِصْن وحطم الغُصْن الوَرِيق ، وخـلَوْت بأعمالكَ وتجافاك الصديق ، فإذا قمت من قبركَ فما تدرى فى أى فريق ، يا مُعْرضا كلّ الإعراض عنًى ، كم رسولٍ قد أتاكَ منًى ، ويحك عنًى أمنيةَ المتمنًى ، أنصرٌ على معصيتى وتقول ظنًى ، أتنقض عزمكَ معى ومع العدوّ تَبْنِى ، أتترك كلامى وتختار أن تغنًى ، ياللهوى كم صار بشَرَكه ، كم عَقَل عقلًا فدار فى فَلَكه ، كم غيّر نورا من الهدى بحَلَكه ، كم بطل بطلا فى حربه ومُعْتركه ، كم أبكى مغرورا بعد لهوه وضحكه ، كيف يفرح مَن الموت بَيْن يديه ، وكيف يلهو من مالُه بلاء عليه ، وكيف يغفل ورُسل الموت تختلف إليه ، كيف يلتذ بوطنه من يرى اللحد بعينيه :

إنى أبثُّك مِنْ حديثى — والحديثُ له شجونُ
غيَّرتُ مَوْضع مَرْقدِى — لَيْلا ففارقنى السُّكونُ
قُلْ لى فأولُ ليـــلةٍ — فى القبر كيف تُرَى تكونُ ؟!

الكلام على قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتُصْبِح الأرض مخضرّة »(١)

المراد بالماء ها هنا المطر . وقد جعل الله عز وجل الريح سببا لإثارته فقال عز وجل : « الله الذى أرسَل الرياحَ فتثير سحابا(٢) » وكان النبى صلى الله عليه وسلم ينزعج إذا رأى الريح أو الغَيْم .

(١) سورة الحج ٦٣ (٢) سورة الروم ٤٨ .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن أبى النضر ، عن سليمان بن يسار ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى غيما أو ريحا عُرف ذلكَ فى وجهه فقلت يا رسول الله الناسُ إذا رأوا الغيم فرحوا رجاءَ أن يكون فيه المطر وأراكَ إذا رأيتَه عرفتُ فى وجهك الكراهيةَ . فقال : يا عائشة ما يؤمننى أن أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذِّب قومٌ بالريح ، وقد رأى قومٌ العذاب فقالوا : « هذا عارضٌ مُمْطرنا » .

أخرجاه فى الصحيحين[1] .

وقال ابن عباس : الرياح ثمان : أربع رحمة ، وأربع عذاب . الرحمة : المبشِّرات، والمنْشِراتُ ، والمرسَلات ، والرُّخَاء . والعذاب : العاصف ، والقاصِف وهما فى البحر ، والعقيم والصَّرْصر ، وهما فى البَرّ .

وفى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إنى أسألك خَيْرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به وأعوذ بكَ من شَرِّها وشر ما أُرسلت به .

وروى ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوتَ الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تُهْلكنا بعذابكَ وعافنا قبل ذلكَ »[2] .

قال ابن عباس : الرعد صوت ملكَ يَزْجر السحاب كما ينعق الراعى بالغنم . وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد يقول : إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض . وقال شهر

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير سورة الأحقاف .
وصحيح مسلم كتاب الاستسقاء حديث رقم ١٦ .
(٢) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الدعوات .

ابن حَوْشَب : الرعد ملَكٌ موكل بالسحاب يسوقه كما يسوق الحادى الإبل يسبّح كلما خالفت سحابة صاح بها فإذا اشتد غضبه طار النار من فيه[١] .

وسمع سليمان بن عبد الملك صوت الرعد فانزعج فقال عمر بن عبد العزيز : هـذا صوت رحمة فكيف لو جاء بسخط ؟ !

وقال علىّ كرم الله وجهه : البرق مخاريق بأيدى الملائكة يسوقون بها السحاب .

وقال أبو الجلد : البرق هو تلألؤ الماء ، والصواعق مخاريق يُزْجَر بها السحاب .

قال عطاء : الصّاعقة لا تصيب ذا كرَ الله تعالى .

وقال ابن عباس : ما من عام أكثر مطرا من عام ولكن الله تعالى يصرّفه فى الأرضين .

قال عطاء بن أبى رَبَاح : قال موسى عليه السلام : يا رب هـذا الغيث لا ينزل ، وينزل فلا ينفع ؟ قال : لكثرة الزنا وظهور الرّبا .

وقال عمر رضى الله عنه : إن الرَّجْف من كثرة الزنا وإن قحوط المطر من قضاة السوء وأئمة الجَوْر .

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده ، عن محمد بن واسع ، عن سمير بن نهار ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «قال ربكم عز وجل : لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوتَ الرعد»[٢] .

قال هرون : وحدثنا عنان بن مبارك ، عن فضَالة قال سمعت الحسن يقول : كانوا

---

(١) هذه الأقوال ليس لها مستند صحيح ، وقد عرف المحققون من العلماء الأقدمين الأسباب العلمية لتلك الظاهرة ، ومنهم الشريف الرضى فى كتابه « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » ص ١٧٦ (تحقيق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن) .

(٢) ذم الهوى ص ١٨٥ .

يقولون ـ يعنى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ـ الحمد لله الذى لو جعل هـذا الخلق خَلْقا دائما لا يتصرف لقال الشاكُّ فى الله عز وجل : لو كان لهذا الخَلْق رَبٌّ لحادَثه ، وإن الله تعالى قد حادَث بما ترون من الآيات ، إنه قد جاء بضَوْء طبَّق ما بين الخافقين وجعل فيها معاشا وسراجاً وهّاجاً ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق ، وجاء بظُلمة طبقت ما بين الخافقين وجعل فيها سَكَناً ونجوماً وقمرا منيرا وإذا شاء بنى بناء جعل فيه المطر والرعد والبرق والصواعق ، وإذا شاء صرف ذلك، وإذا شاء جاء ببرد يُقَرْقف الناس وإذا شاء جاء بحرٍّ يأخذ بأنفاس الناس ليعلم الناسُ أن لهذا الخلق ربا يحادثه بما يرون من الآيات كلها ، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا استسقى يقول : اللهم اسقِ عبادكَ وبهائمك ، وانشر رحمتك ، اللهم اسقنا غيثا هنيئا مريعا غَدَقا طبقا عاجلا غير رائث نافعا غير ضار اللهم اسقنا سُقْيا وادعة نافعة .

قال أنس: أصابنا مطر فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحَسَر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثوبه حتى أصابه المطر وقال : إنه حديثُ عهد بربه .

وفى لفظ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُلْقى ثيابه أول مَطْرة تمطر .

وقال عكرمة : كان ابن عباس إذا مُطر يقول : ياعكرمة اخرج الرياح أخرج كذا حتى يصيبه المطر .

وقال عبيد بن عمير: يبعث الله ريحا فتقمِّ الأرض ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث المؤلِّفة فتؤلفه ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر .

وقال عكرمة : ينزل الله عز وجل الماء من السماء السابعة فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير . قال كعب : والسحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد ما يقع عليه .

وقال ابن عباس : المطر مزاجه من الجنة فإذا كثر المزاج كثرت البركة وإذا جاء القطر من السماء فُتحت له الأصداف فكان لؤلؤا .

وفى حديث أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : عند نزول الغيث تفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء .

قال المفسرون : إذا نزل القطر على الأرض اهتزت أى تحركت للنبات ، فإذا أراد الخروج ارتفعت عنه فهو معنى قوله عز وجل « وربَتْ وأنبتت من كلِّ زَوْج » أى من كل جنس « بَهِيج » أى أنه يُبْهِج ويسر .

* * *

يامن قد أجدبَتْ أرضُ قَلْبه ، متى تَهبّ ريح المواعظ فتثير سحابا ، فيه رعود تخويف وبروق خشية فتقع قطرة على صَخْر القلب فيتروَّى ويُنْبِت ؟!

يا من أجْدَبت أرض قلبه ، واشتغل عنها ولهَا،اخرج إلى صحراء التيقّظ واستَسْق لها ، هيهات أن تخضرّ أرض القلب حتى يتروَّى الخدُّ من عَيْن العين . لا تيأس من جَدْب الجدْب فليس بمستحيلٍ أن يستحيل .

سجع

سبحان المتفرد بالقدرة ، فلا تَقْدر الخلائقُ قَدْره ، أنَّمِمن يُطيق شُكره ، كلا إن الغافل فى سكرة « أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرضُ مخضرّة » .

جَلَّ صفةً وعَزَّ اسما ، وبسَط أرضاً ورفع سَما ، وأنزل من السماء ماء ، فحيى النباتُ فسمُّوه خَبْرة « فتصبح الأرض مخضرة »

تعرفه القلوب والألباب ، ويسبِّحه الصَّحْو والضَّباب ، انبعث الغيم فما توقف السحاب ، أقبل الرعد فى صَرّة « فتصبح الأرض مخضرة » .

تأخَّر الغيث فتمكن الضرّ ، ثم جاء فالمؤمن بذلكَ سُرّ ، فاستغاث النباتُ مماعَرّ ، فجاء بعد أن كان قد مَرّ ، كم كَرَّ كَرَّةً بعدَ كرة « فتصبح الأرض مخضرة » .

أصبح الثرى عطشان ينادِى واليُبْس عليه ظاهرٌ بادِى ، فصاح الرعد بالسحاب صياح الحادى ، فتروّى الوادِى وسالت الجرّة « فتصبح الأرض مخضرة » .

انبعث السحابُ فطَبَّق الأرْجاَ ، وصاح البدوىُّ فى البَدْو : النَّجاَ ، والجرون متلئمة بالغثا ، دب ثم نعش ثم قَطْمَط ثم أفرط ثم جاء بكرّة « فتصبح الأرض مخضرة » .

انكشفت سماء الأرض عن بُدورها ، وأذنت الغائبات النبات فى حضورها ، ولم تَخُن الأرضُ من بَذْر نباتها ذَرَّة « فتصبح الأرض مخضرّة » .

أحضرت أمهات الزرع عن بناتها، واجتمعت الأغصان بالقطر بعد شتاتها، وتزينت للناظرين بأنواع نباتها ، ولقد كانت عرّة « فتصبح الأرض مخضرّة » .

فشت الزينة فى الصحارى والبرى، وأظهرت عجائب القدرة فيما يرى، وأشاع الثرى كما ترى من المكتوم سِرّه « فتصبح الأرض مخضرّة » .

ماتت تحت الأرض كل البذور، فإذا الرعد ينفخ فى الصور، فضحك النَّوْر بالنُّور لمّا سرّه « فتصبح الأرض مخضرّة » .

قام ميِّت البذر من حُفْرته ، وقدِم بعد طول سَفْرته ، ومنح النبات لكثرته قانعة ومُعْترّة « فتصبح الأرض مخضرّة » .

تكلمت الأطيار والمعنى مفهوم ، وارتاحت بنطقها حتى البُوم ، وتبدلت الأرضُ الفرحَ من الهموم ، فانقلبت تلك الغموم كلها مَسرّة « فتصبح الأرض مخضرّة » .

جِيدت الأرض فروّت التراب ، وأُجيدت المواعظ فهل أحضرَت الألباب ؟ ! ، وما يؤثر اللومُ والعتاب ، إلا عند نفسٍ حُرّة « فتصبح الأرض مخضرّة » .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

المجلس الثالث

فى ذكر الصلاة

الحمد لله الذى أوضح سبيل هدايته لأرباب ولايته ، وأبهج وحرّك أهل عبادته إلى معاملته وأزعج ، وأبدع بدائع قدرته فى محكم صنعه وأخرج ، وأوقد نيران محبته فى أفئدة أحبته وأحج ، من عرف لطفه ثنى عِطْفه إليه وأدْلج ، ومن خاف عَتْبه ترك ذنبه وتحرّج ، يُحب الإخلاص فى الأعمال ولا يخفى عليه البهرج ، حليم فإن غضب مكَر بالعبد واستدرج ، لا يُغترّ بحلمه فكم عقاب فى الحلم أدْرج ، واعتبرْ بأبيكَ إذ فسّح لنفسه فى شهوة وأمرَج ، وحام حولى المنهى اغتراراً بالصفح وعرّج ، كيف أضْبح إكرامه بربر الهوان يُمزّج ، وأضحى ينسج الصوف إذ عرى عما يُنسج ، وصار مغبرّ القدمين بعد فَرس العزّ المُسْرَج ، ولم تزل تجرى دموع عينيه إلى أن تاب عليه وفرّج ، لا يَخفى عليه ضمير القلب ، وإن تلوّى اللسان ومَجْمَج[1] ، ولا يغيب عن بصره فى سواد الليل طَرْف أدعج ، يُبصر جرْى اللبن يَسرى فى العروق نحو المخرج ، وينزل إلى السماء الدنيا فأين الذى بالمناجاة يَلهجْ ، فيستعرض الحوائج إلى أن يلوح الفجر وينبلج وما انتقلَ ومن عقَل رأى الحق أبلج ، هذا مذهبٌ من القرآن القديم والنّقل القويم مُستخرج ، وهو المنهاج العظيم فلا تعرّج عن المنهج .

أحمده على ما سرّ وما أزعج ، وأشهد بوحدانيته بغير تلجْلُج ، شهادة موقن ما تجَلْج ، وأن محمدا عبده ورسوله الذى محاسن الشرائع فى شريعته تُدْرَج ، صلى الله عليه وعلى أبى بكر أول من أنفق من ماله وأخرج ، وعلى عمر الذى اضطر كسرى إلى الهرب وأحوَج ، وعلى عثمان المظلوم وقد عُزل وما عَدَل ولا عرّج ، وعلى علىّ مبيد الطغاة وآخرهم المخدّج ، وعلى عمه العباس الذى قرن الله نسبه بنسب الرسول وأزْوَج.

* * *

---

(١) مجمج فى خبره : لم يبينه .

(أخبرنا) هبة الله بن محمد ، قال : حدثنا الحسين بن على التميمى ، أنبأنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، سمعت الأوزاعى يقول: حدثنى الوليد بن هشام المعيطى ، حدثنا معدان بسنده إلى ابن أبى طلحة اليعمرى ، قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أخبرنى بعملٍ أعمله يدخلنى الجنة أو قال قلت بأحب الأعمال إلى الله فسكت ثم سألته الثانية فسكت ، ثم سألته الثالثة فقال : سألتُ عن ذلكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « عليكَ بكثرة السجود ، فإنكَ لا تسجد لله سجدة إلا رفعَكَ الله بها درجةً وحَطَّ عنك بها خطيئة » قال معدان : ثم لقيت أبا الدرداء فسألته فقال لى مثل ما قال لى ثوبان .

انفرد بإخراجه مسلم .

(اعلم) أن الله عز وجل عظَّم قَدْر الصلاة لأنها أوْفَى خدمة العبد ، والمراد من العبد التعبد ، وهى جامعة بين خضوع بدنه ونُطْق لسانه وحضور قلبه ، وإن الله تعالى جعل عبادة ملائكته بين سجود وركوع وذِكْر ، وذلكَ مجموع فى الصلاة ، وليس لنا فعل يدخل به الكافر فى حكم الإسلام ويخرج بتركه المسلم من الإسلام إلا الصلاة ، فإن عندنا[1] أن الكافر إذا صلَّى حُكِم بإسلامه سواء صلَّى مع جماعة أو منفردا فيُجْبَر عندنا على الإسلام . وعن أبى حنيفة روايتان إحداهما كقولنا . والثانية : اشْتَرط أن يكون فى جماعة . وقال الشافعى : إذا صلَّى الحَرْبِىُّ فى دار الإسلام حُكم بإسلامه .

وأما تارك الصلاة فلا يختلف مذهبنا عن مذهب أحمد رضى الله عنه أنه يقتل حَدًّا أو كفرا . فيه روايتان . إحداهما : يُقتل لكُفْره . وهو قول عمر وابن مسعود وابن عباس وجماعة وجابر والشَّعْبى والأَوْزاعى رضى الله عنهم . وقد دل على هذا ما أخرجه

(١) أى : عند الحنابلة .

مسلم فى أفراده من حديث جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بَيْن العبد وبين الكفر ترك صلاة » .

والرواية الثانية : يقتل حَدًّا لا أنه يكفر . وهو قول مالك والشافعى . وقال أبو حنيفة : يُحْبس ولا يستتاب ولا يُقتل .

واعلم أن الشرع عظّم أمر الصلاة وضرب الأمثال بفضلها .

أخبرنا عبد الملك بن أبى القاسم ، أنبأنا أبو عامر الأزدى وأبو بكر الغُورَجىّ ، قالا أخبرنا أبو محمد الجراحى ، أنبأنا أبو العباس المحبوبى ، أنبأنا الترمذى ، حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث عن أبى الهادى عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء قالوا : لا . قال فذلكَ مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

أخرجاه فى الصحيحين .

وفى أفراد مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان ، مكفِّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

وفى أفراده من حديث عثمان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب مالم تُؤْت كبيرة ، وذلكَ الدهرَ كله » .

(أخبرنا) سعيد بن أحمد بسنده إلى مجاهد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استقيموا ولن تُحْصُوا ، واعلموا أن فضل أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن .

وقد فضَّل الشرعُ تقديم الصلاة فى أول الوقت .

ففى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أىّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى ؟ قال : « الصلاة على وقتها » .

* * *

وفضِّلت الصلاة فى الجماعة .

ففى الصحيحين من حديث ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاة الجماعة تَفْضل على الصلاة الفَذِّ بسبع وعشرين درجة »(١) .

وروى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى أربعين يوما فى جماعة لم تَفتْه ركعة واحدة كتب الله له براءتَيْن : براءة من النار ، وبراءة من النفاق » .

(أخبرنا) محمد بن ناصر بسنده قال البغوى سمعت عبد الله بن عمر القواريرى يقول : لم تكن تفوتنى صلاة العتمة فى جماعة ، فنزل بى ضيف فشُغلت به فخرجت أطلب الصلاة فى قبائل البصرة فإذا الناس قد صلّوا وخَلت القبائل ، فقلت فى نفسى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ خمسا وعشرين درجة » . وروى « سبعا وعشرين » . فانقلبت إلى منزلى فصليت العتمةَ سبعا وعشرين مرة ، ثم رقدت فرأيتنى مع قوم راكبى أفراس وأنا راكب فرسا كأفراسهم ونحن نتجارَى فالتفت إلىّ أحدهم فقال لا تُجْهِد فرسكَ فلستَ بلاحقنا . فقلت : فلم ذاكَ ؟ قال : إنا صلَّينا العَتمةَ فى جماعة .

* * *

وورَد الثوابُ لمنتظر الصلاة .

فروى فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه

وسلم أنه قال: «لا يزال أحدكم فى صلاة ما كانت الصلاة تحْبِسه لا يمنعه إلا انتظارها».

وفى حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا يزال أحدكم فى صلاة ما كانت الصلاة تحْبِسه لا يمنعه إلا انتظارها[1] ».

وفى حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال صلَّينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المغربَ فعقَّب من عقب ورجع من رجع، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يحْسِر ثيابه عن ركبتيه فقال: « أبشروا يامعشر المسلمين، فهذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يُبَاهى بكم الملائكة يقول: «هؤلاء عبادى قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى[2] »

وقد عظم الصف الأول فروى فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لو يعلم الناسُ ما فى الصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يَسْتَهموا لاستهموا[3] »

وفى أفراد مسلم من حديث أبى هريرة أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لو يعلم الناسُ ما فى الصف المقدَّم لكانت قُرْعة[4] ».

وقد أمر المصلى بخفض رأسه استعمالا لأدب الخدمة فروى مسلم فى أفراده من حديث جابر بن سَمُرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة أو لا ترجع إليهم[5] ».

وأمر المصلى بالتثبُّت فى الركوع والسجود؛ حدثنا الكَرُوخى بسنده عن عمير عن أبى

---

(١) صحيح البخارى كتاب الأذان ١ / ٦٨ (ط الأميرية) بلفظ آخر وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة حديث رقم ٢٧٢ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى كتاب المساجد باب ١٩ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٨٤ . وصحيح مسلم كتاب الصلاة حديث رقم ١٢٩ .

(٤) صحيح مسلم كتاب الصلاة حديث رقم ١٣١

(٥) صحيح مسلم كتاب الصلاة حديث رقم ١١٧ .

مَعْمَر عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُجْزِئْ صلاةٌ لا يقيم فيها الرَّجل يعنى صُلْبه فى الركوع والسجود[1] » .

وفى حديث ابن شَيْبان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا ينظر الله تعالى إلى رجل لا يقيم صُلْبه فى الركوع والسجود[2] » .

* * *

واعلم أن المقصود بالصلاة إنما هو تعظيم المعبود ، وتعظيمه لا يكون إلا بحضور القلب فى الخدمة . وقد كان فى السلف من يتغيَّر إذا حضرت الصلاة ويقول : أتَرَوْن بين يدى من أريد أن أقف ؟ !

وأنت تعلم أن من حضر قلبُهُ فى تعظيم سُلْطانه فحضر بين يديه من يعرف من إلى جانبه امتلأ بهيبة المعظَّم ، فإذا أردت استجلابَ حضور قلبك الغائب ففرِّغه من الشواغل مهما استطعت .

وقد كان أرباب التفكر من السلف يشاهدون فى كل شىء عبرة ، فيذكرون بالأذان نداء العرْض ، وبطهارة البدَن تطهير القلب ، وبستر العورة طلب ستر القبائح من عيوب الباطن ، وباستقبال القبلة صَرْف القلب إلى المتقلِّب ، فمن لم تكن صلاته هكذا فقلْبه غافل .

* * *

ياهذا إذا صلَّيت والقلبُ غائب وجوده فالصلاة كالعدَم ، وهو بالرُّوم مقيم وله بالشام قلب ، ياذاهل القلبِ فى الصلاة حاضر الذهن فى الهوى ، جسدُه فى المحراب وقلبُه فى بلاد الغفلة .

(١) أخرجه الترمذى فى صحيحه ١ / ٥٥ . (ط الأميرية)

(٢) قال الترمذى : وفى الباب عن على ابن شيبان وأنس وأبى هريرة ورفاعة الزرقى .

جاء مملوك إلى سيده فقال : ضاعت مِخلاة الفرس ، فقام السيد يصلى ، فلما فرغ من الصلاة قال : هى فى موضع كذا وكذا : فقال الغلام : ياسيدى أعِد الصلاة فإنك كنت تفتّش على المخلاة !

قال الحسن : يابن آدم إذا هانت عليك صلاتك فما الذى يَعِزّ عليك ؟

ولما كان المطلوب حضور القلب جاء الوعد بالثواب الجزيل عليه . أخبرنا ابن الحصين بسنده عن زيد بن أسْلم عن زيد بن خالد الجهنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلّى سجدتين لا يسهو فيهما غفر الله له ما تقدم من ذنبه »(١) .

وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من توضأ فأسبغ الوضوء ثم قام إلى الصلاة فأتم ركوعها وسجودها والقراءة فيها قالت : حَفِظك الله كما حفظتنى. ثم يُصْعد بها إلى السماء ولها ضوء ونور فتفتح لها أبواب السماء حتى تنتهى إلى الله عز وجل فتَشْفع لصاحبها . فإذا لم يُتم ركوعها ولا سجودها ولا القراءة فيها قالت : ضيعك الله كما ضيعتنى . ثم أُصعدت إلى السماء وعليها ظلمة فأُغلقت دونها أبواب السماء فلُفّت كما يلف الثوب الخلق، فيُضرب بها وجه صاحبها »(٢)

(الكلام على البسملة)

لا تأسفَنّ لأمرٍ فات مَطْلَبه ... هيهات ما فات الدنيا بمردود
إذا اقتضت أحذَتْ نَقْدا وإن سُئلت ... فدَأْبها بالأمانى والمواعيدِ
وما السرورُ بها الموروث آخره ... أن يُتْبِع الحِرْصَ إلا قلبُ مَكْدودِ
وللتأسف يَبْقى كلّ مُدّخر ... وللمنيّة يَغْدو كلُّ مولودِ

* * *

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ٤ / ٧ ١١ ، ٥ / ١٩٤ .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والبزار بنحوه ، وفيه الأحوص بن حكيم، وثقه ابن المدينى والعجلى وضعفه جماعه وبقية رجاله ثقات . مجمع الزوائد ٢ / ١٢٢ .

يا مخلوقا من علق ، اكتف من الدنيا بالعُلَق[1] ، واحذر فى ريّ الهوى من شرق ، وتذكّر يوم الرحيل ذاك القلق ، وتفكّر فى هاجم يسوّى بين الملوك والسوق ؛ وتأهب له فربما بكّر وربما طرق ، يا من شاب وما تاب، استلب باقى الرمق، أبعد الحلم جَهْل أم بعد الشيب نزق ، كان الشباب غُصْنا غَضًّا فخلّى عن ورق ، وأنت فى الشباب كالشيب تجرى على نسق ، يا غريقا فى الهوى صِحْ من قبل الغرق ، كم طالب خلاصا لما فات ما اتفق .

لَيأتينك من الموت ما لا يقبل رِشْوة ولا مالا ، إذا حال على القوى والقوبهم مالا ، يا مختار الهوى جهلا وضلالا ، لقد حمّلت أزرك أوزارا ثِقالا ، إياك والمنى فكم وعد المنى مُحالا ، كم قال لطالب نِعَم : نَعَم سأعطيك نوالا وقد نوى : لا .

كم سقى الموتُ من الحسرات كؤوسا ، كم فرّغ رَبْعا عامرا مأنوسا ، كم طمس بدورا وشُموساً واستلب نعيما ثم أعطى بُوسا ، وأذل جبابرة كانوا شُوسا ، وأغمض عيونا ونكّس رءوسا وأبدل التراب عن الثياب ملبوسا .

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلا   فشتّان فيه أدرك الحظ أو أخطا
وليس بَنِي يوماً سُرورٍ وغبْطة   بُحزن إذا المعطِى استرد الذى أعطا

* * *

ذهب الشباب الأسود، وانقضى العيش الأرغد ، وقال الشيب : أنا الموت وما أبعد، هذا وقلبُ الغافل كالجَلْمد :

لا بِدْع إن ضحك القَتِير[2]   فبكى لضِحْكته الكبيرُ
عاصَى العَزاء عن الشبا   ب وطاوَع الدمعُ الغَزيرُ
سُقْيا لأيام مضَتْ   فطويلُها عندى قصيرُ

(١) العلق : جمع علقة وهى ما يتبلغ به .

(٢) القتير : الشيب .

شَقِى الشبابُ وإنْ عَفَى آثارَ معهــــده القَتِيرُ
ما كانَ إلا المَلْكَ أوْ دَى بل هَوَى وهَوى السَّريرُ
هوِّن عليك فإنهــا خِلَعٌ أعارَكها مُعِــيرُ
والدهــر يَقْسم مَرّةً نَفلاً وآونةً يُغِــيرُ

* * *

كلُّ راحات الدنيا هموم وكروب ، أما دوام العيش بالمشيب مَشُوب .

نظر سليمان بن وهب وزير المهتدى يوما فى المرآة فرأى شيبا كثيرا فقال : عيبٌ لا عَدمنا .

أنت كل يوم إلى القبر تقترب ، وسترحل إلى البلى وتتغرب ، وسيأكل المحب بعدك ويشرب ، وكأنك إذا ذُكرت أضْرَب ، فخذ العُدَّة فخيلُ الشدة تسرَّب ، واسمع نصحى فنصحى مجرّب ، ياهـذا احذر الأمل ، وبادر العمل ، فكأنك بالأجل على عجل . أمَا الأعمار كل يوم ناقصة ، أما الفجائع واردة واقصة(١) ، أمَا النكبات لأهلها مُمَاقِصة ، أما كفُّ الموت قابضة قانصة ، فأنّى لساكن الدنيا بالسلامة الخالصة ، كأنك بالموت قد ثلَب وقدَح(٢) ، وأورَى زنادَ الرحيل وقدَح ، وخلَتْ كفُّك يامن تعب وكدح ، وتساوى لديك من ذمّ ومن مدح ، ماهذه العمارة لدار خَراب ، كلما عمرها قومٌ صاح بينهم للبَيْن غُراب ، أتَبْنى وأنت تُنقَض ، هذا العُجاب :

رُبَّ شريفٍ البناء عاليه بالشِّيد(٣) والساج كان بانِيهِ
كأنما الشمسُ فى جوانبـه بالليـل من حُسْنه تُبَاهيهِ

(١) الواقصة : المهلكة .
(٢) ثلب : لام وعاب . وقدح فيه : طعن .
(٣) الشيد : ماطلى به الحائط من جص ونحوه .

تَحــار فى صَحْنه الرياحُ كما يحار سارِى الظلامِ فى التِّيه
كانت صحونٌ فيحٌ تضيق به فالشِّبْر فى القــبر صار يكفيه

الجدَّ الجدَّ قبل بغتات المنايا ، البِدَار البِدارَ قبل حلول الرزايا، ليحلّن بكم من الموت يوم ذو ظلَم ينسيكم معاشرة اللذات والنِّعم ، ولا يُبقى فى الأفواه إلا طعم الندم :

سل بالزمان خبيرا إنى به لعليمُ
واهى الأمانة ظاعنٌ بالمرء وهو مقيمُ
لا تُخْدَعن بمُنْيَةٍ أمُّ الخلود عقيمُ
وإذا المنيَّة أبرقَتْ فرجاؤك المهزومُ
عِشْق البقاء وإنمــا طولُ الحياة همومُ

* * *

ما هذه الخصال المذمومة ، أيؤثر الفَهُوم لذةً مَسْمومة ، إن هذه لعقول مرجومة ، متى تيقظ هذه النفوس اللوامة ، إنها لظالمة وكأنها مظلومة ، تُعاهدوا والعهودُ كلَّ يوم مهدومة ، لتتمنينّ أن تكون فى غد معدومة ، لتعلمنّ أن اختياراتها كانت مشئومة، من لها إذا بدت لها خصال مكتومة ، كيف تصنع إذا نشرت الصحف مختومة ، ما هذا الحرص الشديد والأرزاق مقسومة، تصبح حزينة وتمسى مهمومة، أتقدر على رد ما يُقْدَر والأمور مختومة ، أسفاً لها الموتُ يطلبها وهو نؤومة، ماحاربت جندَ هوًى إلا وعادت مهزومة ، يا لها موعظة بين المواعظ كالأيام المعلومة أحسن من اللآلئ المنثورة. والعقود المنظومة .

الـكلام على قوله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنهـــا مبعدون[1] » .

سبب نزولها أنه لما نزل : « إنـكم وما تعبدون من دون الله حَصب جهنم » شق ذلك على قريش وقالوا : شتم آلهتنا فجاء ابن الزبَعْرى فقال : ما لـكم؟ قالوا : شتم آلهتنا قال : وما قال ؟ فأخبروه فقال : ادعوه لى . فلما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد هذا شىء لآلهتنا خاصة أو لـكل من عبد من دون الله ؟ قال: بل لـكل من عُبد من دون الله عز وجل . قال ابن الزبعرى : خُصِمْت وربِّ هذه البنيَّة ! ألست تزعم أن الملائـكة عبَاد صالحون وأن عيسى عبد صالح ، وأن عزيراً عبدٌ صالح ؟ فهذه بنو مليح يعبدون الملائـكة ، وهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيراً . فضجّ أهل مكة فنزلت هذه الآية . قاله ابن عباس .

اسم ابن الزِّبَعْرَى : عبد الله كان يهجو أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم [والزبعرى] بفتح الباء .

قال المفسرون : وإنما أراد بقوله « وما تعبدون » الأصنام ؛ لأنه لو أراد الملائـكة والناس [لقال] ومن .

والحسنى عند العرب : كلة توقع كل محبوب ومطلوب ؛ قال امرؤ القيس : —

فصِرْنا[2] إلى الحسنى ورقَّ كلامنا ورُضْت فذلّت صَعْبةٌ أىَّ إذلالِ

* * *

وقوله تعالى : « أولئك عنها » أى عن جهنم « مُبْعَدون » والبعد طول المسافة. والحسيس : الصوت تسمعه من الشىء إذا مرّ قريبا منك .

---

(١) سورة الأنبياء ١٠١

(٢) الأصل : نظرنا محرفة

وقال ابن عباس : لا يسمع أهلُ الجنة حسيسَ أهل النار إذا نزلوا منازلهم من الجنة « وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون » .

أخبرنا عبد الأول بسنده إلى عطاء بن يسار عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوما يحدِّث وعنده رجل من أهل البادية فقال : إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع فقال له : أو لستَ فيما شئت ؟ قال : بلى ولكنى أحب أن أزرع . فأسرع وبذَر فبادر الطرفَ نباتُه واستواؤه واستحصاده ، فيقول الله عز وجلّ : دونك يابن آدم لا يشبعك شىء . فقال الأعرابى : يا رسول الله لا نجد هذا إلا قُرَشيًّا أو أنصاريا فإنهم أصحاب زرع فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

انفرد بإخراجه البخارى(١) .

قوله تعالى « لا يَحْزُنهم الفَزَعُ الأكبر » فيه أربعة أقوال : أحدها : أنه النفخة الأخيرة رواه العَوْفى عن ابن عباس . والثانى : أنها إطباق النار على أهلها . رواه ابن جُبَيْر عن ابن عباس . والثالث : أنه ذَبْح الموت بين الجنة والنار . قاله ابن جُرَيْج . والرابع : أنه حين يؤمَر بالعبد إلى النار . قاله الحسن .

قوله : « وتتلقاهم الملائكة » اختلفوا فى محلّ التلقِّى على قولين : أحدهما : أنه إذا قاموا من قبورهم . قاله مُقَاتِل . والثانى : على أبواب الجنة . قاله ابن السائب .

قوله : « هذا يوْمُكم الذى كنتم توعدون » فيه إضمار : يقولون هذا يومكم الذى كنتم توعدون فيه الجنة .

* * *

(١) صحيح البخارى ٤ / ٢٤٦ (كتاب التوحيد باب كلام الرب مع أهل الجنة)

أين من يعمل لذلك اليوم ، أين المتيقِّظ من سِنَة النوم ، أين من يلحق بأولئك القوم ، جدُّوا فى الصلاة وأخروا فى الصوم ، وعاذوا على النفوس بالتوبيخ واللوم ، ليتك إن لم تقدر على الإشمام لطريقتهم حصَّلت الرَّوْم .

قوله تعالى : « يوم نطْوى السماء » وذلك بمحو رسومها وتكدير نجومها وتكوير شمسها « كطى السِّجلِّ » وفى السجل أربعة أقوال : أحدها أنه مَلَك . قاله علىّ بن أبى طالب ، وابن عُمَر ، والسُّدِّى .

والثانى : كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه أبو الجوْزاء عن ابن عباس .

والثالث : السجل بمعنى الرجل . روى عن ابن عباس . قال شيخنا أبو منصور اللُّغَوى : وقد قيل : السجلّ بمعنى لغة الحبشة : الرجل .

والرابع : أنها الصحيفة . رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس . وبه قال مجاهد والفرَّاء وابن قتيبة .

وقرأت على شيخنا أبى المنصور قال : قال أبو بكر بن دُرَيْد : السجل : الكتاب والله أعلم . ولا ألتفت إلى قولهم أنه فارسى معرب .

والمعنى : كما يُطْوَى السجل على ما فيه من الكتاب . واللام بمعنى على . وقال بعض العلماء : المراد بالكتاب المكتوب ؛ فلما كان المكتوب ينطوى بانطواء الصحيفة جُعل السجل كأنه يَطْوى الكتابَ .

ثم استأنف فقال : « كما بَدَأْنا أولَ خَلْقٍ نُعيده » وفى معناه أربعة أقوال: أحدها كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم حفاةً عُراة غُرْلًا ، كذلك نعيدهم يوم القيامة .

أخبرنا عبد الأول بسنده عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه

وسلم أنه قال : « إنكم تُحْشَرون حفاةً عراة غُرْلًا كما بدأنا أول خَلْقٍ نُعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » .

أخرجاه فى الصحيحين[1] .

والغَرِل : القَلِف ، يقال هو أقلَف وأغْرَل وأغلَف بمعنى واحد .

وفى بعض الأحاديث بُهْماً . ومعناه : سالمين من عاهات الدنيا وآفاتها لا جُـذَام بهم ولا بَرص ولا عمًى ولا غير ذلك من البلايا لكنهم يحشرون بأجساد مصححة لخلود الأبد ، إما فى الجنة وإما فى النار، والبُهْم من قول العرب: أسود بهيم وكُمَيْت بهيم وأشْقَر بهيم : إذا كان لا يخالط لونه لون آخر ، فكذلك هؤلاء يبعثون معافَيْن عافية لا يخالطها سقم .

والثانى : أن المعنى : أنا نهلك كل شىء كما كان أول مرة ، رواه العَوْفى عن ابن عباس .

والثالث : أن السماء تمطر أربعين يوما كمنىِّ الرجال فينبتون بالمطر فى قبورهم كما ينبتون فى بطون أمهاتهم . رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والقول الرابع أن المعنى : قُدْرتنا على الإعادة كقدرتنا على الابتداء . قاله الزجاج.

* * *

ياله من يوم ما أعجب أحْواله وما أصعب أهـوالـه وما أكثر أو حاله ، مريض طَرْده لا يُرْجَى له ، ذِكْر القيامة أزعج المتقين وخَوْف العَرْض أقلق المذنبين ، ويومُ الحساب أبكى العابدين ، وأرى قلبَك عند ذكره لا يلين .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عبد الرحمن بن محمد المكّارى عن موسى الجُهَنى قال: سمعت عونَ بن عبد الله يقول:وَيحِى كيف أغفل ولا يُغْفَل عنى، أم كيف تَهْنيِنى

(١) صحيح البخارى ٤ / ١٠٩ وصحيح مسلم كتاب الجنة حديث رقم ٥٦ ، ٥٩ .

معيشتي واليوم الثقيل ورائى ، أم كيف لا يَطُول حزنى ولا أدرى ما فُعل فى ذَنْبى ، أم كيف أؤخر عملى ولا أعلم متى أجَلى ، أم كيف يشتد عَجبى بالدنيا وليست بدارى ، أم كيف أجمع لها وفى غيرها قرارى ، أم كيف تعظُم رغبتى فيها والقليل منها يكفينى ، أم كيف آمن فيها ولا يدوم فيها حالى، أم كيف يشتد حرصى عليها ولا ينفعنى ما تركتُ منها بعدى ، أم كيف أوثرها وقد ضَرَّت من آثرها قَبْلى ، أم كيف لا أفك نفسى من قبل أن يَغْلَقَ رَهْنى .

قال عبد الله بن الحسن بن عبد العزيز الجرَوى ، قال : حدثنا عبد الله بن يوسف الدمشقى ، قال : حدثنا محمد بن سليمان بن بلال ، أن أمه عَثَّامة كُف بَصرها فدخل عليها ابنها يوماً وقد صلَّى فقالت : أصليتم أىْ بنىّ ؟ فقال : نعم . فقالت :

عثّام مالكِ لاهية ... حلّت بدارك داهيهْ
ابكى الصلاة لوقتها ... إن كنت يوما باكيهْ
وابكى القرآن إذا تُلِى ... أن كنت يوماً تاليه
تتلينه بتفكُّر ... ودموعُ عينك جاريهْ
فاليوم لا تتْلينه ... إلا وعندك تاليهْ
لهفى عليك صبابة ... ما عشتُ طول حياتيه(1)

* * *

يا غافلا عن القيامة ستدرى بمن تقع الندامة ، يا مُعْرضا عن الاستقامة أين وجه السلامه ، يا مبنيًّا بالقدرة سيُنْقَض بناؤك ، ويا مستأنسا بداره ستخلو أوطانك ، يا كثير الخطايا سيخفّ ميزانك ، يا مشغولا بلهوه سيُنْشَر ديوانك ، يا أعجمى الفهم متى تفهم ، أتمادِى النصيح وتوالِى الأرقم(2) ، وتُؤثر على طاعة الله كَسْبَ درهم ،

(1) الرواية فى ذم الهوى لابن الجوزى أيضا .
(2) الأرقم : أخبث الحيات وأطلبها للناس .

وتفرح بذنبٍ عقوبته جهنم ، ستعلم حالك غدا ستعلم ، سترى من يبكى ومن يندم ، إذا جثا الخليلُ وتزلزل ابنُ مريم ، يا عاشق الدنيا كم مات متيَّم ، يا من إذا خطرت له معصية صمَّم ، ما فعلك فعلُ من يريد أن يَسْلم ، ما للفلاح علامة والله أعلم إن كان ثم عُذر فقل وتكلم .

أيها المثخن نفسه بجراحات الشباب ، حسبك ما قد مضى سوَّدتَ الكتاب ، أبعد الشيب وَعْظ أو زجر أو عتاب ، هيهات تفرقت وصل الوَصْل وتقطعت الأسباب .

حَسْبك ماقد مضى من اللعب — فتب إلى الله فعْل مرتقبِ
طواك مرُّ السنين فاطو ثياب اللـ — ـهو واخلع جلابيب الطربِ
وتُبْ فإن الجحيم تنتظر الأشْـ — ـيبَ إن مات وهو لم يتُبِ
تظهر منها عليه أغلظ ما — تظهره للشباب من غضبِ

السجع على قوله تعالى « كما بدأنا أول خلق نعيده .

يامن لا يؤثِّر عنده وعدُه ووعيده ، ولا يزعجه تخويفه وتهديده ، يامطلقًا ستَغْلّه بيدُه ، ثم يُفنيه البِلَى ويُبيده ، ثم ينفخ فى الصور فيبتدأ تجـديده « كما بدأنا أولَ خَلْق نعيده » .

فرقنا بالموت ماجمعنا ، ومزقنا بالتلف ما ضيعنا ، فإذا نفخنا فى الصور أسمعنا ، محكم الميعاد فى الميعاد ونجيده « كما بدأنا أولَ خلْق نعيده » .

كم حسرة فى يوم الحسرة ، وكم سكرة من أجل سكرة ، يوماً قد جعل خمسين ألف سنة قَدْره ، كل ساعة فيه أشد من ساعة العسرة ، نَبْنى فيه ما نقضناه ونشيده « كما بدأنا أول خلق نعيده » .

قرَّبنا الصالحين منا وأبعدنا العاصين عنا ، أحببنا فى القِدَم وأبغضنا ، فمن قضينا عليه بالشقاء أهلكنا ، فهو أسير البعد وطَريده ، ومن سبقت لهم منا الحسنى فنحن نُنعم عليه ونفيده « كما بدأنا أولَ خَلْق نعيده » .

يومٌ كلُّه أهوال ، شُغْله لا كالأشغال ، يتقلقل فيه القلب والبال ، فتذهل عقول النساء والرجال ، ومن شدة ذلك الحال لا ينادى وليده .

تجرى العيون وابلا وطَلّا ، وترى العاصى يقلق ويتملّى ، ويتمنى العَوْدَ فيقال : كَلّا . والويلُ كل الويل لمن لا نريده. تَخْشَع فيه الأملاك ، وتَطيِّر فيه الضِّحَاك ، ويعز على المحبوس الفِكَاك . فأمّا المؤمن التقى فذاك عبده .

إخوانى : ارجعوا بحسن النُّزوع والأَوْبة ، واغسلوا بمياه الدموع ماضى الحَوْبة ، وقد نصَبْنا للمذْنب شَرَكَ التوبة ، أفترى اليوم تصيده .

يا من لا يزال مطالَبا مطلوبا ، يامن أصبح كل فعله محسوبا ، إن حرَّكك الوعظُ إلى التوبة صرت محبوبا ، وإن كان الشقا عليك مكتوبا فما ينفع ترديده .

المجلس الرابع
فى ذكر الزكاة

الحمد لله الذى لا واضع لما رفع ، ولا رافع لما وضع ، ولا واصل لما قَطع ولا مفرِّق لما جَمع ، سبحانه من مقدر ضُرٍّ ونفع ، وحكَم فالكل حُكْمه كيف وقع، أمرَض حتى أتى على شَدَنا ثم شَفى الوجع ، ووَاصَل من شاء ومن شاء قطَع ، جعل العصاة فى خفَارة الطائعين وفى كنَف القوم وسَـــع ، « ولولا دَفْع الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ لهدِّمت صَوامعُ وبِيَــع »(١).

أحمده على ما أعطى ومنع ، وأشكره إذ كشف للبصائر سِرَّ الخَدَع ، وأشهد بأنه واحد أحكم ما صنع ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله والكفر قد علا وارتفع ، ففرَّق بمجاهدته من شَرِّه ما اجتمع، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبى بكر الذى نَجم نجمُ سعادته يوم الردَّة وطلَع ، وعلى عمر الذى عزَّ الإسلام به وامتنع ، وعلى عثمان المقتول ظلما وما ابتدع ، وعلى علىّ الذى دَحض الكفر بجهاده وقَمَع ، وعلى عمه العباس الذى سئل به سَيْل السحاب فهمَع . اللهم يا من إلى بابه كلُّ راغب رجـــع ، اجعلنا ممن بالمواعظ انتفع ، واحفظنا من موافقة الطَّبْع والطمَع وانفعنى بما أقول وكل من استمع .

* * *

قال الله تبارك وتعالى : « والذين يَــكْنِزون الذهبَ والفضة ولا يُنْفقونها فى سبيل الله فبشِّرهم بعذاب أليم »(٢).

الكنز : ما لم يؤدَّ زكاته . أخبرنا عبد الأول بسنده عن الليث بن سعد عن

---

(١) سورة الحج ٤٠ .

(٢) سورة التوبة ٣٤ .

نافع أن عبدالله بن عمر قال: ما كان من مال تؤدَّى زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفونا، وما ليس مدفونا لا تؤدى زكاته؛ فإنه الكنز الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه .

وفى قوله : « ولا يُنفقونها » قولان ، ذكرهما الزجاج : أحدهما : أن المعنى يرجع إلى الكنوز والثانى : إلى الفضة . وقال أبو عبيدة : العرب إذا أشركوا بين اثنين قصَروا فأخبروا عن أحدهما استغناء بذلك وتخفيفا بمعرفة السامع أن الآخر قد شاركه ودخل معه فى ذلك الخبر :

ومن يك أمسَى بالمدينة رَحْله فإنى وقَيَّارٌ بها لَغريبُ

قوله تعالى : « فبشِّرهم بعذابٍ أليم » . أى اجعل مكان البِشارة هذا .

قوله عز وجل: « يوم يُحْمَى عليها فى نار جهنم ». يعنى الأموال. قال ابن مسعود: ما من رجل يُكْوَى بكنز فيوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ، ولكن يوسَّع فى جلده فيوضع كل دينار على حِدَته .

وقال ابن عباس : هى حيَّة تُطْوَى على جنبيه وجبهته فتقول : أنا مالُك الذى بخلْتَ به .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن المعْرور بن سُوَيْد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى ظل الكعبة فقال : هم الأَخسرون وربِّ الكعبة . قالها ثلاث مرات . قال : فأخذنى غمّ وجعلت أتنفّس ، قال : قلت هذا شر حدَث فىّ . قال: قلت: مَن هم فداكَ أبى وأمى؟ قال: الأكثرون أموالًا إلا من قال فى عباد الله ، هكذا وهكذا ، وقليل ما هم ، ما من رجل يموت فيترك غنما أو إبلا أو بقرا لا يؤدِّى زكاتها إلا جاءته يوم القيامة أعظَم ما تكون وأسْمَن حتى تطأه بأظلافها وتنطحه بقرونها حتى يقضى الله بين الناس ثم تعود أولاها على أخراها » . أخرجاه فى الصحيحين[١] .

(١) صحيح البخارى ٤ / ١٢٣ ط الأميرية (كتاب الأيمان) وصحيح مسلم كتاب الزكاة حديث رقم ٥٩ .

وبالإسناد عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من صاحب إبل لا يفعل فيها حقّها إلا جاءته يوم القيامة أكثر ما كانت قط وقعد لها بقاع قَرْقر[1] تنطحه بقرونها وتطؤه بقوائمها ، ولا صاحب غنم لا يفعل بها حقها إلا جاءت أكثر ما كانت وقعد لها بقاع قَرْقر تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ليس فيها جمّاء ولا منكسر قرنها ، ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه إلا جاء يوم القيامة شجاعا أقرع يتبعه فاغراً فاه فإذا أتاه مرّ منه فيناديه ربه : خُذْ كنزَكَ الذى خبّأتَه فإنى عنه أغنى منك فإذا رأى أن لا بد له منه سلك بيده فى فيه فيَقْضمها قضم الفحل » .

انفرد بإخراجه مسلم[2] .

وفى أفراده من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدّى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فأُحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جبهته وجنبه وظهره كلما ردّت أُعيدت إليه أولاها أعيدت أخراها أعيدت إليه فى يوم كان مقداره : خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »[3] .

أخبرنا عبد الأول بسنده عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالا فلم يؤدّ زكاته مثّل له ماله شجاعا أقرع له زَبيبتان يطوّقه يوم القيامة يأخذ بلِهْزمتَيْهِ يعنى شِدْقيه يقول : أنا مالك أنا كنزك وتلا هذه الآية: « ولا يَحسَبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم » الآية » .

انفرد بإخراجه البخارى[4] .

(١) القرقر : القاع الأملس .
(٢) صحيح مسلم كتاب الزكاة حديث رقم ٢٧ .
(٣) صحيح مسلم كتاب الزكاة حديث رقم ٢٦ .
(٤) صحيح البخارى ١ / ١٨٣ ط الأميرية .

فإن قيل : لم خص الجباه والجنوب والظهور من بقية البدن ؟

فجوابه من وجهين : أحدها : أن هـذه المواضع مجوّفة فيصل الحرّ إلى أجوافها ، بخلاف اليد والرجـل ، وكان أبو ذر يقول : بشر الكنازين بكيّ فى الجباه وكى فى الجنوب وكيّ فى الظهور حتى يلتقى الحرّ فى أجوافهم . والثانى: أن الغنى إذا رأى الفقير انقبض وإذا ضمه وإياه مجلس ازورّ عنه وولّاه ظهره ، فكويت تلك المواضع منه . قاله أبو بكر الورّاق .

قوله تعالى: «هذا ما كنزتم لأنفسكم» للمعنى: هذا ما ادخرتم لأنفسكم «فذوقوا ما كنتم تكنزون» أى عذاب ذلك اليوم .

* * *

واعلم أن الزكاة أحد أركان الإسلام . قال صلى الله عليه وسلم : « بُنى الإسلام على خمس » فذكر منهن الزكاة .

وينبغى للمتيقظ أن يفهم المراد من الزكاة ، وذلك ثلاثة أشياء :

أحدها: الابتلاء بإخراج المحبوب. والثانى: التنزه عن صفة البخل المهلك. والثالث: شكر نعمة المال ، فليتذكر إنعام الله عليه إذ هو المعطى لا المعطَى .

وعليه ألّا يؤخرها إذا حالَ الحولُ لأنها حق للفقير ، ويجوز تقديمها على الحول ، ولا يجوز إعطاء العِوَض باعتبار القيمة[1] . وينبغى أن ينتقى الأجود للفقير ، فإن الذى يعطيه هو الذى يلقاه يوم القيامة ، فليتخيّر لنفسه ما يصدّق به ، وأن يقدم فقراء أهله ويتحرى بها أهلَ الدّين ، ولا يُبْطل صدقته بالمنّ والأذى ، فليعطِ الفقيرَ بانشراح ولُطف حتى كأن الفقير هو الذى يُنعِم بما يأخذه ، وليستر عطاءه أهلَ المروءات فإنهم

(١) هذا على مذهب أحمد بن حنبل، وفى بعض المذاهب الأخرى يجوز إخراج القيمة .

لا يؤثرون كشف ستر الحاجة ، فإن خطر له أن الزكاة ينبغي أن تشاع لئلا يتهم الإنسان، ففي من لا يستحيى إذا أخذها كثرة، فليشعها عند أولئك وليترك أرباب الأنفة تحت ستر الله عز وجل .

(الكلام على البسملة)

غوالبُ راحةِ الدنيا عَنَاء   وما تعطيه من هِبة هباء
وما دامت على عَهْد بخلق   ولا وعدتْ فكان لها وفاء
تُذيق حلاوةً وتذيق مُرًّا   وليس لذا ولا هذا بقاء
وتجلو نفسها لك في المعاصي   وفى ذاك الجلاء لها الجلاء
إذا نشرتْ لواء الملك فيها   لوى قَلْبَ الغنىّ لها اللّواء
فدَعْها راغباً فى ظل عيش   ومُلك ماله أبدا فناء

* * *

عجبا لمن عرف الدنيا ثم اغتر ، أما يقيس ما بقى بما مرّ ، أيؤثر لبيبٌ على الخير الشرّ ، أيختار الفَطن على النفع الضر ، كم نعمة عليك قد سلفتها وما قمت بفريضة كُلِّفتها ، إذا دعيت إلى التوبة سوّفتها ، وإن جاءت الصلاة ضيّعتها ، وإذا قمت في العبادة خففّتها ، وإذا لاح لك وجه الدنيا ترشّفتها ، لقد آفتك آفةُ الدنيا وما أفتها ، إنها لدار قُلْعة تضيّفتها أو ليس قد شِبْت وما عرفتها، كم حيلة فى مكاسبها تلطّفتها، ولو شغلتك عنها آيات تأفّفتها ، كم بادية فى أرباحها تعسّفتها ، كم قِفَار فى طلبها طُفتها ، كم كذبات من أجل الدنيا زَخرفتها ، لقد استثمرت محبتها إى والله والتَحَفْتها ، تحضر المسجدَ وقلبك مع التى أَلِفتها ، أوَ ما يكفيك أموالك وقد أَلّفتها ، تا الله لو علمت ما تجنى عِفْتَها . أنسيت تلك الذنوب التى أسلفتها ، ألستَ الذى تذكّرتها ثم خِفْتها ،

آه لمراحل أيام قطعتها وحلفتها ، آه لبضائع عمر بذرت فيها وأتلفتها ، لو أردت خيرا وبختها وعفتها ، لو قبلتها بالوفاق فهلا خالفتها .

* * *

إخوانى : قولوا للمفرط الجانى ، قال لك الشيب : أما ترانى ، أنا كتاب الوهن والضعف عنوانى ، وليس فى السطور إلا أنك فانى :

أنكرتْ سَلْمَى مَشِيباً عَرانى ورأتنى غيرَ ما قد تَرانى
أشرف الشيبُ على لِمَّتى[1] وشباب المرء ظِلٌّ للزمان[2]
إنما أنت لما قد ترى لا يَغرَّنْك ضمانٌ للأمانى[3]
هل ترى من عائش خالدٍ كم ترى من هالكٍ قد صار فانى
لو أعنت العَيْن إذا أبصرت واعظاتِى بفؤادى لكفانى[4]
أىّ شىء أتقى والردَى بَيْن جنبىَّ بعينىَّ يدانى
كل يوم ناقصٌ دولةً من بقائى جاذبٌ منى عِنانى
وألاقيه بلا جُنَّة فإذا شاء أن يَدْمى لحيِنى رمانى
تابعٌ يَتْبع ماضِىَّ كما يُتْبع العاملُ جَرًّا للسانى[5]
لذة الدنيا إذا ما حضروا فإذا غابوا فشُغْل للأمانى
ما اطمأن الدهرُ حتى تقضوا فكأنْ لم أرهُمْ فى مكانِ

* * *

(١) اللمة بالكسر : الشعر المجاوز شحمة الأذن .
(٢) الأصل : ظل الزمانى . محرفة .
(٣) الأصل : ضمان .
(٤) الأصل : كمانى .
(٥) كذا بالأصل .

أين أهل العزائم رحلوا وماتوا ، أين أهل اليقظة ذهبوا وفاتوا ، قف على قبورهم تجد ريح العَزْم ، تنفّس عندها تحب روحَ الحزْم ، أقبلوا بالقلوب على مقلّبها ، وأقاموا النفوس لدى مؤدّبها ومدُّوا الباعَ من باع التسليم إلى صاحبها ، وأحضروا الأخرى فنظروا إلى غايتها وسهروا الليالى كأنهم قد وكّلوا برعْى كواكبها ، ونادوا نفوسهم صبرا على نار البلاء لمن كواك بها ، ومقتوا الدنيا فما مال الملأ إلى ملاعبها ، واشتاقوا إلى الحبيب فاستطالوا مدة المقام بها .

أنتم على البُعْـد همومى إذا   غِبْتُمْ وأشجـانى على القُرْبِ
لا أتْبع القلب إلى غيركم   عَيْنى لكم عَيْنٌ على قَلْـبى

إن لم تكن معهم فى السَّحر فتلمّح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى ، واقرأ فى صحائف الوجوه سطور القبول بمداد الأنوار ، وجوهٌ ينهاها الحسْن أن تتقَنّعا .

أين أنت من القوم ، كم بين اليقظة والنوم ، يا بعيد السلامة قد قرّبت منك النّعامة[1] ياعديم الاستقامة، ما أرى لنجاتك علامة ، أعمالك لاتصلح للجنة وخصالك الباطنة أوصاف .

إلى متى إلى متى جِدّ فى غير الجد والنكاش ، إلى كم فى الظلام وقد نُسخت الأَغْباش ، تمكّن حبُّ الدنيا من القلب فما يخرجه مِنْقاش ، ولاحَ نورُ الفلاح وكيف يبصر خُفّاش ، أمّا النهار فأسير الهوى فى المعاش ، وأما الليل فقتيل المنام فى الفراش ، كيف يصحب الصلحاء مَنْ هِمّته صُحبةُ الأوباش ، وهل يبارز فى صف الحرب خَوّارٌ ضعيف الجاش ، دخل حب الدنيا فاستبطَن بَطْن المُشَاش[2]

* * *

(١) النعامة من معانيها : الصحراء ، والنفس . ولعله يريد الإشارة إلى البيت الجاهلى : قربا مربط النعامة منى. وهى إذاً كناية عن التهيؤ للرحيل .

(٢) المشاش . رءوس العظام .

مِثْل الشَّبِيبة كالربيع إذا ماجِيدَ فاخضرّت له الأرضُ
فالشيب كالمَحْل الجادِ له لَوْنان مُغْــبَرّ ومُبْيَضّ
سنحَتْ له دَهْياء من كَثَب دانت خُطاَه وما به أَيْضُ(١)
ترك الجديدُ جديدَه هَمِلًا لا الصَّوْنُ يُرْجِعه ولا الرَّحْضُ(٢)
وتعاقُب التَّفْتِيش يَقْدح فى صُمِّ الصَّفَا فيظلُّ يرفَضُّ(٣)

الكلام على قوله عزوجل : « لن تنالوا البِرَّ حتى تُنْفِقوا مما تحبون(٤) »

المعنى : لن تنالوا البر الكامل وبعض المفسرين يقول : المراد بالبر هاهنا الجنة ، ولن يدرك الفضلُ الكامل إلا ببذل محبوب النفس .

أخبرنا عبد الأول بسنده عن إسحاق بن عبدالله بن طلحة ، أنه سمع أنس بن مالك يقول : « كان أبو طلحة أكثر أنصاريّ بالمدينة مالًا من نخل وكان أحب أمواله إليه بئرحاء وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب . قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : « لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبون » قام أبو طلحة فقال : يا رسول الله إن الله تعالى يقول : « لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالى إلىّ بئرحاء وإنها صدَقةٌ لله أرجو بِرّها وذُخْرها عند الله فضعها حيث أراك الله . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بَخٍ ذاك مالٌ رابحٌ أو رائحٌ ـ شك ابن مَسْلَمةَ ـ وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين » . قال أبو طلحة : أفعل ذلك يا رسول الله فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه .

---

(١) الأيض : الرجوع .
(٢) الرحض : الشنة والمزادة الخلق .
(٣) يرفض : يتكسر ويتفرق .
(٤) سورة آل عمران ٩٢ .

أخرجاه في الصحيحين[1]. ورواه حُميد عن أنس فقال فيه: لو استطعت أن أسِرَّها لم أعلنها . فقال : اجعله في فقراء أهلك .

وقال مجاهد : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى أن يبتاع له جارية من سَبْي جلولاء ففعل فدعاها عمر فأعتقها ثم تلا هـذه الآية : « لن تنالوا البر حتى تُنْفقوا مما تحبون » .

وقال ابن عمر : خطرَت هذه الآية ببالي : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» ففكرت فيما أعطاني الله عز وجل فما وجدت شيئا أحبّ إلى من جاريتي رميثة فقلت : هي حُرّة لوجه الله فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها . فأنكحها نافعا فهي أم ولده .

أخبرنا محمد بن ناصر بسنده عن عبد العزيز بن روّاد عن نافع، قال : كان ابن عمر إذا اشتد عُجْبه بشيء من ماله قربه لربه عز وجل . قال نافع : كان بعض رقيقه قـد عرفوا ذلك منه ، فربمـا شمّر أحدهم فلزم المسجد فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه فيقول له أصحابه : يا أبا عبد الرحمن والله ما بهم إلا أن يخدعوك ! فيقول ابن عمر : فمن خدعنا بالله انخدعنا له ! .

قال نافع : فلقد رأيتنا ذات عشية وراح ابن عمر على نَجِيب له قد أخذه بمال ، فلما أعجبه سَيْره أناخه مكانه ثم نزل عنه وقال: يانافع انزعوا زِمَامَه ورَحْلَه وجَلِّلوه وأشْعروه وأدخلوه في البُدْن .

وروى بشير بن دعلوف عن الربيع بن خُثَيْم أنه وقف سائل على بابه فقال: أطعموه سكرا فإن الربيع يحب السكر .

* * *

---

(١) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب رقم ٤٤ وكتاب الوصايا باب ١٧ وهـو كذلك في كتاب الوكالة وكتاب التفسير وكتاب الأشربة .

وصحيح مسلم كتاب الزكاة حديث رقم ٤٣ . ومسند أحمد ٣ / ١٤١ .

واعلم أن الإنفاق يقع على الزكاة المفروضة وعلى الصدقة النافلة، وعلى الإيثار والمواساة للإخوان ، فمن أخرج لله عز وجل شيئا فليكن من أطيب ماله وليوقن المضاعفة .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بعِدْل تمرة من كَسْب طيِّب - ولا يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فُلُوَّه حتى يكون مثل الجبل(١) .

وفى أفراد مسلم من حديث أبى مسعود الأنصارى قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بناقة مخطومة فقال : هـذه فى سبيل الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة »(٢) .

أخبرنا يحيى بن على بسنده عن يونس بن عُبيد عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « إنَّ الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع ميتة السوء »(٣) .

أخبرنا موهوب بن أحمد بسنده عن يزيد الرقاشِىّ عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تصدَّقوا فإن الصدقة فِكاك من النار والصدقة تمنع سبعين نوعا من البلاء أهونها الجُذَام والبرَص»(٤).

وفى حديث بُرَيْدة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما يُخرج أحد شيئا من الصدقة حتى يفك لِحْيَىْ سبعين شيطانا(٥) .

(١) صحيح البخارى كتاب الزكاة باب رقم ٨ وسنن الترمذى كتاب الزكاة باب ١٢ وسنن ابن ماجه كتاب الزكاة باب ٢٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإمارة حديث رقم ١٣٢ .

(٣) سنن الترمذى كتاب الزكاة باب ٢٨ .

(٤) ذكر نحوه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣ / ١٠٩ عن رافع بن خديج وقال : رواه الطبرانى فى الكبير وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف .

(٥) رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات . مجمع الزوائد ٣ / ١٠٩ .

وينبغى للمتصدق أن يُصْلح نيته فيقصد بالصدقة وجه الله عز وجل ، فإن لم يقصد وجه الله لم تُقْبل منه . وينبغى أن يتخيَّر الحلال . فى أفراد مسلم من حديث ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يقبل الله صدقةً من غَلُول » .

وكان الحسن يقول : أيها المتصدق على المسكين برحمة ارحم من ظلَمْت .

وأن يتخيَّر الأجود فقد قال الله تعالى: « أنفقوا من طيِّبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ منه تُنْفقون » . وقال عروة بن الزبير : إذا جعل أحدكم لله شيئا فلا يجعل له ما يستحى أن يجعل لكريمه؛ فإن الله تعالى أكرم الكرماء وأحق من اختير له .

ثم ينبغى أن يكون إخراج المحبوب فى زمان صحة المعطِى وزمان فاقــة المعطَى ، وليقدِّم الأقرباء ويقدم من الأقارب من لا يميل إليه بالطبع . فى حديث أبى أيوب الأنصارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضلُ الصدقة الصدقةُ على ذى الرَّحم الكاشِح[1] » .

وليخرج المعطى ما سَهُل وإن قلَّ . فقد روى جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أى الصدقة أفضل ؟ فقال : جَهْدا المقِل[2] » .

وقال الحسن : أدركنا أقواما كانوا لا يردون سائلا إلا بشىء ، ولقد كان الرجل منهم يخرج من بيته فيأمر أهله ألَّا يردُّوا سائلًا .

ومن آداب العطاء أن يكون سِرًّا؛ فإن صدقة السر تطفىء غضبَ الرب عز وجل. قال عبد العزيز بن عمــير : الصلاة تُبْلغك نصفَ الطريق والصوم يبلغك باب الملِك ، والصدقة تُدْخلك عليه .

(١) مسند أحمد ٣ / ٤٠٢ ، ٥ / ٤١٦ وسنن الدارمى كتاب الزكاة باب رقم ٣٨ .

(٢) سنن أبى داود كتاب الزكاة باب ٤٠ وسنن الدارمى كتاب الصلاة باب ١٢٥

الكريمُ حر لأنه يملك ماله ، والبخيل عَبْدٌ لأن ماله يملكه ، أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طُبع على أشرف الأخلاق وقد وصف نفسه عليه الصلاة والسلام فقال : « يَأْبى اللهُ لى البخلَ[(1)] » وأعطى غنماً بين جبلين فتحيَّر الذى أعطاه فى صفة جوده فقال : هـذا عطاء من لا يخشى الفقر ، فلما سار فى فيافى الكرم تبعه صِدِّيقه فجاء بكل ماله فقال : ما أبقيتَ لأهلك ؟ قال : أبقيت الله ورسوله :

سبق الناسَ إليها صَفْقَـةً لم يُمِدّ رائدُهـا عنها بِغَبَنْ

هِزَّةٌ للجُـود صالت نَشْوة لم يكدِّر عندها العُرْفَ بمَنْ

طلبوا الشأوَ فوافى سابقـا جَذعٌ غبَّر فى وجـه المسن

نزع أبو بكر مخيط الهوى فمزّقه علىٌّ ، رمَى الصديقُ جهازَ المطلّقة فوافقه علىٌّ حتى رمى الخاتم :ـ

حبَّب الفقرَ إليـه أنه سُؤدد وهو بذاك الفقرِ يَغنَى

وشريفُ القوم من بقَّى لهم شرفَ الذكر وخلَّى المالَ يفنى

ما اطمأنَّ الوَفْر فى بحبوحـة فرأيت المجـدَ فيها مُطْمَئِنَّا

تُهْدَم الأموالُ من آساسها أبدا مادامت العلياء تُبْنَى

كان السلف يؤثرون عند الحاجة ، ويقدِّمون الأجودَ المحبوب .

أخبرنا عبد الأول بسنده إلى أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن ما عندنا إلا الماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يَضُم هذا أو يُضِيف هـذا ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا فانطلق به إلى امرأته فقال : أكرمى ضيفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ما عندنا إلا قوتُ الصبيان ، فقال : هيِّئى طعامَك وأصلحى سراجك ونوِّمى صبيانك

(1) مسند أحمد ٣ / ٤ ، ١٦ .

إذا أرادوا عشاء ففعلت ثم قامت كأنها تُصْلح سراجها فأطفأته فجعلا يُرِيانه أنهما يأكلان ، فباتا طاوِيَيْن ، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ضحك الله الليلة ، أو عَجِبَ ، من فِعَالكما . فأنزل الله تعالى : «ويُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة ومن يوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون[1] » .

أخبرنا عبد الوهاب بسنده إلى محمد بن عبيد ، عن ابن الأعرابى قال استشهد باليرموك عكرمة بن أبى جهل وسهيل بن أبى جهل وسهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وجماعة من بنى المغيرة ، فأُتوا بماء وهم صرعى ، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه ! أُتى عكرمة بالماء فنظر إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال : ابدأوا بهذا فنظر سهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه فقال : ابدأوا بهذا فماتوا كلهم قبل أن يشربوا ، فمر بهم خالدُ بن الوليد فقال : بنفسى أنتم !

نَقِه ابنُ عمر من مرض فاشتهى سمكة ، فلما قدِّمت إليه جاء سائل فناوله إياها .

واشتهى الربيعُ بن خُثَيْم حَلْواء فلما صُنعت دعا بالفقراء فأكلوا ، فقال أهله : أتعبْتنا ولم تأكل فقال : وهل أكل غيرى !

كم بينك وبين الموصوفين كما بين المجهولين والمعروفين ، آثرت الدنيا وآثَرُوا الدِّين ، فتلمَّح تفاوت الأمر يامسكين ، أمَّا الفقير فما يَخْطر ببالك ، فإذا جاء سائلٌ أغلظت له فى مَقالك ، فإن أعطيته فحقيرا يسيرا من ردِىء مالك . إلى كم تَتعب فى جمع الحُطام وتشقى ، وتُؤْثر ما يَفْنى على ما يبقى : ـ

يُحْصى الفتى ما كان من نفقاته ... ويُضيع من أنفاسه ما أنفقا

لم يعتصم ملِك يشيِّد مُلْكه ... حصنا يُعَزُّ به ويَحْفر خَنْدقَا

وكأنما دنيا ابن آدم عِرْسه ... أخذتْ جميع تُراثه إذ طَلَّقَا

---

(١) صحيح البخارى كتاب مناقب الأنصار باب رقم ١٠ .

السجع على قوله تعالى : « لن تنالوا البرَّ حتى تُنْفقوا مما تحبون »

عباد الله : إلى متى تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون والجيِّد فى بيوتكم تدَّخرون ، والردىء إلى الفقير تخْرِجون «لن تنالوا البرَّ حتى تُنْفقوا مما تحبون».

حرِّكوا همَمكم إلى الخير وأزعجوا ، وحُثُّوا عزائمكم إلى الجِدِّ وأدْلجوا ، والتفتوا عن الحرص على المال وعرِّجوا ، وآثروا الفقير بما تؤْثرون .

وَيْحكم ! السيرُ حثيث ، ولا مُنْجد لكم ولا مُغِيث ، فبادِروا بالصدقة المواريث، « ولا تيَمَّمُوا الخبيث منه تُنْفِقون » كم قطعت الأمالُ بتًّا[1] . كم مُضِيف ما أرْبَع ولا شَتَّى ، كم عازمٍ على إخراج المال ما تأتى ، سبقته المنُون « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ياحريصا ماَ يستقر ، ياطالبا للدنيا مايقَرّ ، إن كنت تُصدِّق بالثواب فتصدَّق فى السر بالمحبوب المصون « لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون » .

يا بخيلا بالفتيل[2] شحيحا بالنَّقِير ، يا صريعا بالهوى إلى متى عَقِير ، تختار لنفسك الأجْودَ ولربِّك الحقيرَ ، مالا يَصْلح لك من الشىء تُعْطيه الفقير، فما تختار لنا كذايكون.

اكتسابَك على أغراضك أنفقت ، أمْرَجت نفسك فى الشهوات وأطْلقت ، ونسيت الحسابَ غداً وماأشفقت، فإذا رحمت الفقير وتصدَّقت أعطيتَ الردىَّ الدُّون.

أمَا المسكينُ أخوك من الوالدَيْن فكيف كففْت عن إعطائه اليدَيْن ، كيف تحثُّ على النَّفْل والزكاةُ عليك دَيْن ، وأنتم فيها تتأوَّلون .

يا وحيداً عن قليل فى رَمْسه ، يا مستوحشاً فى قبره بعد طول أُنْسه ، لو قدَّم خيراً نفعه فى حَبْسه . « ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون » .

تجمع الدينار على الدينار لغيرك، وبنساك من أخذ كلَّ خيرك ، ولا تزَوَّدت منه شيئا لسَيْرك ، هذا هو الجنون « لن تنالوا البرَّ حتى تُنْفقوا مما تحبون » .

(١) البت : القطع لكل أمر لارجعة فيه .   (٢) ا : بالقليل .

المجلس الخامس

فى ذكر الصيام

الحمد لله خالق الدُّجَى والصباح ومسبِّب الهدى والصلاح، ومقدِّر الغُموم والأفراح، الجائد بالفضل الزائد والسَّماح، مالك المُلك المنجى من الهُلْك ومسيِّر الفَلَك والفُلْك مسيِّر الجناح(١)، عزَّ فارتفع، وفرَّق وجَمع، ووصل وقَطع، وحرَّم وأباح، ملَك وقدَّر، وطوَى ونشَر، وخلق البشر وفطَر الأشباح، رفَع السماء وأنزل الماء وعلَّم آدم الأسماء وذَرَّى الرياح، أعطَى ومنحَ، وأنعَم ومدَح وعفا عمن اجترح وداوَى الجِراح، علم ما كان ويكون، وخلَق الحركةَ والسُّكون، وإليه الرجوع والركون فى الغد والرَّوَاح، يتصرَّف فى الطُّول والعرْض، ويَنْصب ميزانَ العـدل يوم العَرْض « اللهُ نور السموات والأرض مثلُ نورِه كمِشْكاةٍ فيها مصباح(٢) ».

أحمده وأستعينه، وأتوكل عليه وأسأله التوفيق لعملٍ يقرِّب إليـــه، وأشهد بوحدانيته عن أدلة صِحَاح، وأن محمداً عبده المقدَّم ورسوله المعظم، وحبيبه المكرَّم، تَفْديه الأرواح، صلى الله عليه وعلى أبى بكر رفيقه فى الغار، وعلى عمر فتَّاح الأمصار، وعلى عثمان شهيد الدار وعلى علىٍّ الذى يفتك(٣) رُعْبُه قبل لُبْس السلاح وعلى العباس عمه صِنْو أبيه أقرب من فى نسبه يليه.

* * *

اعلموا أن الصوم من أشرف العبادات وله فضيلة ينفرد بها عن جميع التعبُّدات وهى إضافته إلى الله عز وجل بقوله عز وجل: « الصوم لى وأنا أجزى به ».

---

(١) كذا بالأصول. وفى تلخيص التبصرة: ومسير الرياح.

(٢) سورة النور ٣٥.

(٣) ا: يقتل.

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلُّ عمل ابن آدم يضاعَف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ماشاء الله ، يقول الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى يدَع طعامه وشرابَه وشهوته من أجلى ، وللصائم فرحتان فرحة عند فِطْره وفرحة عند لقاء ربه ، ولَخلوفُ فيه[1] أطيبُ عند الله من ريح المسك ، الصومُ جُنَّة .

قال أحمد : وحدثنا أحمد بن عبد الملك ، عن سهل بن سعد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن للجنة باباً يقال له الريَّان يقال يوم القيامة : أين الصائمون؟ هلموا إلى باب الريّان . فإذا دخل آخرهم أُغلق ذلك الباب . وفى لفظ : فلم يدخل منه أحدٌ غيرهم .

هذان الحديثان فى الصحيحين[2] .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن رجاء بن حَيْوة عن أبى أمامة قال: أنشأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غَزْواً فأتيته فقلت : يارسول الله ادعُ لى بالشهادة . فقال : اللهم سلِّمهم وغنِّمهم . قال : فغَزونا فسَلِمْنا وغَنِمْنا . قال : ثم أنشأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غزواً ثانيا فأتيته فقلت : يا رسول الله ادعُ الله لى بالشهادة . فقال : اللهم سلِّمهم وغنِّمهم . قال : فغزونا فسلِمْنا وغَنِمنا ، ثم أنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوا ثالثاً فقلت : يا رسول الله قد أتيتك مرتين أسألك أن تدعو الله لى بالشهادة فقلتَ : اللهم سلِّمهم وغنمهم ، يا رسول الله فادع الله لى بالشهادة. فقال :اللهم سلّمهم وغنمهم. قال : فغزونا فسلمنا وغنمْنا ثم أتيته بعد ذلك فقلت : يا رسول الله مُرْنى بعمل آخذه عنك ينفعنى الله به . قال : « عليك بالصوم لأنه لا مثل له » .

---

(١) ا : فم الصائم .

(٢) صحيح البخارى كتاب الصوم باب ٢ .

وصحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ١٦٤ ، ١٦٥ .

وكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يُلفَوْن إلا صياما ، فإذا رأوا [عندهم][1] ناراً أو دخانا بالنهار فى منزلهم عرفوا أن قد اعتراهم ضيفٌ . قال : ثم أتيته بعد ذلك فقلت : يارسول الله إنك قد أمرتنى بأمر وأرجو أن يكون الله عز وجل قد نفعنى به، فمرنى بأمر آخر ينفعنى الله به ، قال : « اعلم أنك لا تسجد لله سجدةً إلا رفع الله لك بها درجة أو حطَّ أو قال وحَطَّ ـ شك مَهْدىّ ـ عنك بها خطيئة[2] » .

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ بسنده عن أبى بُرْدة عن أبى موسى قال : خرجنا غازِين فى البحر فبينما نحن والريحُ لنا طيِّبة والشِّراع لنا مرفوع ، فسمعنا مناديًا ينادِى : يا أهل السفينة قِفُوا أخـــبركم حتى والَى[3] بين سبعة أصوات . قال أبو موسى : فقمت على صدر السفينة فقلت : من أنت ومن أين أنت ؟ أوَما ترى ما نحن فيه وهل نستطيع وقوفًا ؟ فأجابنى الصوت : ألا أخبركم بقضاء قضَاه الله عز وجل على نفسه ؟ قال : قلت : بلى أخبرنا . قال : فإن الله سبحانه قضى على نفسه أنه من عطَّش نفسَه لله فى يوم حارّ كان حقًّا على الله أن يُرْويه يوم القيامة . قال : فكان أبو موسى يتوخَّى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذى يكاد ينسلخ فيه الإنسان فيصومه !

* * *

واعـــلم أن للصوم آدابا منها : كَفُّ النظر واللسان عن الفضول ، والإفطار على الحـــلال وتعجيله ، وأن يفطر على تمر . قال وهب بن منبِّه : إذا صام الإنسان زاغ بَصره فإذا أفطر على حلاوة عاد بصره .

ويقول إذا أفطر : اللهم لك صُمْت وعلى رزقك أفطرت وعليــك توكلت.. ويستحب السحور وتأخيره .

---

(١) من ا .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة حديث رقم ١٦٩ وابن ماجه فى كتاب الإقامة باب ٢٠١ وأحمد فى مسنده ٥ / ١٦٤ .

(٣) ا : فنادى سبعة أصوات .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كان أحدكم يوماً صائما فلا يَجْهل ولا يَرْفُث فإن امرؤ قاتله أو شتمه فليقل : إنى صائم »[١] .

وقد لا تَخْلُص النيةُ ولا يَحْصل الأجر : أخبرنا أبو بكر بن عبد الباقى بسنده عن أبى سعيد المَقْبُرى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : رُبَّ صائم حظُّه من صيامه الجوعُ والعطش ، ورب قائم حظُّه من قيامه السَّهر »[٢] .

* * *

فأما مايستحب صيامه فقد كان جماعة من السلف يصومون المحرَّم .

وقد أخرج مسلم فى أفراده من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم »[٣] .

وفى أفراده من حديث أبى قَتادة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى صوم يوم عاشوراء : « يكفِّر السنَة الماضية »[٤] .

وفى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم فى شهر من السنة أكثر من صيامه من شعبان كان يصومه كله[٥] .

وفى أفراده من حديث أبى أيوب عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صام رمضان ثم أتْبَعه ستًّا من شوال فذلك صيام الدهر »[٦] .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الصوم باب رقم ٢
وصحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ١٥٩
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ٢ / ٣٧٣ .
(٣) صحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ٢٠٢ ، ٢٠٣
(٤) سبق تخريج هذا الحديث فى أول هذا الجزء .
(٥) انظر تخريج هذا الحديث فى أول هذا الجزء .
(٦) صحيح مسلم كتاب الصوم حديث رقم ٢٠٣ .

وفى أفراده من حديث أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من صام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفِّر السَّنَة التى قبله والسنة التى بعده »[١] .

وفى أفراده من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن أبواب الجنة تُفْتح فى يوم الاثنين وَالخميس »[٢] .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن أبى سعيد المقبُرى قال: حدثنى أسامة بن زيد قال : قلت يا رسول الله إنك تصوم لا تكاد تُفْطر ، وتُفْطر لا تكاد تصوم إلا يومين إن دخَلا فى صيامك وإلا صُمْتهما . قال : أى يومين ؟ قلت : يوم ، الاثنين والخميس . قال : ذانك يومان تُعْرَض فيهما الأعمال على رب العالمين فأحب أن يُعْرَض عملى وأنا صائم »[٣] .

ويستحب صيام ثلاثة أيام من كل شهر. فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بثلاث : صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام »[٤] .

وفى حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صمت من الشهر ثلاثة أيام فصُمْ ثالثَ عشَر ورابع عشر وخامس عشر[٥] » .

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود عليه السلام : كان يصوم يوماً ويُفْطر يوماً ، وأَحَبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثُلُثَه ، وينام

(١) انظر تخريج هذا الحديث فى أول هذا الجزء .

(٢) صحيح مسلم كتاب البر حديث رقم ٣٤ .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب الصوم باب رقم ٤٤ والنسائى فى كتاب الصيام باب رقم ٧٠ .

(٤) صحيح البخارى كتاب الصوم باب رقم ٦٠ وكتاب التهجد باب رقم ٣٣ . وصحيح مسلم كتاب المسافرين حديث رقم ٨٥ ، ٨٦ .

(٥) أخرجه الترمذى فى كتاب الصوم باب رقم ٥٣ . والنسائى فى كتاب الصيام باب رقم ٨٤ .

عُدُسُه[١] » وقد كان جماعة من السلف يَغتنمون العمر فيَسْردون الصومَ ولا يفطرون إلا الأيام المحرّمة. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يَسْرُد الصومَ، وسرده أبو طلحة أربعين سنة وأبو أمامة . وسردَتْه عائشة وعُروة وسعيد بن المسيب .

أخبرنا المحمدان: ابن عبد الملك وابن ناصر قالا: أنبأنا أحمد بن الحسن بن خيرون قال : قرئ على أبى علىّ بن شاذان : أخبركم أبو بكر الأرْمَوىّ القارئ ، حدثنا أحمد بن عبيد ، حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عبد العزيز قال : قال نافع : خرجت مع ابن عمر فى بعض نواحى المدينة ومعه أصحاب له فوضعوا سُفْرة لهم فمرّ بهم راعٍ فقال له عبدُ الله: هلمّ يا راعى فأصِبْ من هذه السفرة فقال : إنى صائم . فقال له عبد الله : فى مثل هذا اليوم الشديد حَرّه وأنت بين هذه الشِّعَاب فى آثار هذه الغنم وبين هـذه الجبال ترعى هذه الغنم وأنت صائم ؟! فقال الراعى : أبَادِر أيامى الخالية . فعجب ابنُ عمر وقال : هل لك أن تبيعنا شاةً من غنمك نجتزرها نُطْعمك من لحمها ما تُفْطر عليه ونعطيك ثمنها ؟ قال : إنها ليست لى إنها لمولاى . قال: فما عسيتَ أن يقول لك مولاك إن قلت : أكلها الذئبُ ؟ فمضى الراعى وهو رافع إصبعه إلى السماء وهو يقـول : فأين الله ؟

قال: فلم يزل ابن عمر يقول: قال الراعى: فأين الله ! فما عدَا أن قدِم المدينة فبعث إلى سيده فاشترى منه الراعى والغنم فأعتق الراعى ووهب له الغنم .

وقد كان بعض السلف يبكى عند الموت فقيل : ما يبكيك ؟ قال : أبكى على يوم ما صُمْته وليلةٍ ما قُمْتها !

فاغتنموا إخوانى زمَنكم ، وبادروا بالصحة سقمكم، واحفظوا أمانة التكليف لمن أمِنكم ، وكأنكم بالجحيم وقد دفَنكم ، وبالعمل فى القبر قد ارْتهنكم .

(١) صحيح البخارى كتاب الصوم وكتاب التهجد وصحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ١٨٩، ١٩٠

(الكلام على البسملة)

ألم يَأنِ تركى ما علىَّ ولا لِيَا　　وعَزْمى على ما فيه إصلاحُ حاليَا
وقد نال منى الدهر وابيضَّ مَفْرِقى　　بكرِّ الليالى والليالى كما هِيَا
أصوِّت بالدنيا وليست تجيبنى　　أحاول أن أبقَى وكيف بقائيَا
وما تَبْرح الأيام تحْذف مُدّتى　　بعدِّ حسابٍ لا كعَدِّ حِسَابيَا
أليس الليالى غاصِباتى مُهْجتى　　كما غصبتْ قبلى القرونَ الخواليَا
وتُسْكننى لحدًا لذى حُفْرة بهـا　　يطول إلى أخرى الليالى ثوَائيَا
فياليتنى من بعد موتِى ومَبْعثى　　أكون ترابًا لا علىَّ ولا لِيَا

* * *

يامن ذنوبه كثيرة لاتُعَدّ ووجه صحيفته بمخالفته قد اسودّ ، كم ندعوك إلى الوصال وتأبَى إلا الصدّ ، أمَا الموت قد سعى نحوكَ وجَدّ ، أما عزَم أن يُلْحقك بالأب والجد. أما ترى مُنَعَّما أتْربَ الثرى منه الخد ، كم عاينتَ متجبِّرا كفَّ الموتُ كفَّه المتد ، فاحذر أن يأتى على المعاصى فإنه إذا أتى أبى الردّ[1] ، إلى كم ذا الصِّبا والمِرَاح ، أأبقى الشيبُ موضعا للمزاح ، لقد أغنى الصباحُ عن المصباح ، وقام حرْب المنون من غير سلاح ، اعوجَّت القناةُ بلا قناَ ولا صِفاَح ، فعاد ذو الشيبة بالضعف نحَـين الجِراح ، ونطقت ألسن الفَناء بالوعظ الصُّراح ، واأسفا صَمَّت المسامــع والمواعظُ فِصاَح ، لقد صاح لسان التحذير يا صاح يا صاح ، وأنَّى بالفهم لمخمورٍ غـير صاح ، لقد أسْكَرك الهوى سكرا شـديدا لا يُزَاح ، وما تفيق حتى يقول الموتُ: لا بَراح .

ألَا تُبْصر[2] الآجال كيف تخرَّمت[3]　　وكل امرئ للهُلْك والموتِ صائرُ
وأنت بكأس القوم لابد شاربٌ　　فهل أنت فيما يُصْلح النفسَ ناظرُ

* * *

(١) فى تلخيص التبصرة : أبى إلا الرد .　(٢) ت : أما تبصر .　(٣) ا : تصرمت .

لقد وعظ الزمن بالآفات والمِحن ، ولقد حـــدَّث بالطَّعْن كلُّ من قد ظَعن ، ولقد أنذرَ المطْلَقَ فى أغراضه[١] المرتَهَن ، تالله لو صَفَت الفطَنُ أبصرت ما بَطن .

إخوانى : أمرُ الموت قد عَلن ، كم طَحْطَح الردَى وكم طَحن ، يا بائعاً لليقين مشتريا للظَّـنَن ، يا مؤثِراً للرذائل فى اختيار الفتن ، إنّ السُّرور والشُّرور فى قَرَن ، أنت فى المعاصى مُطْلَق الرَّسَن وفى الطاعة كذِى وسَن[٢] ، يا رضيع الدنيا وقـــد آن فِطَامه ، يا طالب الهوى وقد حان حِمَامه .

قال وهب بن منبه : إن لله مناديا ينادى كل ليلة : أبناء الخمسين : هلموا للحساب ، أبناء الستين ماذا قدّمتم وماذا أخَّرتم ؟ أبناء السبعين عُدُّوا أنفسكم فى الموتى :

كَبُرْتَ وقاربتَ نصف المائة   وبدَّات يا شيخ بالتسمية
وقد نَشر الشيبُ فى عسكر ال   شباب على رأسك الألوية
تحوَّلْ إلى توبة لا تَحُور   عساها تكون هى المُنْجِيَة
ولا تُطْلق اللَّحظ فى ريبة   ولا تسألن فتنـــة ما هيَه
وهل غيرها قد تذوَّقته   فكم تَعتَد الإثمَ والمعصية

* * *

إلى كم ياذا الشيب ، أمَا الأمر[٣] منك قريب ، كم تعب فى وعظك خطيب ، كم عالجك طبيب ، إنه لمرض عجيب ، إنه لَداء غريب عَظْمٌ واهن وقَلْبٌ صليب ، يا هذا لا شيء أقل من الدنيا ولا أعَزّ من نفسك ، وها أنت تُنْفِق[٤] أنفاسَ النفس النفيسة على تحصيل الدنيا الخسيسة ، متى يقنعك الـكَفَاف ، متى يردّك العفاف متى

---

(١) فى تلخيص التبصرة : فى إعراضه .

(٢) ا : وفى الطاعة مانقدم على الحسن .

(٣) التلخيص : أما الموت .

(٤) فى التلخيص : ويحك أتنفق . وفى ا : تنفق أنفاسا نفيسة .

يقوّمك الثّقاف ، إنك لتأبى إلا الخلاف ، مقاليدك ثِقَال وركعاتك خِفَاف ، يا قبيح الخصال يا سيّئ الأوصاف ، يا مُشْترياً بسِنِى الخِصْب السنينَ العجاف ، قف متـــدبراً لحالك فالمؤمن وقّاف ، وتذكَّر وعيد العصاة ويحك أمَا تخاف :

مامن الحزم أن تقارب أمراً   تطلب البُعْدَ عنه بعـــد قليلِ
وإذا ما همَمْت بالشىء فانظر   كيف منه الخروجُ قبلَ الدخولِ
لا مَفرًّا من المقادير لكن   للمعاذير عنـــد أهل العقولِ

ويحك إن الدنيا فتنة ، وكم فيها من محنة ، غير أنها لا تَخْـفَى على أهل الفطنة ، لا يَعزّ ذليلُها ولا يُودَى قتيلها ، من سكَنها خرج ، وساكنها منزعِج:

إنما الدنيـــا بلاء   ليس فى الدنيا ثُبوتُ
إنمـــا الدنيا كبَيْتٍ   نسجَتْـــه العنكبـــوتُ
كلُّ من فيها لَعمرى   عن قريب سيموتُ
إنمـــا يكفيك منها   أيها الراغِبُ قُوتُ

ياهذا انتقم من حِرْصك بالقناعة ، فمن مات حرصه عاشت مروءته . خَلِّ فضول الدنيا وقد سلمت ، إن لم تقبل نصحى ندمت ، البُلْغة منهـــا ما يَقُوت(١) والزاهد فيها ما يموت ، فأعرض عنها جانباً ، وكن لأهلها مُجانباً وإذا أقامك : هَجِير المجاعة فلُذْ بالصبر فى ظل القناعة .

(١) التلخيص : ما تفوت .

الـكلام على قوله تعالى: «ولقد خلقْنا الإنسانَ ونَعْلم ماتوسوس به نفسه»(١)

الإنسان : ابنُ آدم ، وما توسوس به نفسه : ما تحدِّثه به وُيـكنُّه فى قلبه . وهذا يحث على تطهير القلب من مُسَاكنة الوساوس الرديئة تعظيما لمن يعلم .

قال بعض السلف : إذا نطقتَ فاذكر من يَسْمع ، وإذا نظرت فاذكر من يَرى ، وإذا عزمتَ فاذكر من يعلم .

قوله تعالى : « ونحن أقربُ إليه من حَبْل الوريد » الوريد : عِرْق فى باطن العنق وهما وريدان بين الحلقوم والعِلْباوين ، والعلباوان : القصبتان الصفراوان فى متن العنق وحبل الوريد هو الوريد ، فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظى اسمه(٢) .

سجع على قوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »

يا مُظْلِمًا نَفْسَه فيما يشتهى ويريد ، اذكر عند خطواتك المبدئ المعيد ، وخَفْ قُبْح ما جرى فالملِك يرى والمَلَك شهيد « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

هلَّا استحَيْت ممن يراك إذ ركبت من هواك ما نهاك، ستبكى والله عيناك مماجنَتْ يداك ، أما تعلم أنه بالمرصاد فقل لى أين تحيد « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

لو صدق عِلْمك به لراقَبْته ، ولو خِفْت وعيدَه فى الحرام ما قارَبته ، ولو علمت سُموم الجزاء فى كأس الهوى ما شربْتَه، لقد أضعنا الحديثَ عند سَكْران يَميد ، «ونحن أقرب إليه عن حبل الوريد » .

* * *

قال بعض السلف : مررت برجل منفرد فقلت له : أنت وحدك ؟ فقال : معى ربى ومَلَكاى . فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء ثم مضى وهو يقول: أكثر خَلْقِك شاغلٌ عنك .

---

(١) سورة ق ١٦ . (٢) ب : لفظى المسمى

راود رجلٌ امرأة فقالت: ألا تستحي؟ فقال: ما يرانا إلا الكواكب. فقالت: وأين مُكَوْكِبها!

كأن رقيبا منك يرعى خواطري ... وآخر يرْعى ناظري ولساني
فما نظرتْ عيناىَ بعدك نظرةً ... لغيرك إلا قلت قد رمَقاني
ولا بدرَتْ مِنْ فِيّ بعدك لَفظَةٌ ... لغيرك إلا قلت قد سَمِعاني
ولا خطرتْ فى غير ذكرك خَطْرةٌ ... على القلب إلّا عرَّجَتْ بعِنانِي

* * *

قوله تعالى: «إذ يتلقّى المتلقِّيان» وهما المَلَكان يتلقيان القولَ ويكتبانه، عن اليمين كاتب الحسنات وعن الشمال كاتب السيئات «قعيد» أى قاعد. والمعنى: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد.

وروى أبو أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كاتبُ الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على شماله، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنةً كتبها له صاحب اليمين عَشْراً، وإذا عمل سيئة قال لصاحب الشمال: أمسِكْ. فيمسك عنه سبع ساعات، فإن استغفر منها لم يكتب عليه شىء، وإن لم يستغفر كُتبت عليه سيئة واحدة»(١)

وفى حديث علىّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَقْعَد مليكك على ثَنِيّتك، فلسانك قلمها وريقك مِدَادها»(٢).

* * *

(١) لم أجده فى شىء من الكتب المعتمدة.
(٢) لم أجده فى شىء من الكتب.

سجع على قوله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال قعيد »

ما ظنك بمن يحصى جميعَ كلماتك، ويضبط كلَّ حركاتك، ويشهد عليك بحسناتك تُرْفع الصحائف وهى سُود وعمل المنافق مَرْدود ، يحضره الملكان لدى المعبود ، يا شرَّ العبيد « عن اليمين وعن الشمال قعيد » .

يضبطان على العبد ما يجرى من حركاته، وما يكون من نظراته وكلماته، واختلاف أموره وحالاته ، لا ينقص ولا يزيد « عن اليمين وعن الشمال قعيد » .

قال سفيان الثَّوْرى يوما لأصحابه : أخبرونى لو كان معكم من يرفع الحديثَ إلى السلطان أكنتم تتكلمون بشىء ؟ قالوا : لا . قال : فإن معكم من يرفع الحديث إلى الله عز وجل .

* * *

قوله تعالى : « ما يَلفظُ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد » أى : ما يتكلم من كلام فيلفظه أى يرميه من فيه إلا لديه رقيب عتيد، أى حافظ وهو الملَكُ الموكَّل به، والعَتِيد الحاضر معه أينما كان .

السجع على قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

يا كثير الكلام حسابك شديد ، يا عظيم الإجرام عذابك جديد ، يا مُؤْثرا ما يضرّه ما رأيك سديد ، يا ناطقا بما لا يُجْدِى ولا يُفيد « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

كلامك مكتوب وقولك محسوب ، وأنت ياهذا مطلوب، ولك ذنوب وماتتوب، وشمسُ الحياة قد أخذت فى الغروب ، فما أقْسَى قلبك من بين القلوب ، وقد أتاه ما يصدع الحديد « ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد » .

أتظن أنك متروك مهمَل ، أم تحسب أنه ينسى ما تعمل ، أو تعتقد أن الكاتب يغفل[1] ، هذا صائح النصائح قد أقبل ، يا قاتلا نفسَه بكفِّه لا تفعل ، يا من أجَلُه ينقص وأمله يزيد ، « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

* * *

أنا من خَوْف الوعيدِ   في قيامٍ وقُعودِ
كيف لا أزداد خَوْفا   وعلى النار ورودِى
كيف جَحْدِى ما تجرَّمـ   ـتُ وأعضائى شُهودِى
كيف إنكارى ذنوبى   أم تُرَى كيف جُحودِى
وعلىَّ القولُ يُحْصَى   برقيب وعتيـــدِ

* * *

قوله تعالى: « وجاءت سكرة الموت بالحق » وهى غَمْرته وشدته التى تَغْشَى الإنسان وتغلب على عقله . وفى قوله : « بالحق » . قولان ذكرهما الفرَّاء: أحدهما : بحقيقة الموت. والثانى : بالحق من أمر الآخرة .

قوله تعـــالى : « ذلك » أى ذلك الموت . « ما كنت منه تحِيد » . أى تهرب وتفرّ .

قوله تعالى : « ونُفِخ فى الصور » . وهى نفخة البعث « ذلك يومُ الوعيد » أى يوم وقوع الوعيد .

قوله تعالى : وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائِقٌ وشهيد » . وفيه قولان : أحـدهما : أنه ملَك يسوقها إلى محشرها . قاله أبو هريرة . والثانى : أنه قَرِينها من الشياطـين سمى سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحثّها .

(١) ق ا ، والتلخيص: يشغل .

وفى الشهيد ثلاثة أقوال : أحدها: أنه ملَك يشهد عليها بعملها . قاله عثمان بن عفان والحسن . وقال مجاهد: الملَكان سائق وشهيد. وقال ابن السائب السائق: الذى يكتب عليه السيئات . والشهيد : هو الذى كان يكتب له الحسنات .

والثانى : أنه العمل يشهد على الإنسان . قاله أبو هريرة .

والثالث : الأيدِى والأرْجُل تشهد عليه بعمله . قاله الضحَّاك .

* * *

إخوانى احذروا من العَرْض على مالك الطُّول والعَرْض ، وأعِدُّوا الجواب إذا سُئِلتم عن الفَرْض ، أين الحياء من قُبْح المضَمرات ، أين البكاء على سالف الخطَرات ، أين الخوف من الجزاء على خُطوات الخطيئات .

كتب يوسف بن أسْباط إلى حذيفة المَرْعَشى[(١)] : أما بعد: فإنى أوصيك بتقوى الله سبحانه والعمل بما علَّمك الله تعالى ، والمراقبة حيث لا يراك إلا الله عز وجل ، والاستعداد لما ليس لأحدٍ فيه حيلة ولا يُنْتفع بالندم عند نزوله ، فاحسِرْ عن رأسك قِناعَ الغافلين ، وانتبه من رَقْدة الموتى وشمِّر للسِّباق غداً ، فإن الدنيا ميدان المسابقين ، ولا تغترَّ بمن أظهر النُّسك وتشاغل بالوَصْف وترك العمل بالموصوف ، واعلم يا أخى أنه لابُدَّ لى ولك من المقام بين يدى الله تعالى ، يسألنا عن الدقيق الخفىِّ وعن الجليل الخافى ، ولست آمَنُ أن يسألنى وإياك عن وَسْواس[(٢)] الصدور ولَحظات العيون والإصغاء للاستماع ، واعلم أنه لا يُجْزِى من العمل القولُ ولا من البَذْل العِدَة ولا من التوقِّى التَّلاوم .

* * *

(١) المرعشى : نسبة إلى بلدة بالشام يقال لها مرعش . انظر من نسب إليها فى اللباب ٣ / ١٢٥ .
(٢) التلخيص : عن وساوس .

يا من معاصيه كثيرة مشهورة ، يا من نَفْسه بمن يجنى عليها مـ مرورة ، أفى العين كمهٌ أم عشى أم الأمر إليك يجرى كما تشآ ، أعَلَى القلب حِجاب أم غِشاء، أيا من إذا قعد عصى وكذا إذا مشى ، كلُّ فعلك غلَط ، كل عملك سَقَط ، أترى هذا العقل اختلط ، أما قوِّم بهذا الشَّمَط ، أما علَّم الشَّيْبُ على حُروف الموت ونقَط ، لقد عزم الأجل على النهوض ، وطال ما أقام والدنيـا قروض[1] ، قَصرٌ يُبْنَى وجسمٌ منقوض ، شَيْب وعيب يزحلق الفروض :

إلى متى أنت فى ذنوبٍ   قلبكَ[2] من أجْلها مريضُ
أقْرِضْتَ عُمْراً فمرّ خَلْسا   وآنَ أن تُطْلَب القُروض
فاحذر مجىء الحِمَام بَغْتا   وأنت فى باطلٍ تخُوضُ

* * *

سجع على قوله تعالى : « لقد كنت فى غفلة من هذا »

كأنك بالعمر قـد انقرض ، وهجَم عليك المرض ، وفات كلُّ مراد وغرض ، وإذا بالتلف قد عَرض أخَّاذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

شخَص البصرُ وسكن الصَّوْت، ولم يمكن التداركُ للفَوْت ، ونزل بك ملَكُ الموت فـامَت الرُّوحَ وحازَى « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

عالجت أشدَّ الشدائد ، فياعجبا مما تُـكابد ، كأنك قد سُقيت سُمَّ الأساود فقطّع أفلاذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

بلغت الروحُ إلى التراقى ، ولم تعرف الراقى من السـاقى ، ولم تدرِ عند الرحيـل ما تلاقى ، عِيَاذا بالله عياذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

(١) ا : والدنيا فروض.   (٢) ا : أنت من أجلها .

ثم درجوك فى الكفن وحملوك إلى بيت العفَن ، على العيب القبيح والأفَن ، وإذا الحبيب من التراب قد حَفَن ، وصرت فى القبر جُذَاذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

وتسربت عنك الأقارب تسرى ، تقدُّ فى مالك وتَفْرِى ، وغايةُ أمرهم أن تجرى دموعهم رذَاذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

قفلوا الأقفال وبضّموا البضاعة ، ونسَوا ذِكْرك يا حبيبهم بعد ساعة ، وبقيت هناك إلى أن تقوم الساعة ، لا تجد وَزَراً ولا معاذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

ثم قمت من قبرك فقيرا ، لا تملك من المال[1] نَقِيرا ، وأصبحت بالذنوب عَقِيرا ، فلو قدّمت من الخير حقيرا صار ملجأً وملَاذا ، « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

ونُصب الصراط والميزان ، وتغيّرت الوجوه والألوان ، ونودى : شَقِىَ فلان بن فلان ، وما ترى للعُذْر نَفاذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

كم بالغ عذولك فى الملَام ، وكم قعَد فى زَجْرك وقام ، فإذا قلبك ما استقام ، قطع الكلام على ذا « لقد كنت فى غفلة من هذا » .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

---

(١) فى ا : من اللله .

المجلس السادس

فى ذكر الحج

الحمد لله الملك القديم، الواحد العزيز العظيم، الشاهد سامع ذِكْر الذاكر وحَمْد الحامد وعالِم ضمير المريد ونية القاصد، لِعَظمته خَضع الراكعُ وذلّ الساجد، وبهداه اهتدى الطالبُ وأدرك الواجد، رفَع السماء فعلّاها ولم يحتجْ إلى مساعد، وألقى فى الأرض رواسى راسخاتِ القواعد، تنزّه عن شريكٍ مُشَاقق أو نِدّ معانِد، وعزّ عن ولد وجلّ عن والد، وأحاط عِلْما بالأسرار والعقائد، وأبصر حتى دبيبَ النمل فى الجَلامد، وسَطَا فسالت لهيبته صِعاب الجوامد، ويقول فى الليل: « هل من سائل » فانتبه يا راقد. بنى بيتاً أمر بقصده وتلقّى الوافد، وأقسم على وَحْدانيته وما ينكِر إلا معانِد « والصافات صَفّا فالزاجراتِ زَجْرا فالتالياتِ ذِكْرا إن إلهكم لَواحد ».

أحمده على الرخاء والشدائد، وأقرّ بتوحيده إقرار عابد، وأصلى على رسوله الذى كان لا يخيِّب السائل القاصد[1]، وعلى صاحبه أبى بكر التقى النقى الزاهد، وعلى عمر العادل فلا يراقب الولدَ ولا الوالد، وعلى عثمان المقتول ظُلْما بكف الحاسد، وعلى علىّ البحر الخِضَمّ والبطل المجاهِد، وعلى عمه العباس أقرب الأقارب والأباعد.

* * *

قال الله تعالى: « ولله على الناس حِجُّ البيت[2] » فرض الله عز وجل حج البيت بهذه الآية.

وقوله: « من استطاع إليه سبيلا ». قال النحويون: « من » بَدَل من الناس، وهذا بدل البعض كما تقول: ضربتُ زيداً رأسَه.

---

(١) فى ب والتلخيص: وأصلى على رسوله بيت القصائد.

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله النسفي بسنده عن محمد بن عبّاد بن جعفر ، عن عبد الله بن عمر قال : قيل يا رسول الله ما الاستطاعة إلى الحـج ؟ قال : « الزاد والراحلة[1] » .

واعلم أن المجيب قد يجيب عن المشـكل ويترك الظاهر ثقةً بعلم السامع ، وإلا فقد يكون له زاد وراحلة فإذا خرج إلى الحج لم يكن له ما يترك لعياله أو لم يكن له ما يدبِّره في معاشه .

واعلم أن وجوب الحج موقوف على وجود البلوغ والعقل والحرية والإسلام والزاد والراحلة . ويشترط في وجود الراحلة أن تـكون صالحة لِمثْله ورَحْلها وآلتها ، لأنه قد يكون كبير السِّن فلا يمكنه الركوب على القَتَب[2] ، وأن يكون وجود الزاد والراحلة فاضلًا عما يحتاج إليه من مسكن وخادم إن احتاج إليه ، ونفقة لعياله إلى أن يعود وقضاء دين إن كان عليه ، وأن يكون له إذا رجع ما يقوم بكفايته من عَقَار أو بضاعة أو صناعة ثم ينبغي أن ينظر في أمْن الطريق وسَعَة الوقت . إلى غير ذلك .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قَدر على الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيا[3] » .

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: « لأَقعدن لهم صراطَك المستقيم[4] » قال: طريق مكة يمنعهم من الحج .

وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب بناء البيت وفضائله وفضل الحجَر الأسوَد[5] .

---

(١) أخرج نحوه الترمذي في سننه كتاب التفسير تفسير سورة آل عمران وابن ماجه في كتاب المناسك باب رقم ٦

(٢) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

(٣) أخرجه أحمد والترمذي . (٤) سورة الأعراف ١٦ .

(٥) سبق ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١١٩ وما بعدها .

وفى حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الركن اليمانى : « وكّل الله عز وجل به سبعين ألف ملك ، فمن قال : أسألك العفو والعافية ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار قالوا : آمين[1] » .

وعن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من طاف بالبيت سبْعا وصلى خلف المقام ركعتين فهو عِدْل مُحَرر[2] » .

أخبرنا يحيى بن على بسنده عن الأوزاعى عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عز وجل فى كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت : ستون للطائفين وأربعون للمصلِّين وعشرون للناظرين[3] » .

وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله وسلم أنه قال : « من طاف بالبيت لم يرْفع قدَما ولم يضَع أخرى إلا كتب الله عز وجل له بها حسنة وحَطَّ عنه بها خطيئة ورفع له بها درجة »[4] .

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[5] .

وفى حديث بُرَيْدة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النفقةُ فى الحج تُضَاعَف كالنفقة فى سبيل الله تعالى : الدرهم بسبعمائة[6] درهم » .

* * *

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب المناسك باب رقم ٣٢ .
(٢) أخرجه النسائى فى سننه كتاب المناسك .
(٣) الحديث ضعيف ، فيه سعيد بن سالم القداح وهو ضعيف تذكرة الموضوعات للحافظ المقدسى ص ٣٣
(٤) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الحج .
(٥) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الحج .
(٦) أخرجه أحمد فى مسنده ٥ / ٣٥٥ .

فأما حج الماشي : فأخبرنا أبو منصور وعبد الرحمن بن محمد ، بسندهما عن إسماعيل ابن أبي خالد ، عن زاذان قال : مرض ابن عباس مرضا شديدا فدعا ولده فجمعهم فقال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حجَّ من مكة ماشيا حتى يرجع إلى مكة كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم . فقيل له : وما حسنات الحرم ؟ قال : بكل حسنة مائة ألف حسنة »[١].

وروت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الملائكة لتصافح رُكبان الحج وتَعتنق المشاة[٢] » .

* * *

وأما فضيلة الحج : فأخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، والعمرتان ـ أو العُمرة ـ إلى العمرة تكفِّر ما بينهما[٢] » .

أخبرنا محمد بن محمد الورَّاق بسنده عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حجَّ هذا البيت فلم يَرْفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه[٣] ».

الحديثان في الصحيحين .

وروى عن عليّ كرّم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أراد دنيا وآخرةً فليؤمّ هذا البيت ، ما أتاه عبدٌ يسأل الله تعالى دنيا إلا أعطاه منها ولا آخرة[٤] إلا ادّخر له منها ».

* * *

(١) لم أجده في شيء من الكتب المعتمدة .

(٢) صحيح البخارى كتاب الحج حديث باب رقم ٤ ، ٣٤ . وصحيح مسلم كتاب الحج حديث رقم ٤ ٢٠

(٣) صحيح البخارى كتاب الحج باب رقم ٤ . وصحيح مسلم كتاب الحج رقم ٤٣٨ .

(٤) ا : ولا سأل الآخرة .

وينبغى لمن أراد الحج أن يفهم معنى الحج ، فإنه يشار به إلى التجرّد لله عز وجل ومفارقة المحبوبات .

وليتذكر بأهوال الطريق الأهوالَ بعد الموت وفى القيامة ، وبالإحرام الكفن ، وبالتَّلْبية إجابة الداعى ، وليُحضِر قلبَه لتعظيم البيت ، وليتذكر بالالتجاء إليه التجاء المذنب ، وبالطوافِ الطوافَ حول دار السيِّد ليرضى ، وبالسَّعْى بين الصفا والمروة التردد إلى فِناء الدار ، وبرَمْى الجِمار رمى العدوّ .

* * *

وكما أن للأبدان حجًا فللقلوب حج ؛ فإنها تنهض بأقدام العَزائم وتمتطى غواربَ الشَّوق ، وتفارق كلَّ محبوب للنفس ، وتصابِر فى الطريق شدة الْجَهْد ، وتَرِد مناهِل الوفاء لا غُدْران الغَدْر ، فإذا وصلت إلى ميقات الوَصْل نزعت مَخِيط الآمال الدنيوية ، واغتسلت من عَيْن العَيْن ، ونزلت بعَرفات العِرْفان ، ولبَّت إذ لبَّتْ من لُبَاب اللُّبّ ، ثم طافت حول الإجلال ، وسعت بين صَفَا الصَّفَا ومروة المروءة ، فرمت جِمَار الهوى بأحجار ، فوصلت إلى قُرْب الحبيب فلو ترنَّمت بشرح حالها لقالت :

لا والذى قصَد الحجيجُ لبَيْته — من بَيْن ناءٍ طارقٍ وقَريبِ
والحِجْرُ والحَجَرُ المقبَّل تلتقى — فيه الشِّفاه وركنِه المحجوبِ
لا كان مَوْضعك الذى ملكته — من قلب عَبْدك بعد ذا لحبيب
لى أنَّة الشاكى إذا بَعُد المدى — ما بيننا وتنفُّس المكروبِ

ولما عبر الخليل هذه الحالة قيل له : قد بقى عليك ذِبْح يجانس هـذا الحج ليس له إلا الولد وما المراد إراقة دَمه بل فراغ قلبك عنه ، يا خليلى من المَسْنون استِسْمان الإبل وألّا يكون فى المذبوح عَيْب ، فاختبر ذِبْحك هل فيه عَيْب أو هو سليم مُسَلَّم ؟ فقال له : « إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » فأجابه : « افعل ما تؤمر » . فعلِم حصولَ الكمال وعدم العيوب ثم قال له : استحدّ مُدْيتك وأسرع مَرّ السكين على حَلْقى

وإذا عُدْت إلى أمى فسلِّمْ عليها عنى . هذا قولُ من لم يُلمّ بقلبه خوف ألم !

مِحْنتى فيك أننى لا أبَالى بمحنتى
يا شفائى من السقا م وإن كنت عِلّتِى

* * *

وإذا وصل الحاج إلى المدينة المشرفة فيجعل على فكره[1] تعظيمَ من يقصده ، وليتخايَلْ فى مساجدها وطرقاتها نَقْل أقدام المصطفى هناك وأصحابه ، وليتأدب فى الوقوف وليستشفع بالحبيب وليأسف إذ لم يَحْظ برؤيته ولم يكن فى صحابته .

وما رُمْتُ من بعد الأحِبَّة سَلْوةً ولكننى للنائبات حَمُولُ
وما شَرَقى بالماء إلا تذكُّراً لماء به أهلُ الحبيب نزُولُ

وينبغى لمن عاد من الحجّ أن يَقْوى رجاؤه للقبول ويَحْو ما سلف ، وليحذر من تجديد زَلَل[2] .

وقد سئل الحسن البصرى : ما الحج المبرور؟ فقال: أن تعود زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة .

أخبرنا أبو منصور القزّاز بسنده عن عبد الرحمن بن عبدالباقى قال : سمعت بعض مشايخنا يقول: قال على بن الموفّق : لما تمّ لى ستون حِجّة خرجت من الطواف وجلست بحذاء الميزاب وجعلت أفكر لا أدرى أىّ شىء حالى عند الله عز وجل وقد كثر تودُّدى إلى هذا المكان؟ فغلبتْنى عينى فكأن قائلا يقول لى : يا علىّ أتدعو إلى بيتك إلا من تحبه ؟ قال : فانتبهت وقد سرّى عنّى ما كنت فيه .

(١) ا : على قلبه .
(٢) فى التلخيص : من تجديد ما زال .

(الكلام على البسملة)

غفلتُ وليس الموتُ فى غفلةٍ عنِّى ... وما أحــدٌ يَجْنى علىَّ كما أجْنى
أشيِّد بُنْيانى وأعــلم أننى ... أزولُ ، لمن شيَّدْته ولمن أبْنِى
كفانىَ بالموت المنغِّص واعظاً ... بمــا أبصرتْ عينى وما سمعت أذْنى
وكم للمنايا من فنون كثيرةٍ ... تميتُ وقــد وطَّنْتُ نفسى على فَنّ
ولو طرقَتْ ما استأذَنَتْ من يحبنى ... كما أفقدتنى من أُحِبُّ بلا إذْنِ
وقد كنت أفدِى ناظريه من القذَى ... فغطِّيت ما قــد كنت أفديه بالعينِ
ستَنْجِننى يا ربِّ فى القــبر برهةً ... فلا تجعل النيرانَ من بعده سِجْنِى
ولى عند ربى سيئات كثيرة ... ولكنني عبدٌ به حسَن الظنِّ

* * *

من للعاصى إذا دُعى لحضر ، ونشر كتابه ونظَر ، لم يُسْمع عذرُه وقــد اعتذر ، وناقشه المولى فمــا غفَر ، آه لراحلٍ لم يتزود للسفَر ، ولخاسر إذا ربح المتقون افتقر ، ولمحروم جنة الفردوس حَلَّ فى سقَر ، ولفاجر فضحه فجوره فاشتهر ، ولمتكبر بالذل بين الكل قد ظهر ، وإلى محمول إلى جهنم فلا ملجأ له ولا وزَر ، آه من يوم تكوَّر فيه الشمس والقمر ، يا كثير الرباء قل إلى متى تُخْلصُ ، يا ناسِىَ الأنكال إن كالَ فتلصَّص ، ما يتخلَّص من معامل ولا هو عند الله مُخْلص ، الدهر حريصٌ على قتلك يا من يَحْرِص ، تفكر فيمن أصبح مسرورا فأمسى وهو متنغِّص ، ومتى أردتَ لذة فاذكر قَبْلها المنغِّص ، ونعلمَ أن الهوى ظِلٌّ والظل متقلص ، وخذ على نفسك لاتسامحها ولا ترخِّص ، حائط الباطل خرابٌ فإلى كم تُجصِّص ، أين الهمُّ المجتمع تفرّق فما ينجمع ، يدعوك الهوى فتَتَّبع ، وتحدِّثك المُنَى فتستمع ، كم زجرك ناصحٌ فلم تطع ، سار الصالحون يا منقطع ، ما الذى عاقك لَهْوٌ مُخْتدِع ، شرَوْا ما يبقى بمــا يَفْنَى وأنت لم تشرِ

ولم تَبِعْ ، أين تعبهم ؟ نُسخ بالرَّوْح ولم يُضعْ ، تلمَّحْ العواقبَ فلِتلمُّحها العقل وضِع ، كأنه ما جاع قط من شبع .

جُزْ على الشونيزيّ[1] أو على قبر أحمد ، وميِّز من أطاع ممن أضاع فمَنْ أحْمَد ؟ قبور الصالحين تؤنس الزائر ، وقبور الظَّلَمة عليها ظلام متوافر ، جُذْ على قبور العُبَّاد ونادِ في ذلك النادِ : أيتها الأودية والوِهاد ، ما فعلت تلك الأوراد :

تعاهدتك العِهَاد يا طَلَلُ ... خبِّر عن الظاعنين ما فَعلُوا
فقال لم أدْرِ غير أنهُم ... صاح غرابُ البَيْن فاحتملُوا
لا طابَ ليلى ولا النهار لمن ... يَسْكُنني أو يردُّهم قَفَلُ[2]
ولا تحليت بالرياض وبالنَّوْ ... ر ومَغْناىَ منهمُ عَطِلُ
خلِّ هذا فما عليك لهم ... قلت أبِينُ وأدْمع هُطُلُ
وأنني مُقْفَل الضمائر عن ... حُبٍّ سِواهم ما حنَّت الإبلُ
فقال هــــلا اتبعتهم أبدا ... إن نزلوا مَنْزلا وإن رحلُوا

* * *

سبحان من قسّم الأقسام ، فلقومٍ يقظةٌ ولقوم منام .

قال وهب بن منبه : كان في بني إسرائيل رجــلان بلغت بهما عبادتهما أن مشياَ على الماء ، فبينما هما يمشيان في البحر إذا هما برجل يمشي في الهواء فقالا له : يا عبدالله بأي شيء أدركت هذه المنزلة ؟ فقال : بيسير من الدنيا : فطمتُ نفسي عن الشهوات وكففتُ لساني عما لا يَعْنيني ، ورغبت فيما دعاني ، ولزمت الصمت . فإن أقسمت على الله أبرّ قسمي ، وإن سألته أعطاني .

---

(١) الشوْنيزِية : موضع ببغداد به مقبرة مشهورة بها مشايخ الزهاد : سري السقطي وجنيد بن محمد وغيرهما .

(٢) القفل : اسم الجمع لقافل بمعنى راجع .

يا بعيدا عن الصالحين ، يامطرودا عن المفلحين ، لقد نصَبَ الشيطانُ الأشراكَ وجعل حَبَّ الفخِّ هواك ، وكم رأيت مأسوراً وسط ذاك ، وليس المراد الآن إلّاك ، احذر فَخَّه فهو بعيد الفَكَاك ، كم يومٍ غابت شمسه وقلبك غائب ، وكم ظلام أُسبل ستره وأنت في عجائب ، كم ليلةٍ بالخطايا قطعْتَها ، وكم من أعمال قبيحة رفعتها ، وكم من ذنوب جمعتها والصحفَ أَوْدعتَها ، كم نظرة ما تحلُّ ما خِفْت ولا منعتَها ، كم من موعظة تَعِيها وكأنك ما سمعتَها ، وكم من ذنوب تعيب غيرَك بها أنت صنعتَها ، وكم أمرتْــك النفس بما يؤذِى فأطعتَها ، يا موافقاً لنفسه آذَيْتَها ، خالفْها وقد نفعتَها :

طوى نفسَه عنك[1] الشبابُ المزايلُ ... وأسلمت للشَّيْب الذى لا يزايلُ

نسير إلى الآجال فى كل ساعةٍ ... وأيامنا تُطْوَى وهُنَّ مَراحلُ

ولم أرَ مثلَ الموت حقًّا كأنه ... إذا ما تخطَّتْه الأمانىُّ باطلُ

وما أقبح التفريطَ فى زمن الصِّبَا ... فكيف به والشَّيْب فى الرأس شاملُ[2]

ترحَّلْ عن الدنيا بزادٍ من التُّقَى ... فعُمْرك أيامٌ وهن قلائلُ

الكلام على قوله تعالى « إنّ الذين يَتْلون كتابَ الله وأقاموا الصلاةَ »[3]

كان مُطَرِّف بن عبد الله يقول : هذه آية القُرّاء .

ومعنى يتلون يقرءون .

وفى أفراد البخارى من حديث عثمان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرُكم من تعلَّم القرآنَ وعلَّمه[4] » .

أخبرنا هِبَة الله بن محمد بسنده عن عبد الرحمن بن زيد العقيلى عن أبيه عن أنس ،

---

(١) التلخيص : عنى .
(٢) التلخيص : شائل .
(٣) سورة فاطر ٢٩ .
(٤) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن باب ٢١ .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عز وجل أهْلِين منَ الناس . فقيل : مَنْ أهلُ الله منهم ؟ قال : أهلُ القرآن هم أهلُ الله وخاصته[١] » .

أخبرنا عليّ بن عبيد الله وأحمد بن الحسن وعبد الرحمن بن محمد بإسنادهم ، عن عُقْبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يعــذِّب الله قلْبا وعَى القرآن[٢] » .

أخبرنا الكَرُوخي بسنده عن محمــد بن كعب القرشي قال : سمعت عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله به حسنةٌ والحسنة بعَشْر أمثالها ، لا أقول الٓمٓ حرف ، ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف » .

أخبرنا ابن الحصين بسنده عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقال لصاحب القرآن يوم القيامة : اقرأ وارْقَ ورتِّل فى الدنيا فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها[٣] » .

* * *

واعلم أن لتلاوة القرآن آدابا : منها : أن يقرأ وهو على وضوء متأدِّبا مُطْرقا مرتِّلا بتَحزين وبكاء مُسِرًّا معظِّما للكلام والمتكلم به مُحْضراً لقلبه ، متدبِّراً لما يتلوه .

وقد كان فى السلف من يَخْتِم فى كل يوم وليلة . وقد كان عثمان رضى الله عنه يختِم فى الوِتْر . ومنهم من كان يختِم خَتْمتين .

وقد كان الشافعى رضى الله عنه يَخْتِم فى رمضان ستين ختمة ومنهم من يختِم ثلاث ختمات[٤] ، وهــؤلاء الذين غلب عليهم انتهاب العمر ، ومنهم من كان يختِم فى كل

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ٣ / ١٢٨ ، ٢٤٢ .

(٢) أخرجه الدارمى فى سننه كتاب فضائل القرآن .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب ثواب القرآن ، وأحمد فى مسنده ٣ / ٤٠ .

(٤) ب : ومنهم من ختمه ثلاث مرات .

أسبوع اشتغالًا بنشر العلم ، ومنهم من كان يختم كل شهر إقبالا على التدبر .

وقد روى أبو ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قام ليلةً بآية يردّدها : « إنْ تعذّبهم فإنهم عِبادُك[1] » .

وقام تميم الدارى بآية : « أم حَسِب الذين اجترحوا السيئات»[2] . وكذلك قام بها الربيع بن خُثَيْم .

وقال أبو سليمان الدّارانى : إنى لأقيم فى الآية أربع ليال أو خمس ليال .

وقد بقى بعض السلف سنتين فى خَتْمة .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : من ختم القرآن فله دعوة : مستجابة .

وقال عبد الرحمن بن الأسود : من ختم القرآن نهاراً غُفر له ذلك اليوم ، ومن ختمه ليلًا غُفر له تلك الليلة .

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أنبأنا ابن النَّقُّور ، أنبأنا ابن حبابة، حدثنا البغوى حدثنا هُدْبَة ، حدثنا حماد بن مسلمة عن أبى مسكين عن طلحة بن مصرف قال : من ختم القرآن فى أى ساعة من النهار كانت صلّت عليه الملائكةُ حتى يُمْسى أو أىّ ساعة من الليل كانت صلّت عليه الملائكةُ حتى يُصْبح .

وقد روى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إن الرجل الذى ليس فى جوفه من القرآن شىء كالبيت الخَرِب »[3] .

وروى سعد بن عُبَادة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « ما من امرئٍ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقى الله عز وجل يوم القيامة وهو أجْذَم »[4]

(١) سورة المائدة ١١٨ . والحديث ذكره ابن الجوزى أيضا فى الوفا ص ٤٠٥ .

(٢) سورة الجاثية ٢١ .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب ثواب القرآن .

(٤) أخرجه أبو داود فى كتاب الوتر وأحمد فى مسنده ٥ / ٢١٢ ، ٢١٣ والدارمى فى مسنده كتاب فضائل القرآن .

وفى حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اقرءوا القرآن وابتغوا به الله عز وجل من قَبْل أن يأتى قومٌ يقيمونه مقامَ القِدْح يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه » .

قال ابن مسعود : ينبغى لحامل القرآن أن يُعْرف بليله إذ الناس نائمون وبنهاره إذ الناس مفرِّطون، وبحُزْنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون .

أخبرنا ابن ناصر قال حدثنا عبد القادر ، أنبأنا يوسف ، أنبأنا الحسن بن على التميمى ، حدثنا أحمد بن جعفر ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا على بن مسلم ، حدثنا سيَّار ، حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: يا حَمَلة القرآن ماذا زرع القرآنُ فى قلوبكم؟ فإن القرآن ربيعُ المؤمنين كما أن الغيث ربيع الأرض ، وقد ينزل الغيثُ من السماء إلى الأرض فيصيب الحُش[1] فتكون فيه الحَبَّة فلايمنعها نَتَن موضعها أن تخضرّ وتهتزّ وتحسُن ، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ .

قال الفُضَيْل رحمه الله : حاملُ القرآن حاملُ راية الإسلام ، لا ينبغى أن يلهو مع من يلهو ولا يَسْهو مع من يسهو، ولا ينبغى أن يكون له إلى أحد حاجة ، « إلى الخلفاء إلى من دونهم »[2] ، وينبغى أن تكون حوائج الناس إليه .

وقال أحمد بن حنبل رضى الله عنه: رأيت ربَّ العزة عز وجل فى المنام فقلت يارب : ما أفضل ما يتقرب به المتقربون إليك ؛ فقال : بكلامى يا أحمد . فقلت : يا رب بفهمٍ أو بغير فهم ؟ فقال : بفهم وبغير فهم .

* * *

(١) الحش : موضع قضاء الحاجة .

(٢) ليست فى ا .

قوله تعالى : « وأقاموا الصلاة » المعنى : ويقيمون الصلاة وهو إتمامها بحدودها في مواقيتها .

قال بعض السلف : رأيت بجبل اللُّكام[1] شابًا مُصْفَرًّا يصلِّي العشاء الآخرة ثم يصف قدميه فيختم القرآن في ركعتين ، ثم يبكي إلى الفجر .

* * *

قوله تعالى : « وأَنفقُوا مما رزقناهم سِرًّا وعلانية » كانوا إذا قدروا على السرّ لم يُخْرِجوا الصدقة علانية ، لأن صدقة السرّ تزيد على العلانية سبعين ضعفا .

وفي الصحيحين أن أبا طلحة قال : أحب أموالي إليّ بئرحاء وهي صدقة لله تعالى لو قدرت أن أُسِرَّهُ لم أعلنه .

* * *

يا مقصِّرًا في أعماله بخيلا بماله ، لا تسألوا عن حاله يوم ترْحاله ، يا دائم الخسران فما بربح ، يا مقيما على المعاصي ما يَبْرح ، متى رأيت من فعل فعلك أفلح ، تَقَبل من العدوِّ ولا تقبل ممن ينْصح ، قم على قدمَ الطَّلَب فاقْرَع الباب بالأدب يُفتح ، صاحبْ أهلَ الخير تكن منهم ، واستفدْ خِصَالهم وخذ عنهم .

* * *

قوله تعالى : « يَرْجون تجارةً » أي يرجون بفعلهم تجارة « لن تبور » أي لن تفسد ولن تكسد . وهذا جواب قوله تعالى : « إن الذين يَتْلون كتابَ الله » .

لمّا سمعوا مضاعفةَ الأجر في قوله تعالى : « مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حَبَّةٍ أنبتت سَبْع سنابلَ في كلِّ سنبلةٍ مائةُ حَبَّةٍ[2] » . ثم سمعوا قوله تعالى: « فيضاعفَه له أضعافًا كثيرةً »[3] . قال ابن عباس : لا ينقضي عدَدها .

(١) اللكام : جبل يسامت حماة وشيزر وأفامية ويمتد شمالا إلى صهيون وينتهي عند أنطاكية .
(٢) سورة البقرة ٢٦١ . (٣) سورة البقرة ٢٤٥ .

وقال أبو هريرة : إن الله تعالى يكتب للمؤمن بالحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة ولما سمعوا لفظ « القَرْضُ فى ذمة الله »(١) . بادروا بالأموال .

أخبرنا يحيى بن على المدبر بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزل قوله تعالى : « من ذا الذى يُقرض الله قرضا حسنا فيضاعفَه له أضعافا كثيرة » . قال أبو الدَّحْدَاح يعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : وإن الله تعالى ليريد منا القرض ؟ قال: نعم : قال : أرنى يدك يارسول الله . قال فناوله يده فقال : إنى قد أقرضتُ ربى حائطى . قال وحائطه فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها فجاء أبو الدحداح فنادى: ياأم الدحداح . قالت:لبيك . قال: اخرجى من الحائط فقد أقرضتهُ ربى عز وجل وفى رواية أخرى أنها لما سمعت ذلك عمدت إلى صبيانها تخرج ما فى أفواههم وتنفض ما فى أكمامهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كم من عِذْق رَدَاح(٢) فى الجنة لأبى الدحداح » .

* * *

سبحان من خلق تلك النفوس واختارها ، وصفَّاها بالتُّقى ورفع أكدارها ، وجعل حِمَى معرفته وجَنَّتَه دارَها ، فإذا مرَّت على النار أطفأ نورُها نارَها، قوم تيقظوا فى أمورهم وعقلوا ، وحاسَبوا أنفسهم فما أضاعوا ولا غفلوا ، وحاربوا جنودَ الهوى فأسَروا وقتَلوا ، وتدَّبروا منازلَ اليقين مع سادة المتقين ونزلوا ،فأولئك لهم جزاء الضِّعف بما عملوا .

إخوانى : رحلَ من أصِفه وبقى من لا أعرفه(٣)، سَلْ عنهم الشُّمْثُ القبور، وزُرْ إذا اشتقْتَهم القبور .

(١) فى قرة العيون : فى ذمة الكريم .

(٢) العذق : القنو من النخلة . والرداح : المثقل بالحمل .

(٣) ب : نعرفه .

لمَن الطُّـــول كأنهن (م) بجزْع ذى سَـــلَم سُطُورُ
تَطْوى مَعالمها الصَّبا طَوْرا وتَنْشرها الدَّبُورُ
وكَفتْ بها منْ أدْمعى فى الركْب غادِيَةٌ دَرُورُ[1]
ولقَلَّ ما تُجْدى الدمو عُ ويَنْفع الصبَّ الزَّفيرُ
أقْوَتْ[2] من الحىِّ الدِّيا رُ فما لها فى العَيْن نورُ

سجع على قوله تعالى : « يرجون تجارة لن تبور »

كانوا يقومون الدَّيْجور ، ببكاء مطرودٍ مهجور ، ورغْدُ قلوبهم مُقْلق زَجُور ، فامتلأت بالخيرات الحُجور « يَرْجون تجارةً لن تَبُور » .

رفضوا الدنيا شُغْلا عن الزينة ، وأذلوا نفوسهم فعادت مِسْكينة ، وعلموا أن الدنيا سفينة فتهيأوا للعُبور « يرجون تجارة لن تبور » .

يُؤْثرون بالطعام ويُؤْثِرون الصيام، ويَأْملون فضل الإنعام، فما كانت إلا أيام حتى اخضرت البذُور « يرجون تجارة لن تبور » بعثوا الأموالَ الحبيبة إلى بلاد البَعْث الغريبة، فإذا الأرباح عن قريب قريبة ، وعلى هذا التجارة تدور « يرجون تجارةً لن تبور » .

العليل عليل ، والأنين طويل ، والعيون تسيل ، وما مضى إلا القليـــل حتى فرح الصَّبُور « يرجون تجارةً لن تبور » .

يقفون وقوف مسكين ، ويذلون ذلّ مُسْتكين ، فنالوا المقام الأمين ، وانشعب[3] قلبُ الحزين بأكمل الحُبور « يرجون تجارة لن تبور » سليمُهم كالسَّليم[4]، وحزنهم مقيم ، يحذرون الجحيم ويرجون النعيم فى كمال الحبور « يرجون تجارة لن تبور » .

(١) الغادية : السحابة تنشأ غدوة . والدرور : الغزيرة المطر، يريد أنه بكى بدموع غزيرة .
(٢) أقوت : خلت .   (٣) انشعب : انصلح .
(٤) السليم الأولى بمعنى الصحيح الجسم والثانية بمعنى اللديغ ، وإنما قالوا ذلك تفاؤلا .

للقلب مع الدنيا نبا[1] ، كلما عارضه الهوى نَبا[2]، يندبون نَدْب الأسرى الغُرَبا ، والزفراتُ على ذنوب الصِّبا تزيد على الصَّبا والدَّبُور « يرجون تجارة لن تبور » .

يا من يَدْفن مالَه تحت الأرض ولا يفهم معنى القَرْض ، سيخرج الوارث بالفرض إلى الدرهم والدُّور . « يرجون تجارة لن تبور » .

سبحان من قصى لقومٍ سرورا ، وعلى آخرين ثُبوراً فما لهم من نور « يرجون تجارة لن تبور » .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) نبا : أصلها نبأ مهموزا بمعنى الخبر ، وإنما سهلها رعاية للسجع .

(٢) نبا : بعد .

المجلس السابع
فى الأخوة والصداقة

الحمد لله الذى لطف بالبرايا إذ براهم وبرّ، وروّح أرواحَ أهل الصلاح براح الفلاح وسَرّ، واطّلع على ضمير من نوى وسِرِّ[1] من أسَرّ، وقدّر الأشياء فقضى الخير وقضى الشر، وأمات وأحيا وأفقر وأغنى ونفع وضرّ، جفّ القلم بتقديره فقضى الأمرُ واستقرّ، بقدرته تقطع المراكبُ البحر والمركوبُ البرّ، لُطْفه عظيم وجوده عميم قد استمر «رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبَرّه[2]» سميع يسمع المذنب المضطر، بصير يرى فى دُجَى الليل الذرّ، عليمٌ بانكسار من ندم وإصرار من أصرّ، حليم فإن سطا رأيت الأمرَ الأمَرّ، ما ألطفه بعبده يدعوه لرفع ماعرّ[3] «فإذا كشَفْنا عنه ضُرَّه مَرّ[4]».

يمدُّ رواق الظلام فإذا لاح الصباح فرّ، وينير النهار فإذا انقضى عاد الليل وكرّ، «فالقمر آيةُ الليل والشمسُ تجْرى لمستقر».

أحمده على إنعام كلما احتلب درّ، وأقر بوحدانيته عن دليل قد استقر، وأصلى على رسوله محمد الذى عمّت رسالته البحر والبر، وعلى صاحبه أبى بكر المنفق حتى تخلّل وزرّ[5]، وعلى عمر الزاهد فما غرّه ما غرّ، وعلى عثمان الذى ارتفع بالكرم فبَرّ وأبَرّ، وعلى علىّ الذى ما أقْدَم قط ففَرّ، وعلى عمه العباس المقدم نسباً والفخر قد استقر.

* * *

قال الله تعالى: «هو الذى أيَّدَك بنَصْره وبالمؤمنين[6]» أيدك بمعنى قوّاك بنصره

---

(١) ا، والتلخيص : وعزم .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب البر حديث رقم ١٣٨ وكتاب الجنة حديث رقم ٤٨، ٦٠ .

(٣) ا : ماضر . (٤) سورة يونس ١٢ .

(٥) تخلل : شد كساءه بخلال لأنه تصدق بجميع ماله ولم يبق له شىء .

(٦) سورة الأنفال ٦٢ .

وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم. التأليف : الجمع على ما يشاكل[١]. والمراد بالآية الأوس والخزرج وهم الأنصار ، وكانت بينهم عداوة فى الجاهلية فألفَّ الله عز وجل بينهم ، وهذا من أعجب الآيات ، لأنهم كانوا ذوِى[٢] أنَفة شديدة ، فلو أن رجلا لَطَم رجلا لقاتلتْ عنه قبيلتُه حتى تُدْرِكَ ثأره ، فآل لهم الإسلام إلى أن يقتل الرجلُ ابنَه وأباه فى طاعة الله عز وجل .

وقد روى أبو الأَحْوص ، عن ابن مسعود فى قوله تعالى « لو أنفَقْتَ ما فى الأرض جميعا ما ألَّفت بَيْن قلوبهم » قال : هم المتحابون فى الله تعالى .

* * *

اعلم أن المعنى الجامع بين المسلمين الإسلام ، فقد اكتسبوا به أخوّة أصلية ، ووجب عليهم بذلك حقوقٌ لبعضهم على بعض .

وفى الصحيحين من حديث النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَثَل المؤمنين فى توادِّهم وتَراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسَد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى »[٢] .

وفيهما من حديث أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : المؤمنُ للمؤمن كالبُنْيان يشدُّ بعضه بعضا » وشبَّك بين أصابعه[٣] .

وفيهما من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن عبدٌ حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه[٤] » .

وفى حديث مسلم : لجارِه أو لأخيه .

---

(١) ا : على مايشاء .

(٢) صحيح البخارى كتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب البر حديث رقم ٦٦ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب البر حديث رقم ٦٥ .

(٤) صحيح البخارى كتاب الإيمان وصحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٧١ ، ٧٢

وفيهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «حقُّ المسلم على المسلم خمسٌ : يسلِّم عليه إذا لقيه، ويشمِّته إذا عطس، ويَعُوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويجيبه إذا دعاه[١] » .

وإذا ثبتت هذه الحقوق للاشتراك فى الإسلام فكلما زادت المخالطة وصفاً زادت الحقوق، مثل القرابة والمجاورة والضيافة والصحبة والصداقة والأخوة الخاصة فى الله عز وجل .

فأما حق القرابة : فمعلومٌ : وجوب بر الوالدين وتقديم الأم فى البر ووجوب صِلَة الرحم .

وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مَنْ أحب أن يوسَّع الله عليه فى رزقه ويُنْسأ له فى أثره فليصِلْ رحمه[٢] » .

وأما حق الجار ففى الصحيحين من حديث ابن عمر وعائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم . أنه قال : « مازال جبريلُ يوصينى بالجار حتى ظننْت أنه سيورِّثه[٣] » .

وأما حق الضيف ففى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[٤]

وأما حق الصحبة فقال مجاهد : صحبت ابنَ عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمنى أكثر .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب السلام حديث رقم ٤ ـ ٦ .
(٢) صحيح البخارى كتاب البيوع وصحيح مسلم كتاب البر حديث رقم ٢٠ ، ٢١ .
(٣) صحيح البخارى كتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب البر حديث رقم ١٤٠ . وسنن الترمذى كتاب البر وسنن ابن ماجه كتاب الأدب ومسند أحمد ٢ / ٨٥ .
(٤) صحيح البخارى كتاب الأدب وكتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٧٤ ـ ٧٥ ، ٧٧ .

وأما حق الصداقة فإنها تُطلق على ما دون الأخوّة، فالأخوّة هي المرتبة العليا، وإنما تقع الأخوّة الصادقة إذا حصل التشاكل بين الأخوين في أصل الوضع. وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأرواحُ جنودٌ مجنَّدة فما تعارَف منها ائتلف وما تناكَر منها اختلف»(١).

قال أبو سليمان الخطّابي رحمه الله: ومعنى هذا الحديث: الإخبار عن مبدأ كوْن الأرواح وتقدُّمها الأجسادَ، على ماروي أن الله عز وجل خلق الأرواح قبلَ الأجساد بكذا وكذا، فأعلَمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنها خُلقت على ائتلاف واختلاف فتأتلف الأجسادُ في الدنيا وتختلف على حسب ما وقع في مبدأ الخِلْقة.

وفي هذا الحديث دليل على أن الأرواح ليست بأعراض وأنها كانت موجودة قبل الأجساد، وأنها تبقى بعد الأجساد. ويؤيد هذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «أرواحُ الشهداء في حواصِل طيرٍ خُضْر تَعْلُق في ثمر الجنة»(٢).

وهذه الأخوة الخاصة هي التي عقَدها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، وقد علم أن الأخوة العامة في قوله تعالى: «إنما المؤمنون إخوةٌ»(٣) واقعة قبل عَقْده، غير أنه أراد الأمر الخاص.

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الرَّبِيع(٤). وقد آخَى بين خَلْق كثير ذكرتهم في كتاب التَّلْقيح(٥).

(١) صحيح البخاري كتاب الأنبياء وصحيح مسلم كتاب البر حديث رقم ١٥٩، ١٦٠.

(٢) الحديث ورد بروايات مختلفة في صحيح مسلم كتاب الإمارة حديث رقم ١٢١ والترمذي في كتاب التفسير سورة ٣، ١٩ ومسند أحمد ٦ / ٣٨٦. (٣) سورة الحجرات.

(٤) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار وكتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٠٣.

(٥) هو كتاب تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي المطبوع في حيدر آباد.

وهذه الأخوة هي التي توجب المحبة في الله عز وجل ، وهي أوثق عُرَى الإيمان . كذلك روى البرَاء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أوثق عُرَى الإيمان أن تحب في الله وتُبْغِضَ في الله »[١] .

ومن جملة ثواب المتحابين ما روى في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظِلَّ إلا ظلُّه» فذكر منهم رجلين تحابَّا في الله عز وجل اجتمعا عليه وتفرقا عليه[٢] » .

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن أبي الحباب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : أين المتحابُّون بجلالي ؟ اليوم أُظلُّهم في ظِلِّي يوم لا ظل إلا ظلي » .

انفرد بإخراجه مسلم[٣] .

وبالإسناد عن أبي مسلم الخَوْلاني قال : أتيت مسجد أهل دمشق فإذا حَلْقة فيها كهول من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا شاب فيهم أكحل العين برَّاق الثنايا كلما اختلفوا في شيء ردُّوه إلى الفتى ، فقلت لجليس لي : من هذا ؟ قال : هذا معاذ ابن جبل فجئت من العشيّ فلم يحضر ، فغدوت من الغد فلم يجئْ ، فخرجت فإذا أنا بالشاب يصلِّي إلى سارية فركعت ثم تحوَّلت إليه ، قال : فسلَّم فدنوت منه فقلت : إني أحبك في الله تعالى قال : فمدّني إليه وقال : كيف قلت ؟ قلت : إني أحبك في الله . قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « المتحابُّون في الله على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظلَّ إلا ظله[٤] ».

(١) في سنن أبي داود كتاب السنة : « أفضل الأعمال الحب في الله » .

(٢) صحيح البخاري كتاب الزكاة وكتاب الحدود وصحيح مسلم كتاب الزكاة حديث رقم ٩١ .

(٣) صحيح مسلم كتاب البر حديث رقم ٣٨ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٥ / ٢٣٧

قال : فخرجت حتى لقيت عبادة بن الصامت فذكرت حديثَ معاذ بن جبـل فقال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن ربه عز وجل يقول : « حَقَّت محبتى للمتحابِّين فىّ ، وحقت محبتى للمتباذلين فىّ ، وحقّت محبتى للمتزاورين فىّ ، والمتحابون فى الله على منابر من نور فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله[1] » .

وفى حديث عمرو بن عَبْسة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إن الله عز وجل يقول : حقت محبتى للذين يتحابُّون من أجلى ، وحقت محبتى للذين يتصافَوْن من أجْلى » .

وفى حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لله عز وجل عِباداً على منابر من نور فى ظل العرش يَغْبطهم الشهداء . قيل : من هم ؟ قال: المتحابُّون فى جلال الله عز وجل » .

* * *

واعلم أن هذا الثواب فى هذه المحبة إنما يكون إذا كانت لله تعالى خالصة لا يَشُوبها شى من الكدَر ، ومتى قويت محبة الله سبحانه وتعالى فى القلب قَوِيت محبة أوليـائه والصالحين من عباده ، فلينظر الإنسان من يؤاخى ومن يحب ، ولا ينبغى أن يتخيَّر إلا من قد سَلِم عقلُه ودينه . وقد قال عليه السلام : « المرء على دِين خليله فلينظر أحدكم من يُخالِل[2] » .

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : المرء مع من أحبَّ[3] » .

---

(١) أخرج نحوه مالك فى الموطأ . (٢) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الزهد

(٣) صحيح البخارى كتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب البر حديث رقم ١٦٥ .

فإذا أحبَّ شخصا فليُعلمه. وروى المقدام بن مَعْدِى كَرِب عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أحب أحدُكم أخاه فليُعْلمه إياه[1] .

وقال عِمْران بن حَطَّان : لقد أحببتُ فى الله عز وجل ألفَ أخٍ كلهم أعرف اسْمَه واسمَ أبيه وقبيلته ومكان داره .

وقال أبو زُرْعة بن عمرو بن جرير : ما تحاب رجلان فى الله عز وجل إلا كان أفضلهما أشدُّهما حبًّا لصاحبه .

وكان يقول : اصحب من إذا صحبته زانَك ، وإن خدمته صانك ، وإذا أصابتك خصَاصة مانَك ، وإن رأى منك حسنة سُر بها ، وإن رأى منك سَقْطة سترها ، ومن إذا قلت صدَّق قولك ، ومن هو فوقك فى الدِّين ودونك فى الدنيا ، وكلُّ أخ وجَليس وصاحب لا تستفيد منه فى دينك خيرا فانبذ عنك صُحْبته .

* * *

فإذا صفت المحبة وخلصتْ وقع الشوقُ والتزاور وصار بَذْل المال أحقر الأشياء .

فأما التزاور فقد ذكرنا فضيلته .

وقد كان عمر بن الخطاب يذكر الأخَ من إخوانه فى بعض الليل فيقول : ياطُولها من ليلة ! فإذا صلَّى المكتوبة غدا إليه فاعتنقه .

وقال مجاهد : إذا مشى أحد المتحابَّيْن إلى الآخر فأخذ بيده فضحك إليه تحاتَّتْ خطايَاه كما يتحاتّ ورق الشجر .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، قال أنبأنا أبو بكر الخطيب ، أخبرنى عبد العزيز الأزَجى ، حدثنا عبد الله بن محمد بن سليم الملَّاف [عن معروف الكَرْخى][2] قال : امشِ مِيلًا صَلِّ جماعةً ، امش ميلين صل جُمْعةً ، امش ثلاثة أميال عُـدْ مريضا،

(١) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الزهد . (٢) من قرة العيون للبصرة .

امش أربعة أميال شيِّع جنازةً ، امش خمسة أميال شيِّع حاجًا أو معتمرا ، امش ستة أميال شيِّع غازيا فى سبيل الله ، امش سبعة أميال بصدقة من رجل إلى رجل، امش ثمانية أميال أَصْلح بَيْن الناس ، امش تسعة أميال صِلْ رَحما وقرابة ، امش عشرة أميال فى حاجة عيالك ، امش أحد عشر ميلا فى معاونة أخيك ، امش بَرِيدا والبريد اثنا عشر ميلًا ـ زُرْ أخاً فى الله عز وجل !

وأما بَذْل المال فله ثلاث مراتب : أَهْونُها : المساهمة فى المال ، وأوسطها المواساة ، وأعلاها تقديمُ الأخ فى المال على النفس .

وقد روينا آنفا : « حَقَّت محبتى للمتباذِلين فىّ » .

قال ابن عمر : لقد رأيتُنا وما أحدُنا بأحقّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم .

وقال الحسن : كنا نعدُّ البخيلَ الذى يُقْرِض أخاه !

وقال : ليس من المروءة أن يربح الرجلُ على صديقه .

وقال أبو جعفر الباقر لأصحابه : هل يُدْخل أحدكم يدَه فى كُمّ صاحبه فيأخذ منه ما يريد ؟ قالوا : لا . قال : فلستم بإخوان .

وقد كان بعضهم يتلطَّف فى إيصال البِرّ إلى إخوانه فيأتى بالصرّة فيها الأربعمائة والخمسمائة فيودِعها أحدَهم ثم يلقاه بعد فيقول : انتفعوا بها فهى لكم .

وعلى هذا لا ينبغى للأخ أن يُجْحف بأخيه فيما يأخذ منه وإن عَلِم أنه لا كلفة عليه فى ذلك ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال له أبو بكرٍ زمن الهجرة : قد علَفْت ناقتين فخذ إحداهما فقال : بالثمن .

* * *

هيهات! رَحل الإخوان وأقام الخُوّان ، وقلّ أن ترى فى الزمان إلا من إذا دُعِى مان[1] .

---

(١) مان : كذب ، فهو مائن .

(الكلام على البسملة)

أجدُ الديارَ كما عهدْتُ وإنما ... شكواىَ أنى أفقدُ الجيرانَا
ياوحْدتى ما أكثر الإخوان لى ... نَظَرا وأكثرَ فيهم الخُوّانَا !
فى كل مَطْرح نظرةٍ حولى أخٌ ... صِنْوٌ إذا هَزَّ الغِنَى الأفنانَا
راعٍ معى أبدا فإن هى أعجفت ... إبلى تقلّب أو يَعُدْن سِمَانا
أشربه من خَفْض المعيشة غالياً ... ويبيعنى فى ضَنْكها مَجّانَا
ألقاهم عددَ الكواكب كثرةً ... حَوْلى وألقى وحدىَ الحدثانَا

إخوانى : إن البخل والجهل للقلوب قد خالَط ، فما يُعْرف من يُخَالَط .

كان السلف يتعاشرون بنَزْع الغِلّ على مناصحة النفوس ، فصارت عِشْرة العَشيرة على موافقة الهوى بدخَن الضمير ، كانوا يميلون على الدنيا بالذمّ فصار المَيْل إليها بالقلب ، تمالئُوا على حبهـــا ومالوا ، فإذا فرّت عن صديقهم أعرضوا ومالوا ، فافتح بصرَ البصيرة فعلى هذا تراهم ، ثم التفتْ عنهم وإياك وإياهم :

اسمعى منّى أبُثّكِ شـــانِى ... إنما يُبْدى ضميرى لسانِى
كم أخٍ لى كان منّى فلمّا ... أنْ رأى الدهرَ جفانى قد جفانِى
لم يرُعْنى غير خِلّ غادرٍ ... موتر نَحْرى لقوسِ الزمانِ
مستعدٌّ لى بسهمٍ عنـــدما ... أن رأى الدهر رمانى قد رمانِى

* * *

كان الأخ فى الله يَخلف أخاه فى أهله إذا مات أربعين سنة ! وكان الرجل إذا أراد شَيْن أخيه طلب حاجته من غيره .

خرج إبراهيم بن أدهم رحمه الله فى سفر ومعه ثلاثة نفر ، فدخلوا مسجدا فى بعض المفاوز والبرد شديد وليس للمسجد باب ، فلما ناموا قام إبراهيم فوقف على الباب إلى

الصباح ، فقيل له : لم تنم ؟ فقال: خشيت أن يصيبكم البرد فقمت مقام الباب !

وجاء رجل من السلف إلى بيت صديق له فخرج إليه فقال : ماجاء بك ؟ قال: على أربعمائة درهم فدخل الدار فوزنها ثم خرج فأعطاه ثم عاد إلى الدار باكياً فقالت زوجته: هلّا تعلّلت عليه إذا كان إعطاؤه يشقُّ عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أفتقد حاله فاحتاج[1] أن يقول لي ذلك !

هل تُحِسان لى رفيقاً رفيقا — أو تصيبان لى صَدِيقا صَدُوقاَ

قد فشا الغَدْرُ والخيانةُ فى النا — س فما إنْ أرى رفيقاً شفيقا

* * *

أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بسنده عن رباح بن الجرّاح قال : جاء فَتْح الموصليّ إلى منزل صديق له يقال له عيسى التمّار فلم يجده فى المنزل ، فقال للخادم : أخرجى لى كيسَ أخى . فأخرجته ففتحه فأخذ منه درهمين . وجاء عيسى فأخبرته الخادم فقال : إن كنت صادقةً فأنت حُرّة . فنظر فإذا هى صادقة . فعتقت !

أخبرنا أبو بكر بن حبيب قال أبو سليمان الدّارانىّ : كان لى أخٌ فى الله عز وجل فقلت له يوماً : أعطنى دراهم . فقال : كم تريد ؟ فسقط من عينى وخرجت أخوّته من قلبى بقوله : كم تريد .

واعلم أنه إذا علَتْ مرتبة الأخوّة وقع فِداء الأخ بالنفس .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بسنده عن محمد بن داود قال : سمعت أبا بكر القرطبى وأبا عمرو الأدمىّ يقولان وكانا يتآخيان فى الله تعالى : خرجنا من بغـداد نريد الكوفة ، فلما سرنا فى بعض الطريق إذا نحن بسبعَيْن رابضين على الطريق ، فقـال أبو بكر لأبى عمرو : أنا أكبر منك سناً فدعنى أتقدّمك فإن كان حادثة اشتغلا بى

---

(١) ا : حتى احتاج .

عنك وجُزْتَ أنت فقال له أبو عمرو نفسى ما تسامحنى بهذا ، ولكن نكون جميعا فى مكان واحد فإن كانت حادثة كنا جميعا . فجازا جميعا بين السبعين فلم يتحرَّكا ومرَّا سالمين .

وركب أخوان فى الله تعالى فى البحر فكُسِر بهما المركب فجعلا يَسْبَحان ويتعلق أحدهما بالآخر فقال أحدهما للآخر : إن تعلقت بى هلكنا جميعا فدعنى فربما سلم أحدنا فقال : ظننتُ أنى أنا أنت فإذا وقع الفراق فنعم . فتنحَّى عنه ، فقدِّرت لهما السلامة فلم يصحبه ذلك باقى عمره .

* * *

إخوانى : نُسخ فى هذا الزمان رَسْم الأخوة وحُكمه ، فلم يبق إلا الحديث عن القدماء ، فإن سمعت بإخوان صِدْق فلا تصدِّق .

ماهذه الألِفُ التى قد زدْتمُ فدعَوْتم الخُوَّانَ بالإخوانِ
ماصَحَّ لى أحدٌ أصيِّره أخاً فى الله حقًّا ، لا ولا الشيطانِ
إمَّا مولٍّ عن وِدَادِىَ ما لَه وَجْهٌ وإمَّا من له وَجْهان

الكلام على قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم »(1)

فى المراد بهذا الذكر ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الذكر فى الصلاة ، يصلى الإنسان قائماً ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع فعلى جَنْب . هذا قول علىّ وابن مسعود وابن عباس وقَتادة .

والثانى : أنه ذِكر فى الصلاة وغيرها .

والثالث : أنه الخوف . فالمعنى يخافون الله فى جميع تصرفاتهم .

(1) سورة آل عمران ١٩١ .

أخبرنا هبـــة الله بن محمد بسنده عن أبى صالح قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل : « أنا عند ظنِّ عَبْدى بى وأنا معه حين يذْكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأٍ ذكرته فى ملأ خيرٍ منه ، ومن تقرَّب إلى شِبْرا تقربت منه ذِراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعاً ، ومن جاءنى يمشى جئته هَرْولة » .

أخرجاه فى الصحيحين[1] .

وفى أفراد مسلم من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : سَبَق المفْردون قالوا : وما المفردون ؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» .

وفى أفراده من حديث أبى هريرة أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يقعد قومٌ يذكرون الله إلا حفّتهم الملائكة وغشِيتْهم الرحمةُ ونزلت عليهم السَّكِينةُ وذكرهم الله فيمن عنده[2] » .

وفى حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وَجْه الله إلا ناداهم منادٍ من السماء : قوموا مغفوراً لكم قد بُدِّلت سيئاتكم حسنات[3] .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى البزار بسْنده عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى تَنادَوْا : هلمُّوا إلى حاجتكم . فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء قال: فيسألهم ربُّهم تبارك وتعالى ـ وهو أعلم بهم: مايقول عبادى؟ قالوا : يَذْكرونك ويسبِّحونك ويحمدونك . قال : وهل رأونى ؟ فيقولون : لا والله

(١) صحيح البخارى كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الذكر حديث رقم ٢ ، ١٨ ، ١٩ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الذكر حديث رقم ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) مسند أحمد ٣ / ١٤٢ .

يارب ما رأوك . قال : فيقول : فكيف لو رأونى ؟ قال : فيقولون : لو أنهم رأوك لكانوا أشدّ لك عبادة وأشدّ لك تمجيدا وأكثر تسبيحاً قال: فيقول : ومايسألونى؟ قالوا : يسألونك الجنة قال: فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب ما رأوها . فيقول : فكيف او رأوها فيقولون : لو رأوها كانوا أشدّ عليها حرصا وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة فيقول : فمم يتعوّذون ؟ قال : يقولون : من النار قال : يقول : فهل رأوها ؟ قال: فيقولون : لا والله ما رأوها. قال يقول: كيف لو رأوها؟ قال يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فراراً وأشدّ لها مخافة قال : فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال : يقول ملَك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة فيقول : هم الجُلساء لا يَشْقى بهم جليسهم » .

أخرجاه فى الصحيحين(١) .

وفى حديث أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول : أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه(٢) » .

وفى حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : أخرِجوا من النار من ذكَرنى يوماً أو خافنى فى مقام(٣) » .

وفى حديثه عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « إذا مررتم برياض الجنة فارتَعوا» . قالوا : يارسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالسُ الذِّكْر(٤) » .

وكان داود عليه الصلاة والسلام يقول : إلهى إذا مررتُ على ملأٍ يَذْكرونك فجاوزتُهم فاكسر الرِّجْل التى تليهم .

* * *

(١) صحيح البخارى الدعوات . (٢) صحيح البخارى كتاب التوحيد ، ومسند أحمد ٢/٥٤٠ .
(٣) صحيح الترمذى كتاب جهنم باب رقم٩ (٤) صحيح الترمذى كتاب الدعوات باب رقم٨٢ .

واعلم أن الذاكرين تختلف أحوالهم .

فمنهم من يُؤْثِر قراءة القرآن ويقدِّمه على كل ذِكْر . وقد كان فيهم من يختم كلَّ يوم ومنهم من يختم ختمتين .

ومنهم من أكثر ذِكْره التهليل والتسبيح والتحميد .

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عِدْل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومُحيتْ عنه مائة سيئة وكانت له حرْزاً من الشيطان يومَه ذلك حتى يُمْسى ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك . ومن قال في يومه مائة مرة : سبحان الله وبحمده حُطَّت خطاياه وإن كانت مثل زبَد البحر[1] » .

وقال سعيد بن عبد العزيز قلت لعمر بن هانئ : أرى لسانك لا يَفْتر من ذِكْر الله عز وجل فكم تسبِّح كل يوم ؟ قال : مائة ألف إلا أن تُخْطىء الأصابع .

وقال محمد بن ثابت البُنَاني : ذهبت أُلقِّن أبي وهو في الموت فقلت : يا أبت قل : لا إله إلا الله . فقال : يا بنى خَلِّ عني فإني في وِرْدى السادس أو السابع !

ذِكْرُك لى مُؤْنسٌ يُعَارضنى   يَعِدنى عنك منك بالظَّفرِ

وكيف أنساك يا مدَى هِمَمى   وأنت منِّى بموضع النظرِ

* * *

ومن الذاكرين من غلب على قلبه حُبُّ المذكور فلا يزال في الذكر والتعبّد .

أخبرنا ابن حبيب بسنده قال : سمعت فاطمة أخت أبي عليّ الروذبارى تقول :

---

(١) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق ، وكتاب الدعوات وصحيح مسلم كتاب الذكر حديث رقم ٢٧ .

سمعت أخي يقول : سمعت الجُنَيْد يقول : ما رأيت أعبَد لله من سَرِيّ السَّقَطى ، أتت عليه ثمان وسبعون سنة ماروُئى مُضْطجعا إلا فى علة الموت .

ومن الذاكرين من صار الذكر له إلْفًا لا عن كُلْفَة ، فما له هَمّ غيره ، فهو يذكر أبدا على جهة الحضور .

وقال مجمّش الجَلّاب : صحبت أبا حفص النيسابورى اثنتين وعشرين سنة فما رأيته ذكر الله تعالى على حد الغفلة والانبساط ، ما كان يذكر الله إلا على سبيل الحضور والحُرْمة والتعظيم ، وكان إذا ذكر الله تعالى تغيَّر عليه حاله حتى كان يَرى ذلك جميعُ من حضره .

وقال بعض السلف : صحبت فى طريقى رجلا أسود فكان إذا ذكر الله تعالى ابيضّ !

وشُغلت عنى فَهْم الحديث سِوَى ... ما كان منك وعندكم شُغُلِى
وأديم نحو محدّثى نظرى ... أن قد فهمتُ وعندكم عَقْلى

* * *

أين أهل الأذكار ، أين قُوّام الأسحار ، أين صُوّام النهار ، خلت والله منهم الديار ، وامتلأت بهم القِفَار فصِلْ إليهم وصلّ عليهم فهم الأحرار .

سلامٌ على أهل الحِمَى عدد الرملِ ... وقَلَّ له التسليمُ من تائهٍ مثلِي
وقفت وقوف الغَيْث بَيْن طُلوله ... بمُنْسَكِب سَحٍّ ومنهمل وَبْل
وما رِمْت حتى خالنى الرِّيمُ رِمَّةً ... وأذرفَ أطيارُ الحِمَى الدمعَ من أجلِى
خليلىَّ قد عذبْتمانى(٢) ملامةً ... كأن لم يطُفْ فى دِمْنة أحدٌ قبلى

---

(١) لم أجد له ترجمة فى صفة الصفوة ولا فى طبقات الصوفية .

(٢) ا : قد عنفتمونى .

فلا برحتْ عينى تنوبُ عن الحيَا بدَمْعٍ على تلك المَنَاهلِ مُنْهَلِّ
لَيالىَ لا رَوضُ الكَثِيب بِلَا ندًى ولا شجراتُ الأَبْرَقَيْن بِلَا طَلِّ

السجع على قوله تعالى : « الذين يَذْكرون الله قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبهم » .

سبحان من قضى على الغافلين كسلا وقُعودا، ورفَع المتقين عُلوًّا وصمودا ومنحهم من إنعامه فوزا وسُعودا بمطلوبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

أنعم عليهم فأعطاهم ، واستخلصهم واصطفاهم وقليلٌ ما هُمْ ، اشتغل الناسُ بدنياهم واشتغلوا بذكر محبوبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

قَنعوا بأَدْون المطعم واللباس ، وألقوا نفوسهم فى المساجد كالأَحْلاس[1] ، يَمْشون بالسَّكينة بين الناس وما درَوْا بهم فى دُروبهم « يذكرون الله قيـــاما وقعودا وعلى جنوبهم » .

اكتفوا من الليل بيسير النوم ، واشتغلوا بالصلاة وبالصوم ، وكانت والله هِمَم القوم فى صلاح قلوبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

تناولوا لُقَم التَّرْتيل[2] وقالوا: هذه للجوع تُزِيل ، فهم يَقْنعون بالقليل فى مطعومهم ومَشْروبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

قاموا قيام المستعدّ ، ووردوا بَحْرَ الجُود العِدّ[3] ، وتَسلَّحوا سلاحَ العزم والجِدّ فى جميع حروبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

لَبِسوا ثيابَ السَّفر ، ورحلوا على أكْوار[4] السَّهَر ، فلو سمعت وقت السَّحَر ترنم طَرُوبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

---

(١) الأحلاس : جمع حلس وهو الكساء الذى يبسط فى البيت .
(٢) أ : لقم التنزيل . والمراد تلاوة القرآن .
(٣) العد بكسر العين : الماء الجارى الذى له مادة لاتنقطع .
(٤) الأكوار : جمع كور ، وهو الرحل الذى يوضع فوق ظهر البعير .

تناولوا كؤوس الدمع يتجرعون ، فلو رأيتهم فى طريق الخضوع يتضرعون والقوم يقلقون ويَضْرعون فى ستر عيوبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جُنوبهم ».

يستغيثون إلى الحق ويَشْكون ، واليتامى فى الذل يَحْكون ، وجُمْلة الأمر أنهم يبكون على قُبْح مكتوبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

يعتذرون من زَلَل القدم ، ويتمنون بعد الوجود العدَم ، وقد بَعثوا رسالةَ الندم مع مَنْدوبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

قلَّبتهم الأشجان ، وغيَّرتهم الأحزان ، يبزعجون لما قد كان من سالف ذنوبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

أمَّا الليلُ فسهَارَى ، وأما النهار فأسَارَى ، وكأنهم بالمحبة سُكَارى فى شروقهم وغروبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

لو أَصْغيت فى الدُّجَى واستمعت ، وأحضرت قلبك عندهم وجمَعْت ، وهيهات ليتك اطَّلعت على بعض كُروبهم « يذكرون الله قياماً وقُعوداً وعلى جنوبهم » .

كانت رقدة ثم بقيت النياحــة[1] ، فانتقَلوا من حَضْرة الحَظْر إلى الإباحة ، واستبدلوا بالرياضة الراحة ، فلم يبق أثَرٌ لجدُوبهم « يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

---

(١) كذا بالأصول ، ولعله يريد كانت للمعصية منهم عن غفلة ثم بقى الندم عليها .

(المجلس الثامن)

(فى ذكر العزلة)

الحمد لله الواحد القديم الجبّار ، القادر العظيم القهار ، والمتعالى عن دَرْك الخواطر والأفكار ، المنفرد بالعز والقهر والاقتدار ، الذى وسَم كلَّ مخلوق بسمة الافتقار، فأظهر آثار قدرته بتصرف الليل والنهار ، سميع يسمع لا كالأسماع ، بصير يُبْصر لا كالأبصار، قادر مريد حكيم عليم بالأسرار ، يُبْصر دَبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على القار ، ويسمع أنين المُدْنف[1] يشكو ما به من أضرار ، كلَّم موسى كِفاَحا لما قضى الأجل وسار ، ورآه نبينا صلى الله عليه وسلم دلَّ على ذلك القرآن والأخبار ، ويراه المؤمنون إذا نزلوا دار القَرار ، صِفاتُه كذاته والمشبِّهة كُفَّار ، نَقِّر ونَمِّر[2] وأربابُ البحث فى خَسار ، هـــذا سيف السُّنة فتناوَلْه باليمين لا باليسار ، واضرب به كَفَّ « كَيْف » ورأس « لِمَ » وعُنق « ثُم » وخُذْ للتنزيه من التشبيه بالثار « أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيانَه على تقوى من الله ورضوانٍ خيرٌ أم مَّنْ أسَّسَ بنيانَه على شَفا جُرُفٍ هارٍ[3] » .

أحمده فى الإعلان والإسرار ، وأشهد بوحدانيته بأصح إقرار ، وأصلى على رسوله محمد سيد الأنبياء الأطهار ، وعلى أبى بكر رفيقه فى الدار والغار ، وعلى عمر قامع الكفار ، وعلى عثمان شهيد الدار ، وعلى علىٍّ قسيم النار[4] ، وعلى عمه العباس آخِذ البيعة ليلة العقبة على الأنصار .

* * *

(١) المدنف : المريض .

(٢) كذا رأينا ضبطه والمراد : بحث وصعد النظر فلن تهتدى إلا إلى عقيدة أهل السنة .

(٣) سورة التوبة ١٠٩ .

(٤) كذا بالأصول ، ولعله يريد وصفه بالنور ، لأن النور قسيم النار ، أى المقابل لهـا . وفى قرة العيون المبصرة : وعلى على القائم بالأسحار .

أخبرنا عبد الأول بسنده عن عطاء بن يزيد عن أبى سعيد الخدرى قيل: يارسول الله أى الناسِ خَيْر ؟ قال : رجلٌ يجاهد بنفسه ومالِه ، ورجل فى شِعْب من الشعاب يَعْبُد ربَّهُ ويدَع الناس من شَرَّه .

أخرجاه فى الصحيحين(١) .

أخبرنا أبو الحسن على بن محمد البزار ، قال : أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب بسنده عن عبد العزيز أبى حازم ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِن خير مَعايِش الناس لهم رجلٌ مُمْسك بعِنَان فرسه يطــير على مَتْنه كلما سمع هَيْعة أو فَزْعة طارَ على مَتْن فرَسه يلتمس الموتَ والقتلَ مكانه ، ورجل فى رأس شَعْفَة من الشّعاف أو بطن وادٍ من هذه الأودية يقيم الصلاة ويعبد ربَّه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا فى سبيل خير .

قال أبو عبيدة : الهَيْعَة : الصوت . قال الطِّرِمَّاح :

أنا ابن حُماة المجد من آل مالك إذا جَعَلَتْ خُورُ الرجال تَهيع(٢)

والخُور جمع خَوَّار وهو الضعيف . والشَّعْفة واحدة الشِّعاف وهى رءوس الجبال ، وهى الشَّمارِيخ والشَّناخِيب واحدها شُنْخُوبة .

وروى عن عقبة بن عامر قال : قلت يارسول الله : ماالنجاةُ؟ قال : «املكْ عليك لسانك وليَسَعْك بيتُك وابكِ على خطيئتك(٣) .

* * *

(١) صحيح البخارى كتاب الجهاد ، وكتاب الرقاق . وصحيح مسلم كتاب الإمارة حديث رقم ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ .

(٢) البيت من شواهد اللسان مادة « خور » (اللسان ٤ / ٤٦٣ : ط بيروت) وتهيم : تجبن .

(٣) صحيح الترمذى كتاب الزهد باب رقم ٦١ ومسند أحمد ٤ / ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ .

قال الشيخ : وهذه الأحاديث تدل على فضل العُزْلة .

وقد كان السّلف يُؤْثرونها ويمدحونها فقال عمر بن الخطاب : خذوا بحظكم من العُزْلة .

وقال سعد بن أبى وقّاص : والله لوددت أن بينى وبين الناس باباً من حديد لا يكلّمنى أحدٌ ولا أكلمه حتى ألحق بالله تعالى .

وقال ابن مسعود لأصحابه : كونوا ينابيع العِلْم مصابيح الليل أحْلاس البيوت ، جُدُدَ القلوب خُلْقان الثياب ، تُعرفون فى أهلِ السماء وتخْفَوْن على أهل الأرض .

وقال أبو الدرداء : نِعْم صَوْمعة الرجل بيته يكفّ فيها بصرَه ولسانَه ، وإياكم والسُّوق فإنها تُلْهى وتُلْغِى(١) .

وقال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لرَحلْت إلا بلادٍ لا أنيس بها ، وهل يُفْسد الناسَ إلا الناسُ !

كان أبو جَهْم الأنصارى بَدْريا وكان لا يجالس الناسَ وكان يعتزل فى بيته ، فقالوا له : لو جالست الناس وجالسوك ؟ فقال : وجدت مُقَاربة الناس شرًّا

وقال أبو حذيفة : والله لَوددت أن لى إنسانا يكون فى مالى ثم أُغْلق عليّ بابا فلا يدخل عليّ أحد حتى ألحق بالله عز وجل

وقال الحسن : صَوامع المؤمنين بيوتهم .

وقال سعيد بن المسيّب وابن سيرين : العُزْلة عبادة

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتم الرجلَ يُطيل الصمت ويهرب من الناس فاقربوا منه فإنه يُلَقَّى الحكمة .

---

(١) أى تجعل الرجل ينطق باللغو .

وكان عثمان بن أبى دهرش[1] إذا رأى الفجرَ أقبل عليه بَثُّه وقال : الآن أصير مع الناس فلا أدرى ما أجنى على نفسى !

وقال داود الطائى : فِرَّ من الناس كما تفر من الأسد .

وأوصى سفيان الثَّورى بعضَ أصحابه فقال : إن استطعت أن لا تخالط فى زمانك هذا أحداً فافعل ، وليكن هَمُّك مَرَمَّة جِهَازك .

وكان يقول : هذا زمان السكوت ولزوم البيوت .

وجاء رجل إلى الفُضَيْل فجلس إليه فقال : ما أجْلَسَك إلىّ ؟ فقال : رأيتك وحدك . فقال : إما أن تقوم عنى وإما أن أقوم عنك . فقال: أنا أقوم أوْصنى . فقال: أخْفِ مكانك واحفظ لسانك .

وجاء رجل إلى شُعَيْب بن حرب فقال : ما جاء بك ؟ فقال : جئت أونسك . فقال : أنا أعالج الوحْدةَ منذ أربعين سنة !

وقال مالك بن أنس : كان الناس الذين مضوا يحبون العزلة والانفراد من الناس.

وقال بِشْر الحافى : مَنْ عامَلَ الله بالصدق استوحش من الناس .

وقد كان أحمد بن حنبل يحب العزلة وإبراهيم بن أدهم وسليمان الخوّاص ويوسف بن أسْباط وحذيفة المرعشىّ فى خَلْق كثير .

* * *

واعلم أن العزلة لا ينبغى أن تقطع عن العلم والجماعات ومجالس الذكر والاحتراف للعائلة ، وإنما ينبغى أن يعتزل الإنسان ما يؤذِى[2] ، وقد يُخَاف من المخالطة المباحة أذًى فيجتهد الإنسان فى ترك ما يَخاف عواقبه .

---

(١) عثمان بن أبى دهرش : المكى ؛ يروى عن رجل من آل الحكم عن النبى صلى الله عليه وسلم، روى عنه ابن عيينة ذكره ابن الجوزى فى صفة الصفوة ٢ / ١٢٣ .

(٢) ا : من يؤذى .

ويَبْعُد حضورُ القلبِ مع المخالطة للناس ، إلا أن يكون لمعنًى .

وقد قال شعيب بن حرب : الناس ثلاثة : رجلٌ تعلِّمه فيقبل منك ، ورجل تتعلم منه ، واهرب من الثالث .

وقد كان الثَّوْرى يقول : أقِلَّ من معرفة الناس .

وقال إبراهيم بن أدهم : لا تتعرَّف إلى من لا تعرف وأنكِر مَنْ تَعْرف !

إنى نظرتُ إلى الزما ن وأهلِه نظراً كفانى
فعرفتــــهُ وعرفتُهم وعرفت عِزِّى مِن هَوانى
فحملت نفسى بالقنا عة عنهمُ وعن الزمانِ
وتَرَكْتُها بعفافِهــــا والزهدِ فى أعلى مكانِ
فلذاك أجتنب الصديـ ق فلا أراه ولا يرانِى
فتعجَّبوا لِمُقَالِت[1] وهَب الأقاصىَ والأدانِى
وانسلَّ من بين الزِّحا م فما له فى الخَلْق ثانِى

* * *

وفصل الخِطاب فى هذا : أن الناس على ضربين : عالم وعابد . فالعالم لا ينبغى له أن ينقطع عن نفع الناس فإنه خَلَف الأنبياء، وليعلم أن هداية الخلق أفضل من كل عبادة.

وفى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلىٍّ عليه السلام : « والله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم »[2] . فمتى ما جاء الشيطان فحسَّن للعالم الانقطاع عن الخَلْق فى الجملة فذاك خديعة منه ، ولقد حسَّن لكثير[3] من السلف

(١) المقالت : الذى قطع عهده مع الناس — والفلت بسكون اللام : الإفلة فى الشراء .

(٢) صحيح البخارى كتاب الجهاد وكتاب فضائل الصحابة وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٥ .

(٣) ا : لخلق من السلف .

دَفن كتبهم ومَحْو علمهم وهذا من الخطأ العجيب ، بل ينبغى للعالم أن يعتزل عن شرٍّ من يؤذِى و يَبْرُز لمن يستفيد ، فظهوره أفضل من إخفائه .

فأما إن كان عابدا فالعابدُ لا ينافَس فى هذا ، فإن من القوم من شغلَتْه العبادة ، كما روى أن الحسن رأى رجلا متعبدا فأتاه فقال : يا عبــد الله ما يمنعك من مجالسة الناس ؟ قال : ما أشْغلنى عن الناس . قال : فـــما منعك أن تأتى الحَسَن ؟ فقال : ما أَشْغلنى عن الحسن . قال : فما الذى شغلك عن الحسن ؟ قال : إنى أُمْسى وأصبح بين ذَنْب ونعمة ، فرأيت أن أشغل نفسى بالاستغفار للذنب والشكر لله تعــالى على النعمة . فقال له : أنت عندى أفقَه من الحسَن !

وقال رجل لعامر بن عبد قيس : قِفْ فكلِّمنى . فقال : أَمْسِك الشمسَ !

ومن القوم من استغرقته محبة الله تعالى والأُنْس به فاستوحش من الخلق . قيل لغزوان الزاهد: لو جالست إخوانك؟ فقال: إنى أصيب راحة قلبى فى مجالسة من عنده حاجتى.

تَعبِى راحتى وأُنْسى انفــــرادى وشِفائى الضَّنا ونومى سُهادى

لست أشكو بِعادَ من صدَّ عنِّى أىّ بُعْد وقد ثوى فى فــؤادِى

هو يختال بين قَلْبِى وعَيْنِى هـــو ذاك الذى يُرَى فى السَّوادِ

فهؤلاء عُزْلتهم أصْلَح لهم ، بل لا ينبغى أن تشغلهم العزلة عن الجماعات ومجالسة العلماء ، فإن فعلوا كان ذلك من الشيطان . وإنما نأمر العوامَّ باعتزال الشر ، فحسب فإنه الجهادُ فى حقهم .

واعلم أن السمع يوصل إلى القلب خبرَ المسموعات والبصرُ خبرَ المنظورات ، ورب نَظْرة نَقشت فى القلب صورة فيَبْعُد مَحْوها ، فإن الإنسان لَيمشى فى الأسواق فيتغيَّر قلبُه ، والعزلة توجب السلامة من ذلك .وقد كان فى الصالحين من إذا خرج للسوق فكسب مايكفيه قام إلى المسجد .

فالبدَارَ البدَارَ إلى حفظ القلوب بالعزلة عن كل ما يؤذى .

(الكلام على البسملة)

ما عُــذْرُ من جرَّ عاصياً رسَنُه ما عُذْره بعــدَ أربعين سَنَه
أكلّما طالت الحيــاةُ به أطال عن أخذ حِذْره وسَنَه(١)
قل لى إذا متَّ كيف تَنقُص من سيئــة أو تزيد فى حَسَنَهْ

يا مريضا ما يعرف أوجاعه ، يا مضيِّع العمر بالساعة والساعة ، يا كثير الغفلة وقد دنت الساعة ، يا ناسياً ذِكْرَ النار إنها لنزّاعة ، كأنه وملك الموت قد أزعجه وأراعه ، وصاح بالنفس صيحة فقالت: سمعاً وطاعة، ونهضت تعرضُ كاسدَ التوبة، وهيهات غَلق الباعة يا سيئ النظر لنفسه فى وجه شمس فهمك غَيْم ، بين دائك ودوائك حِجَاب ، لو أهمَّتْك نفسك سميتَ لها فى الخلاص ، لو رضيت بالبُلْغَة ما استرهن قلبَك كسبُ الحُطَام ، لو قنعت كلاب الصيد بالمنبوذ ما كانت السَّواجير(٢) فى حُلوقها .

* * *

طلَبْتُكِ يا دنيا فأعذَرْت فى الطلبْ فما نلْتُ إلا الهمَّ والغَمَّ والنَّصَب
فلما بدَا لى أننى لست واصلًا إلى لذةٍ إلا بأضعافها تَعَبْ
وأسرعت فى ذنبى ولم أقضِ شهوتى هربت بدينى(٣) منك إن نفع الهربْ
تسَرْبَلْت أخلاقى قُنوعا وعِفَّةً فعندى بأخلاقى كنوزٌ من الذهَبْ
ولم أر حَظًّا كالقُنوع لأهلِهِ وأن يُجْمِلِ الإنسانُ ماعاش فى الطَّلَبْ

يا من قد مال بالآمال إلى جمع المال ، كأنك به إلى غيرك قد مال! واعجبا بالحرص تجمعونه ، وبالأمل تحفظونه ، وبالغفلة تأكلونه ، وفى الهوى تصرفونه ، المال نعمة فمن أنفق بعضه فى الخير أقام للباقى حارسا ، إذا سمعت النعمةُ نَغمةَ الشكر أَلِبَتْ ولبِّتْ

(١) الوسن هنا : النوم .
(٢) السواجير : جمع ساجور وهو خشبة تعلق فى عنق الكلب .
(٣) ا : هربت بذاتى .

بالمزيد وإذا لم تُشْكر وقد وَفرتْ نفرَتْ وما كلُّ شاردٍ بمردود ، واعجباه ممن فرح بلذة يعلم سرعةَ زاولها ، وأعجبُ من ذلك الحساب عليها .

أشدُّ الغَمّ عندى فى سرور تيقَّن عنه صاحبُه زوالَا

* * *

أين مَنْ لبس الحرير والقز ، وحرّك الجواد تحته وهَزّ ، وتعاظَم على أبناء جنسه وعَزّ ، وقهر وغلب وسلَب وبَزّ ، ذبحه سيفُ المنون وما قطع ولا حَزّ ، فتسلّب الحبيبُ بعد فراقه وجَزّ[1] ، وأكله الدودُ وقد كان يستزرى الأوزّ ، بينا هو قد ركض فى أغراضه وكرّ خَرّ فقيل : كيف بات ؟ قيل : مرّ . فألبسه الغاسل ثوبا لا كَفَّه ولا زَرّ[2] ، فرحل عن داره التى بها اغتر ، واستعمل الحفّارُ لتمهيد لَحْده المَر[3] ، واستلبه جذباً عنيفاً وجَرّ ، ورجع أهلُه لا يقدرون له على نفع ولا ضر ، وندم حين سكن البَرّ إذ ما اتقى ولا بَرّ ، وطُولب بما أعلن من عمل وأسَرّ ، ووجد الله وقد أحصى عليه الذّر ، وبقى مكانه أسيرا لا يرى إلا الشر .

هذى منازلهمْ وقد رَحلوا وعلى الكراهة غيرّها نَزلوا
رحلوا وأبقَوْها لغيرهمُ إنّ المنازلِ والغِنَى دُوَل[4]
شادُوا مَبانيَها وما سكنوا إلا نزولَ الضيف وانتقَلُوا
وتفرقتْ عنهم أقاربُهم وجنودُهم وخلَوْا بما عملوا
يا آمِل الدنيا وقد عصفَتْ بالناسِ قَبْلك خانك الأملُ
أتروم جهلا أن تقيم بها ووراءك الأيام والأجلُ

(١) تسلبت المرأة : أحدت على زوجها . وجزت : حلقت رأسها .
(٢) كف الثوب : خاط حاشيته ، وهى الخياطة الثانية . وزره : جعل له أزرارا .
(٣) المر بفتح الميم : المسحاة . (٤) ا : إن المنازل فى السكنى لها دول .

ياهذا إذا أسلمك الأتراب ، تسلمك التراب ، كيف يفرح بحياته من يعلم أنها مطية مماته ، يامن هجم الشيطانُ عليه وهو فى بادية المخالفة[١] ، فسبأه فباعه فاشتراه الهوى بثمن بخس ، تالله لو كنت فى حصن التقى ما قدر عليك ، إلى كم يستخدمك الهوى وأنت حرٌ طال تشبهك فى التثبط بزُحَل فانهض بحركة عطارد فى الهرب مما يؤذى .

تعرّض لجياد المجاهدين لعل بعضهم يستصحبك .

أمَا بلغك لُطف : هَلْ مِن سائل ؟ أمَا سمعت عفو : هل من تائب ؟ .

* وتُذنبون فنأتيكم فنعتذر[٢] *

لاتيأس فباب الرجاء مفتوح ، لا تُلقِ بيدك فعَلَمُ القبُول يَلُوح :

عسى وعسَى من بعد طُول التفرّقِ ... على كلٍّ ما نرجو من العيش[٣] نلتقِى
ولو ظَفِرتْ عينى برؤياك ساعةً ... لكنت على عَيْنى من العَيْن[٤] أتقى

إخوانى : ليس كلٌّ من قال : أنا تائب كان تائبا ، إنما التائب من صبَر على فقْد الأغراض صَبْرَ السَّحَرَة[٥] على الصَّلْب ، واعتذر من جناياته اعتذارَ النابغة إلى النعمان[٦] ، وخضع خضوع الجرب لِلطَّالِى[٧] ، وتضرَّع تضرع الصبىِّ إلى المؤدِّب .

لا تَنْأ وإن طُردْتَ ، ولا تبرح وإن زُجرت : —

إذا هَجروا عِزًّا وصَلْنا تَذَلُّلاَ ... وإن بَعدوا يأساً قَرُبْنا تَمَلُّلاَ
وإن أغلقوا بالهجر أبوابَ وصلهم ... وقالوا ابْعدوا عنا طَلَبْنا التوصُّلا

---

(١) شبه الذنوب بالصحراء التى يضل فيها المسافر . وسباه : أسره .

(٢) هذا عجز بيت من أشعار الصوفية وصدره :

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم

(٣) فى قرة العيون : الخير . (٤) العين هنا مجاز عن الحسد .

(٥) أى سحرة فرعون الذين اتبعوا موسى .

(٦) النابغة الذبيانى صاحب الاعتذاريات الطويلة إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

(٧) أى خضوع الناقة الجرباء لمن يطليها بالهناء لتبرأ .

وإن منعونا أن نجُوز بأرضهم ولم يسمعوا الشكوى وردُّوا التوسُّلَا
أشَرْنا بتسليمٍ وإن بَعُد المدىَ إليهم وكلَّفنا الرياحَ لِتَحْمِلَا[1]

الكلام على قوله تعالى: « تتجافَى جُنوبهم عن المَضَاجع[2] »

تتجافى أى ترتفع. والآية فى قُوَّام الليل.

أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن معاذ بن جبل، عن النبى صلى الله عليه وسلم: « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » قال: قيام العبد من الليل.

قال أحمد: وحدثنا علىّ بن عبد الله بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ثلاثة يضحك الله إليهم: رجل يقوم من الليل، والقوم قد صَفُّوا للصلاة، والقوم إذا صفّوا للقتال »[3].

قال أحمد: وحدثنا رَوْح وعفان، قال: أنبأنا حماد بن سلمة، قال: أخبرنا عطاء ابن السائب، عن مُرّة عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « عَجِب ربنا من رجلين: رجلٌ ثار عن وِطَائه ولحافه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته فيقول ربُّنا: يا ملائكتى انظروا إلى عبدى ثار مِن فراشه ولحافه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى. ورجل غزا فى سبيل الله عز وجل فانهزَم فعلم ما عليه فى الفرار ومالَه فى الرجوع فرجع حتىأُهْريق دمُه فيقول الله عز وجل: انظروا الى عبدى رجع رغبةً فيما عندى ورهبة مما عندى حتى أهريق دمه »[4].

وروى أبو أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « عليكم بقيام الليل فإن دَأب الصالحين قبلكم وهو قُرْبة إلى ربكم ومغفرة للسيئات ومَنْهاة عن الإثم ».

---

(١) ا: التحملا. (٢) سورة السجدة ١٦. (٣) مسند أحمد ٣ / ٨٠.
(٤) مسند أحمد ١/ ٤١٦.

وقال الحسن البصرى : لم أجد من العبادة شيئا أشدّ من الصلاة فى جوف هذا الليل .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : فينا نزلت معاشرَ الأنصار : « تتجافى جنوبُهم عن المضاجع » كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى صلى الله عليه وسلم .

* * *

واعلم أن السلف كانوا فى قيام الليل على سبع طبقات

الطبقة الأولى : كانوا يُحْيُون كلَّ الليل ، وفيهم من كان يصلى الصبح بوضوء العشاء . وكان ابن عمر يحيى الليل . ومن القوم سعيد بن المسيِّب وصفوان بن سليم المدَنيّان ، وفُضَيل بن عِيَاض ، ووهيب[١] ابن الورد المكّيّان ، وطاووس ووهب ابن منبِّه اليمنيّان ، والربيع بن خُثَيْم والحكَم الكوفيان ، وأبو سليمان الدارَانِيّ وعلىّ ابن بكّار الشاميّان ، وأبو عبيد الله الخوّاص وأبو عاصم البَغداديّان ، ومنصور ابن زاذان وهُشَيْم الواسِطيّان ، وحبيب أبو محمد وأبو جابر السَّلْمانى الفارسيان ، ومالك ابن دينار وسليمان التَّيْمى ويزيد الرقاشىّ وحبيب بن أبى ثابت ويحيى البكّاء البَصْريون .

الطبقة الثانية : كانوا يقومون شَطْرَ الليل ، منهم عبد الله بن عباس . قال ابن أبى مُلَيْكة : صحبتُه وكان يقوم شطْر الليل يُكْثِر فى ذلك والله التسبيح .

الطبقة الثالثة : كانوا يقومون ثلث الليل . وفى الصحيحين من حديث عبد الله ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحبُّ الصلاة إلى الله عز وجل صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه ، وينام سدسه[٢] » .

(١) فى قرة العيون : وهشيم بن الورد .

(٢) صحيح البخارى كتاب الأنبياء . وصحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ١٨٨ ، ١٨٩ .

وفى حديث عمرو بن عَبْسة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أقرب مايكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله عز وجل فى تلك الساعة فكن .

وروى أن داود عليه السلام قال : يارب أىّ ساعة أقوم لك ؟ فأوحى الله عزوجل إليه : لا تقم أولَ الليل ولا آخره ، ولكن قم فى وسط الليل حتى تخلو بى وأخلو بك[1] وارفع إلىّ حوائجك .

وسأل داود عليه السلام جبريل عليه السلام : أىّ الليل أفضل فقال : ما أدرى ، إلا أن العرش يهتزّ فى السَّحر[2] .

الطبقة الرابعة : كانو يقومون سُدس الليل أو خُمُسه .

الطبقة الخامسة : كانوا لا يراعون التقدير ، وإنما كان أحدهم يقوم إلى أن يغلبه النوم فينام ، فإذا انتبه قام . قال سفيان الثَّوْرى : إنما هى أول نومة فإذا انتبهت فلا أقيلها .

الطبقة السادسة : قوم كانوا يصلّون من الليل أربع ركعات أو ركعتين . وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «صلُّوا من الليل ولو أربعا صلُّوا ولو ركعتين» .

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصلّيا جميعا ركعتين كُتِبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات[2] » .

الطبقة السابعة : قوم يُحْيُون ما بين العشاءين ويصلُّون فى السحَر فيجمعون بين الطرفين .

---

(١) يحمل ذلك كله على المجاز . وليس لهذه الأخبار طريق يعتد به .
(٢) سنن أبى داود كتاب الوتر باب ١٣- وسنن ابن ماجه كتاب الإقامة باب ١٧٥ .

وفى أفراد مسلم من حديث جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن فى الليل لَساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا آتاه إياه وذلك كل ليلة(١) » .

ومن أراد قيام الليل فلا يكثر من الأكل والشرب ولا يُتْعب أعضاءه فى النهار بالكدّ ولا يعمل معصية ، وليستعنْ بالقيلولة .

وأما آداب الباطن : فأن يكون القلبُ سليماً للمسلمين ، ولا بد له من خوفٍ مُقْلق أو شوقٍ مُزْعج .

كان شدّاد بن أوْس إذا أوَى إلى فراشه كأنه حَبَّة على مَقْلَى ثم يقول : اللهم إن جهنم لا تَدَعْنى أنام فيقوم إلى مُصَلَّاه .

وكان طاووس يفرش فراشه ثم يضطجع فيتقلَّى كما تتقلى الحبة على المقْلَى ثم يَثب فيتطهَّر ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول : طيَّر ذِكْر جهنم نومَ العابدين !

وقالت بنت الربيع بن خُثَيْم له : يا أبت مالى أرى الناسَ ينامون ولا أراك تنام فقال : يا بنية إن أباك يخاف البَيَات(٢) .

وقالت أم عمر بن المنكدر : يابنى أشتهى أن أراك نائما . فقال : ياأماه والله إن الليل لَيرِدُ علىّ فيَهُولنى فينقضى عنِّى وما قضيتُ منه أرَبى .

وكان زَمْعة العابد يقوم فيصلِّى ليلا طويلا فإذا كان السَّحر نادى بأعلى صوته : ياأيها الركْب المعرسون أكلّ هذا الليل تَرْقدون ألا تقومون فترحلون .

فيُسْمع من ها هنا باكٍ ومن هاهنا داعٍ ومن هٰهنا متوضِّىء ؟ فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته يقول : عِنْد الصباح يَحْمد القومُ السُّرَى .

(١) صحيح مسلم كتاب المسافرين حديث رقم ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) البيات : الأخذ على غرة .

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن أحمـــد بن أبى الحَوارى قال : دخلت على أبى سليمان وهو يبـكى فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال لى : يا أحمد ولم لا أبكى وإذا جَنَّ الليلُ ونامت العيون وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، وافترش أهلُ المحبة أقدامهم وجرت دموعُهم على خدودهم وقَطَرتْ فى محاريبهم ، أشْرَف الجليل سبحانه وتعالى فنادى جبريلَ : بعَيْنِى من تلذَّذ بكلامى فلم لا تنادى فيهم : ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذِّب أحبابه ؟! أم كيف يَجْمل بى أن أعذب قوماً إذا جَنَّهم الليلُ تملَّقونى ؟ فبِى حلفتُ إذا وردوا علىَّ فى القيامة لأكْشِفَنّ لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلىَّ وأنظر إليهم .

وقال أحمد بن أبى الحوارى أيضا : سمعت أبا سليمان يقول : بينا أنا ساجد ذهب بى النوم فإذا أنا بحَوْراء قد ركَضَتْنى برجلها وقالت : حبيبى أترقد والملِكُ يَقْظان ينظر فى المتهجِّدين فى تهجدهم ! بؤساً لعينٍ آثرت لذةَ نومةٍ على لذة مناجاة العزيز ، قم فقد دنا الفراغُ ولَقِىَ المحبُّون بعضُهم بعضاً فما هذا الرقاد حبيبى وقرة عينى؟ أترقد عيناك وأنا أُرَبَّى لك فى الخدور ؟ فوثبتُ فزِعاً وقد عَرِقْت استحياء من توبيخها إياى وإنّ حلاوة مَنْطقها لفى سمعى وقلبى .

* * *

وكان أبو بكر رضى الله عنه لقِصَر أمَله يوتر أولَ الليل وعمر لتأميل الخِدْمة يؤخره إلى آخر الليل . وعثمان يتهجد فى آناء الليل . وعلىٌّ يستغفر فى أواخر الليل .

قام القومُ على أقدام « قُم الليلَ » فبان فى القوم سرُّ « وتقلُّبَك فى الساجدين »
لولا قيام تلك الأقدام ما كان[1] يؤدِّى حق « هل من سائل » بإغافلين عما نالوا ، لقد مِلْتم
عن التقى وما مالوا ، قاموا فى غفلات الراقدين فقوبلوا بجزاء لم يطلع عليه الغيرُ غيرةً لهم .

(١) قرة العيون : من كان يؤدى .

ما أطيب أملهم فى المناجاة ، ما أقربهم من طريق النجاة ، ما أقلّ ما تعبوا وما أيسر ما نصبوا ، وما كان إلا القليل ثم نالوا ما طلبوا ، لوذاق الغافل شراب أنسهم فى الظلام أو سمع الجاهل صوت حنينهم فى القيام ، وقد نَصبوا لِما انتصبوا له الأقدام ، وترنّموا بأشرف الذكر وأحْلَى الكلام، وضربوا على شواطىء أنهار الصدق الخِيام ، وركزوا على باب اليقين بالحق الأعلام ، وزَمُّوا مطايا الشوق إلى دار السلام ، وسارت جنود حُبّهم والناس فى الغفلة نيام ، وشكَوْا فى الأسحار ما يلقون من وَقْع الغرام ، ووجدوا من لذة الليل مالا يخطر على الأوهام، وإذا أسْفَر النهارُ تلقَّوه بالصيام وصابَروا الهواجرَ بهَجْر الشراب وتَرْك الطعام ، وتدرّعوا دروعَ التقى خوفاً من الزَّلَل والآثام ، فنورهم يُخجل شمسَ الضحى ويُزْرِى[1] بَدْرَ التمام، فلأجلهم تُنبت الأرض ومن جَرّاهم يجرى الغمام ، وبهم يُسامح الخطّاءون ويُصْفَح عن أهل الإجرام ، فإذا نازَلهم الموتُ طابَ لهم كأسُ الحِمَام ، وإذا دفنوا فى الأرض نَحِرَتْ بحفظها تلك العظام ، فعلى الدنيا إذا ماتوا من بعدهم السلام .

تتجافى جنوبُهم عن لذيذ المضاجعِ
كلهم بَيْن خائفٍ مُسْتَجيرٍ وطامعِ
تركوا لذة الكَرَى لِلعيونِ الهوَاجعِ
ورعَوْا أنجمَ الدُّجَى طالعاً بعد طالعِ
واستَهلّت دموعهم بانصبابِ المَدامعِ
فأجيبوا إجابةً لم تقَعْ فى المسامعِ
ليس ما تَصْنعونه أو ليالى بضائعِ
تاجِروني بطاعتى تَرْبحوا فى البضائعِ

(١) الأصل : ويؤذى . وما أثبته عن قرة العيون ٢ / ٨٨ .

وابـــذلوا لى نفوسَكم إنهـــا فى وَدائعى[1]

* * *

لو رأيت رياح الأسحار تحرك أشجار القلوب فتقع ثمار المحبة !

يا لذة خلْوتهم بالحبيب ، يا وفور نصيبهم من ذلك النصيب

هبَّتْ رِياحُ وِصالهم سَحَرا لحـــدائق الأشواق فى قلبِى
واهتز عُودُ الوَصْل من طربٍ وتساقطت ثَمَرٌ من الحبِّ
ومضت خيولُ الهَجْر سادِرةً مطرودةً بعساكر القُرْبِ
وبدَتْ شموسُ الوصْل خارقةً بشعاعها لسُرَادق الحجْب
وصفَا لنا وقتٌ أضاء به وجهُ الرضا عن ظُلْمة العَتْبِ
وبقيتُ ما شيء أشاهده إلا ظننت بأنه حِبِّى

السجع على قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع »

لو رأيتهم بين ساجد وراكع ، وذليل مخول متواضع ، ومنكسِر الطرف من الخوف خاشع ، فإذا جنَّ الليل حنَّ الجازع « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

نفوسهم بالمحبة عَلِقتْ ، وقلوبهم بالأشواق فلقت ، وأبدانهم للخدمـــة خُلقت ، يقومون إذا انطبقت أجفان الهاجع : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

يبادرون بالعمل الأجل ، ويجتهدون فى سد الخلل ، ويعتذرون من ماضى الزَّلل ، والدمع لهم شافع « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

سبق والله القوم ، بكثرة الصلاة والصوم ، فإذا أقبل الليلُ حاربوا النوم والعَزْم[2] فى الطوالع « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

---

(١) القرة : من ودائعى . (١) قرة العيون : والحزم .

ينادى منادِى تائبهم: لا أعود ، والمنعم ينعم بالقبول ويجود ، هم والله من الكون المقصود ، فما حيلة المطرود والمعطِى مانع « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

كن يا هذا رفيقهم ، وابْجْ وإنْ شقَّ مَضِيقهم ، واسلك ولو يوماً طريقَهم فالطريق واسع « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

اهجر بالنهار طيبَ الطعام ، ودَعْ فى الدُّجَى لذيذَ المنام ، وقل لأغراض النفس : سلام ، والله يدعو إلى دار السلام ، فما يُقْعِد السامع « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

يا من يرجو مقام الصالحين ، وهو مقيم مع الغافلين ، ويأمل منازل المقربين ، وهو ينزل مع المذنبين ، دَعْ هذا الواقع . الصدقَ الصدقَ فيه تَسْلم ، الجدَّ الجدَّ فيه تَغْنَم ، البِدَار البِدَار قبل أن تَنْدَم ، هذا هو الدواء النافع « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » والله أعلم .

المجلس التاسع
فى ذكر الأمر بالمعروف

الحمدلله مدبِّر الليالى والأيام، ومصرِّف الشهور والأعوام، المنفرد بالكمال والتمام، الملك القدوس السلام، تنزَّه جلاله عن دَرْك الأفهام ، وتعالى كماله عن إحاطة الأوهام ، ليس بجسم فيشبه الأجسام ، ولا بمتجوِّف فيحتاج للشراب والطعام ، ارتدى برداء الكبرياء والإعظام، وأبصرَ ما فى بواطن العروق ودواخل العظام ، وسمع أخفى القول وألطف الكلام، لا يَعْزب عن سمعه صريفُ الأقلام ، ولا يخفى على بصره دبيب النمل تحت سُجف الظلام ، إلهٌ رحيمٌ عظيم الإنعام، وربٌّ قدير شديدُ الانتقام، قدّر الأمور فأحسن إحكام الأحكام ، وصرّف الحُكْم فى فنون النَّقْض والإبرام ، بقدرته هبوبُ الريح وتسيير الغَمام ، « ومن آياته الجوارى فى البحر كالأَعْلَام »[1] .

أحمده حمدا يبقى على الدوام ، وأقرّ بوحدانيته كافراً بالأصنام . وأصلى على رسوله محمد شفيع الأنام ، وعلى صاحبه أبى بكر أول سابق إلى الإسلام ، وعلى عمر الذى كان إذا رآه الشيطان هام ، وعلى عثمان الذى أنهض جيش العسرة بنفقته وأقام ، وعلى عليٍّ البحر الغُطَامط[2] والأسد الضرغام ، وعلى عمه العباس أبى الخلفاء الأعلام .

* * *

اعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أصلُ الدين ، فإنه شغل الأنبياء ، وقد خَلَفهم فيه خلفاؤهم ، ولولاه شاع الجهل وبَطُلَ العِلْم .

أخبرنا محمد بن عبد الباقى البزار بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَتَأمُرُنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو لَيسلطنّ الله شِرَارَكم على خيارِكم فيدعوا خيارُكم فلا يُستجاب لهم »[3] .

(١) سورة الشورى ٣٢ (٢) الغطامط : العظيم الأمواج . وفى قرة العيون الخضم .

(٣) سنن أبى داود كتاب الملاحم باب رقم ١٧ وسنن الترمذى كتاب الفتن باب رقم ٩ .

أخبرنا عليّ بن عبد الله بسنده عن جرير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من قومٍ فيهم رجلٌ يَعْمل بالمعاصى وهم أعزُّ منه وأمْنَع لا يغيِّرون إلا أصابهم الله بعقاب »[(١)] .

واعلم أنه قد اضمحلّ فى هذا الزمان الأمر بالمعروف حتى صار المعروف منكرا والمنكر معروفا ، وهذا زمن قوله عليه الصلاة والسلام: « بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ »[(٢)] .

وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا للمُنْكِر والساكت عن الإنكار .

أخبرنا ابن الحصين بسنده إلى عامر قال : سمعت النعمان بن بشير يخطب ـ وأوْمأ بإصبعه إلى أذنيه ـ : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهِن فيها مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضُهم أسفلَها وأوعرها وشرها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مرُّوا على من فوقهم فآذَوْهم ، فقالوا : لو خرَّقْنا فى نصيبنا خرقا واستقينا منه ولم نُؤْذ من فوقنا ، فإن تركوهم وأمْرَهم هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا جميعا » .

أخرجاه فى الصحيحين[(٣)] .

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الخَلْق .

وفى أفراد مسلم من حديث أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيِّره بيده فليفعل ، فإن لم يستطع بيده فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[(٤)] » .

(١) سنن ابن ماجه كتاب الفتن باب رقم ٢٠ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٢٣٢ .
(٣) صحيح البخارى كتاب الشركة باب ٦ وصحيح الترمذى كتاب الفتن .
(٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٧٨ .

وفى حديث أبى سعيد أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل : ما أفضلُ الجهاد ؟ فقال : « كلمةُ عَدْلٍ عند سلطان جائر[١] » .

وقال الشافعى رحمه الله : أشد الأعمال ثلاثة : الجود من قِلّة ، والورَع فى خَلْوة وكلمة حق عند من يُرْجَى ويُخَاف .

وفى حديث عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا رأيتم أمتى تَهاب الظالم أن تقول له أنت ظالم فقد تودِّع منهم[٢] » .

وفى حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من كان قبلكم كانوا إذا عمل العامل منهم بالخطيئة نهاه الناهى تعذيرا ، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشارَبه كأنه لم يره على خطيئته بالأمس ، فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم لعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، والذى نفسى بيده لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه فلتأطرنه على الحق أطراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم[٣] » .

وفى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيِّروه أوشك أن يعمَّهم الله عز وجل بعقابه[٤] » .

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلِّطن الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

---

(١) سنن أبى داود كتاب الملاحم باب رقم ١٧ وصحيح الترمذى كتاب الفتن باب ١٣ . ومسند أحمد ٣ / ١٩ / ٦١ .

(٢) مسند أحمد ٢ / ١٦٣ ، ١٩٠ .

(٣) أخرج نحوه الترمذى فى كتاب التفسير سورة المائدة وأبوداود فى سننه كتاب الملاحم باب ١٧ وابن ماجه فى كتاب الفتن من سننه باب ٢٠ .

(٤) صحيح الترمذى كتاب الفتن .

قال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة : من كان له جار يعمل بالمعاصى فلم ينهه فهو شريكه .

وقال مسعر : أمر ملك أن يخسف بقرية فقال : يارب فيها فلان العابد . فأوحى الله تعالى إليه : أن به فابدأ فإنه لم يتمعّر[1] وجهه فى ساعة قط .

* * *

وينبغى للآمر بالمعروف أن يلطف فقد قال الله تعالى : « فقُولَا له قولًا ليِّنا[2] »

ومر أبو الدرداء برجل قد أصاب ذَنْبا وكانوا يسبُّونه فقال لهم : أرأيتم لو وجدتموه فى قَلِيب[3] ألم تكونوا مُسْتخرجيه ؟ قالوا : بلى . قال : فلا تسبُّوا أخاكم واحمدوا الله الذى عافاكم . قالوا : أفلا تبْغِضه ؟ قال : إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخى .

ورأى محمد بن المنكدِر رجلا يكلم امرأة فى موضع خَرِب فقال : إن الله تعالى يرانا كما سترنا الله وإياكم .

أخبرنا ابن ناصر بسنده عن ثابت البُنَانى قال : كان صلة بن أشْيَمَ[4] يخرج إلى الجبَّان فيتعبد فيها وكان يمر على شباب يلهون ويلعبون فيقول لهم : أخبرونى عن قوم أرادوا سفرا فحادُوا بالنهار عن الطريق وناموا بالليل متى يقطعون سَفرهم ؟ فكان كذلك يمرّ بهم فيعظهم ، فمر بهم ذات يوم فقال لهم ذات يوم هذه المقالة ، فقال شاب منهم : يا قوم إنه والله ما يَعْنى بهذا غيرنَا ، نحن بالنهار نَلْهو وبالليل ننام ثم اتّبع صِلةَ فلم يزل يختلف معه إلى الجبَّان ويتعبّد معه حتى مات .

ومرّ بِصِلَة بين أشْيَمَ فتى يجرّ ثوبَه فهمّ أصحابُ صِلَة أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديدا فقال صلة : دَعُونى أكْفِكم أمرَه . ثم قال له : يا بن أخى إن لى إليك حاجة .

(١) لم يتمعر : لم يتغير من الغضب على من يقارفون المنكر .

(٢) سورة طه ٤٤ . (٣) القليب : البئر .

(٤) صلة بن أشيم العدوى يكنى أبا الصهباء أخباره فى صفة الصفوة لابن الجوزى ٣ / ١٣٩ .

قال : وما هى ؟ قال : أحب أن ترفع إزارك . قال : نعم ونُعْمَى عين ! فرفع إزاره .

فقال صلة لأصحابه : هذا أمْثَل مما أردتم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم .

وقال سليمان التيمى : ما أغضبتَ أحداً فقَبِل منك .

وقال فَتْح بن شخرف[1] : تعلق رجل بامرأة ومعه سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره وكان شديد البدن ، فبَيْنا الناسُ كذلك والمرأة تصيح مرَّ بشرُ بن الحارث فدنا منه وحكَّ كتفه بكتف الرجل ، فوقع الرجلُ إلى الأرض ومرت المرأة ومر بشر ، فدنَوْا من الرجل وهو يرشح عرقاً فسألوه : ما حالك ؟ فقال : ما أدرى ولكن حاكّنى شيخ وقال : إن الله عز وجل ناظرٌ إليك وإلى ما تعمل . فضعفتُ لقوله وهِبْته هيبةً شديدة لا أدرى مَنْ ذلك الرجل . فقالوا له : ذاك بِشْر بن الحارث . فقال : واسَوْأتاه كيف ينظر إلىَّ بعد اليوم ! وحُمَّ من يومه ذاك . ومات يوم السابع .

* * *

وينبغى للآمر بالمعروف أن يحْذَر مِن فعلِ ما نَهى عنه وترك ما أمر به .

فقد أخبرنا عبد الأول بسنده عن أسامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلْقَى فى النار فتندلق أقتابُ بطنه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهلُ النار عليه فيقولون : أى فلان ما شأنك ، أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

أخرجاه فى الصحيحين[2] .

---

(١) فتح بن شخرف بن داود بن مزاحم أبو نصر الكشى له ترجمة فى صفة الصفوة ٢/ ٢٢٧ .

(٢) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق ، وصحيح مسلم كتاب الزهد حديث رقم ٥١ . ومسند أحمد ٥ / ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

واعلم أنه إذا هــذّب الآمر نفسه أثّر قولُه إما فى زوال المنكر أو فى انكسار المذنِب أو إلقاء الهيبة له فى القلوب .

خرج إبراهيم الخوّاص لإنكار منكر فنبح عليه كلبٌ فما قدر على الوصول إلى مكان المنكر ، فرجع إلى مسجده وتفكّر ساعة ثم قام فجعل الكلب يتبصّبص حوله ولا يؤذيه حتى أزال المنكر ، فسئل عما جرى له فقال : إنما نبح علىّ لفسادٍ دخل علىّ فى عَقْد بينى وبين الله عز وجل فلما رجعت ذكرته فاستغفرت .

(الكلام على البسملة)

يُسَرُّ بصَفْو عشته الجهولُ ... وتُعْجبه الإقامةُ والحلولُ
ودُون مُقَامه حادٍ حَثيث ... عَنيفُ السَّوْق والموتُ السبيلُ
سبيلٌ ما توجّه فيــه سَفْرٌ ... فكان لهمْ إلى الدنيا قفولُ
طريق يستوى للخَلْق فيه ... مَسَالكهم ويَختلف المقيلُ
تغرُّهم زخارفُ دارِ دنيا ... غوائلها بِمَعْمعِهم تَعولُ(١)
تطوف عليهمُ بكؤوس لَهْوٍ ... ومَزْجُ كؤوسها الداء الدخيلُ
ونَصْل وَجهها لهمُ خِداعاً ... وتحت صقالها السيفُ الصَّقيلُ

* * *

يا هذا قد صانك بالحلال فلا تبتذل ، وبالقناعة فلا تذلّ ، وطهّرك من الأدناس فلا تتوسخ ، ودعاك إلى الأرباح فلا تتوقف ، ويحك إذا خدَمْتَ الدنيا رأت نفسها فتدلّت ، وإذا أعرضتَ عنها عرفت قَدْرها فتذلّلت ، « اخدُمى مَنْ خَدَمنى واستخدمِى مَن خَدَمك » . يا جامع الدنيا لغيره جَمْعا يَعُوقه عن سَيْره .

ماذا تؤمِّل لا أبالك فى ... مالٍ تموت وأنت تُمْسكهُ

(١) المعمع : الحرب . وتعول : تغلب ، أى أن غوائل الدنيا وآفاتها تزيد على أهوال الحروب .

أنفِق فإنّ الله يُخلِفه لا تَمضِ مذموماً وتتركهُ
ما لم يكن لك فيه قطّ مَنفعةٌ مما جَمعتَ فلستَ تَملكهُ

* * *

يا هذا : إنما فضّل العاقل لنظره فى العواقب ، فأما من لا يرى إلا الحاضر فطِفل:

تَصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ عما مضَى منها وما يُتَوقَّعُ
ولمن يغالط فى الحقيقة نفسَه ويَسُومها طمعَ المُحَال فتَنْبعُ

قد أعدّ لك كأسا لا يشبه الكئوس ، موتٌ يسلب الأرواح ويختلس النفوس ، ورحلة لا تدرى بالسُّعود أو بالنحوس ، إلى لحدٍ ضيق وَعْر ما مَهّدَته الفؤوس ، تُحطُّ فيه ذليلا وأنت مَحْسوب منكوس ، لا يُشْبه المَطَامير[1] ولا يُجانِس الحُبوس ، المدَر فيه فِراشٌ والتراب فيه لَبُوس ، أترى يكون لك روضةً أو يُشْبه الناموس[2] ، كم مِحْنة بَلْقى ذلك الملقَى المَرْموس[3] ، رفقاً إذا وَطِئت الأحداثُ فالأجداثَ تدوس ، ثم يُنفَخ فى الصور فتطير إلى الأكفّ الطُّروس ، وتُجنَى ثمار الجزاء يومئذ من قديم الغُروس ، وتشتد الشدائــد فى قَمْطريرٍ عَبُوس ، وتَذلّ العتاةُ الجبابرة المتغطرسون الشُّوس ، ويتساوى فى الخضوع الأتباعُ والرءوس ، وتُقسَّم بين الخلائق خِلَع السُّعود وملابس النُّحوس . واعجبا لجمود ذهنك وأنت فى الإعراض تَنُوس[4] ، كم بَهْرج ورَمَل[5] وكم تُجْلَى عليك عروس ، أهذا الذى تسمعه كلامُ الخالق أو صوت الناقوس ، يامُؤْثرا شهوةَ لحظةٍ تَجْنى له حَرْبَ البَسوس ، يا من قد غلب الأطباءَ دواؤه أمريض أنت أم مَمْسوس ، تُعنَّى بملاجك « بقراطَ » وتحيِّر « جالينوس » ، سبحان من خلق قلبك

---

(١) المطامير : الحفائر تحت الأرض .

(٢) الأصل : الناووس . والناموس : الشرك — بفتح الراء — وهو الحفرة تحفر ليكمن فيها الصيد . وهو أيضا : عرينة الأسد .

(٣) المرموس : الذى ألقى فى رمسه .

(٤) تنوس : تتردد وتتذبذب . (٥) والرمل : الهرولة .

من حجارة ، تعالى الملكُ القدُّوس ، واعجبا لِعَقْلك! العِرْضُ مَبْذول والعَرَض محروس، جُلُّ همك مع الدنيا وحظ الأخرى منك مَبْخُوس ، ثوبُك جديد صحيح ولكن القلب منكوس ، وبلوغ الخمسين مُنْذر وفى الستين تَضْرب الكؤوس ، هذا قدر النصائح أفآخذك بالدبوس .

أنت فى دنياك ضَيْفُ والتوانى منك حَيْفُ
مَرَّ بالقَرِّ شتاء وأتى بالحرِّ صَيْفُ
خاسرٌ مَنْ نَقْدُه حين تقُوم السُّوق زَيْفُ
فاغتنمْ أجراً وذِكْرا حَسناً فالوقتُ سَيْفُ

صِحْ على فرَس الجِدِّ وقُدْ فرسَ الغاية ، مجالس الذكر فصول وتعبئة المواعظ شربات(١) ، فاصبر على مرارة المركَّب لعل الأخلاق تحسن .

واعجبا تفيق فى المجلس فتنطق بلفظ توبة كما يفيق المجنون فيتكلم بكلمة حِكْمة ، فإذا عادت السوداء خلط !

أيفيق من مرضٍ كئيب إذا جَنَّ الظلامُ عليه أنَّا

متى كان مرض الجسد عن أخلاط مجتمعة سَهُلت مداواته ، ومتى كان مرض الجسد التغيّر عن فساد فى القلب فيما قَرُب التلف ، مداواة المعنَى ممكن ، وأما مداواة الجنون فيتعذّر .

جَعَلْت لِعرّاف اليمامة حُكْمه وعرّاف نَجْدٍ إنْ هما شَفَيانى
فقالَا : شفاكَ اللهُ واللهِ ما لنا بما ضُمِّنت منك الضلوعُ يَدانِ(٢)

حظُّ قلبك من هذا الكلام حظُّ الصدَى من سَمْعك ، علتك علةٌ طريفة يتحيَّر فى

---

(١) كذا بالأصل .

(٢) البيتان لعروة بن حزام ، وانظر ذم الهوى لابن الجوزى باب ذكر المشتهرين بالعشق .

مثلها المداوِى ، تسْرع فى طَلب الدنيا إسراع جواد وأنت فى طلب الآخرة جَبان . إن لاح لك ذنبٌ وثبْتَ وثب فَهْد وإن حرَّضتَ على طاعة أخذك فالجُ ابن أبى دُؤاد[1] .

خُذ الوقتَ أخْذَ اللص واسرقْه واختلسْ فوائده قبلَ المنـــــايا الدوائب
ولا تتعلَّل بالأمانى فإنهــــــا عَطَايا أحاديثِ النفوسِ الكواذبِ
ودونك وِردُ العمر مادام صافيــــــاً فخُذْ وتزوَّدْ منه قبلَ الشوائبِ

الكلام على قوله تعالى : « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »[2]

فى هذه النفخة قولان : أحدهما : أنها الأولى والثانى : أنها الثانية . والقولان عن ابن عباس .

وأما الصُّور فروى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الصور فقال : « هو قَرْنٌ ينفخ فيه » .

وقال مجاهد : الصور كهيئة البُوق . وحكى ابن قتيبة أن الصور القَرْن فى لغة قوم من أهل اليمن ، وأنشدوا :

نحن نطَحْناهم غَــداة الجمْعَيْن
بالصالحــات فى غُبَار النَّقْعَيْن
نَطْحا شديداً لا كنَطْح الصُّورَيْن

أخبرنا أبو منصور بن محمد بن عبد الملك بن خَيْرون بسنده عن أبى هريرة قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه فقال : إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فِيه

(١) لعله يريد أبا عبد الله أحمد بن أبى دؤاد وزير المأمون والمعتصم .

(٢) سورة المؤمنون ١٠١ .

شاخصٌ ببصره إلى الأرض ينظر متى يُؤمر. قلت يارسول الله وما الصُّور ؟ قال: القَرْنُ. قال : قلت: فكيف هو؟ قال: عظيم والذى بعثنى بالحق إن أعظم دارة فيه كعرض السماء والأرض ، فينفخ ثلاث نفخات : النفخة الأولى نفخة الفَزع . والثانية نفخة الصعق . والثالثة نفخة القيام لرب العالمين عز وجل ، فيأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول : انفخ نفخة الفزع فينفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فيأمره فيمدُّها ويطيلها فلا يَفْتر وهى التى يقول الله عز وجل : « ومايَنْظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فَواق[1] » فيسيِّر الله تعالى الجبالَ فتمر مرَّ السحاب فتكون سَرابا فترتج الأرض بأهلها رَجًّا فتكون كالسفينة الموقَرة فى البحر تضربها الأمواج تُكْفَأ بأهلها ، أو كالقنديل المعلَّق بالعرش ترجّه الأرياح ، وهى التى يقول الله عز وجل : يوم تَرْجُف الراجفة تَتْبعها الرادِفة . قلوبٌ يومئذ واجفة[2] » . فتَميد الأرض بالناس على ظهرها فتَذْهل المراضعُ وتضع الحوامل ويشيب الوِلْدان ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتى الأقطارَ فتَلْقاها الملائكة فتضرب وجوهَها فترجع ، ويولِّى الناسُ مُدْبرين مالهم من الله من عاصم ينادى بعضهم بعضا ، وهو الذى يقول الله عز وجل « يوم التناد»[3] فبينا هم على ذلك تصدَّعت الأرضُ فانصدعت من قطر إلى قطر ، فرأوا أمراً عظيماً لم يروا مثله وأخذهم من ذلك الكربِ والهولِ ما الله به عَليم ، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمُهْل ثم انشقت فانتثرت نجومُها وانخسفت شمسُها وقمرها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والأموات يومئذ لا يعلمون بشىء من ذلك. قال أبو هريرة : يا رسول الله فمن استثنى الله تعالى حين قال : ففَزِع مَنْ فى السمٰواتِ

(١) سورة ص ١٥ . (٢) سورة النازعات ٦ ــ ٨ .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : « ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد » سورة غافر آية ٣٢ .

ومن فى الأرضِ إلا من شاء الله[1] » ؟ قال: أولئك الشهداء وقام الله فزعَ ذلك اليوم وأمّنهم منه ، وهو عذاب يبعثه الله على شِرار خَلْقه يقول الله عز وجل : « إن زَلْزلَة السـاعةِ شيء عظيم . يومَ ترَوْنها تَذْهلُ كلُّ مُرْضعةٍ عما أرضعَتْ وتَضع كلُّ ذات حَمْلٍ حَمْلَها وترى الناسَ سُـكارى وما هم بسُـكارى ولـكنّ عذابَ الله شديد[2] » .
فيمكثون فى ذلك البلاء ماشاء الله إلا أنه يطول عليهم ، ثم يأمر الله عز وجل إسرافيلَ فينفخ نفخةَ الصَّعْق ، فيُصْعق أهلُ السمٰوات والأرض إلا من شاء الله ، فإذا اجتمعوا جاء ملك المـوت إلى الجبار فيقول : قد مات أهلُ السمٰوات والأرض إلا من شئت فيقول الله عز وجلَ وهو أعلم : ـ من بَقِى ؟ فيقول : أىْ ربِّ بقيتَ أنت الحىّ الذى لا تموت ، وبقيتْ حملة عَرْشك ، وبقى جبريل وميكائيل . فيقول : إنى كتبت الموتَ على مَنْ تحت عرشى ، فيموتان ، ثم يأتى ملك الموت فيقول: قد مات جبريل وميكائيل فيقول وهو أعلم : مَنْ بَقِى ؟ فيقول : بقيت أنت الحىّ الذى لا تموت وبقيت حملة العرش وبقيت أنا فيقول الله عز وجـل : فَلْيَمت حملةُ العرش ، فيموتون ويأمر الله تعالى العرش فيقبض القرنَ من إسرافيل ثم يقول : ليمت إسرافيل فيموت . ثم يأتى ملك الموت فيقول : يارب قد مـات حملة عرشك فيقول الله عز وجل وهو أعلم : فمن بَقى ؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت أنا . فيقول الله عز وجل: أنت خَلْق من خلقى خلقتك لِمَا رأيت فمت . فيموت .

وفى رواية ابن أبى الدنيا : مت ثم لا تحيا .

فإذا لم يبق إلا الله عز وجل طوى السماء والأرض كطىّ السجل للكتاب ثم دحاها ثم قال: أنا الجبار، لمن المُـلْك اليوم ـ ثلاث مرات ـ فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه فيقول: لنفسـه : لله الواحدِ القهّار .

(١) سورة النمل ٨٧ . (٢) سورة الحج ١ ، ٢ .

ثم يبسط الأرض بَسْطاً يمدها مدّ الأديم لا ترى فيها عِوَجا ولا أمتاً ، ثم يَزْجر الله الخلق زَجرةً واحدة فإذا هم بالساهرة على ظهرها ، ثم ينزل الله تعالى ماء من تحت العرش كمَنِىّ الرجال ثم يأمر السماء أن تمطر فتمطر أربعين يوما حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعا ، ثم يأمر الله عز وجل الأجساد أن تَنْبت كنبات الطراثيث أو كنبات البَقْل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت قال الله عز وجل : لِيَحْىَ حملةُ العرش فيَحْيون فيأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يقول الله عز وجل : ليَحْىَ جبريلُ وميكائيل . فيَحْيَيان ثم يدعو الله عز وجل الأرواحَ فيؤتى بها تتوهّج أرواح المسلمين نورا والأخرى ظُلْمة ، فيقبضها جميعا ثم يلقيها فى الصُّور ، ثم يأمر إسرافيلَ أن ينفخ نفخة البَعْث ، فتخرج الأرواح كأنها النَّحْل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لَترجعنّ كلُّ روح إلى جسدها . فتدخل الأرواح فى الخياشيم ثم تمشى فى الأجساد مَشْى السُّم فى اللَّديغ ثم تنشقّ الأرض عنهم سِراعا . فأنا أولُ من تنشقّ عنه الأرض فيخرجون منها سراعا مُهْطعين إلى الداعى حفاةً عراة غُرْلا ، ثم يقفون مقدار سبعين عاما لا ينظر إليكم ولا يقضى بينكم ، فتبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم تدمعون دَماً ، وتعرقون حتى يبلغ ذلك منكم أن يُلْجمكم أو يبلغ الأذقانَ ، فتصيحون وتقولون : مَنْ يشفع لنا إلى ربنا عز وجل فيقضى بَيْننا فتقولون : من أحقُّ بذلك من أبيكم آدم عليه السلام، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلّمه قُبُلا ، فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه فيأتى ويقول . ما أنا بصاحب ذلك فيستقرِون الأنبياء نبيًّا نبيا كلما جاءوا نبيًّا أبَى عليهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حتى يأتونى فأنطلق معهم حتى آتى قدام العرش فأخرّ ساجدا حتى يبعث الله تعالى مَلَكا فيأخذ بَعضُدى فيرفعنى ويقول لى : يامحمد . فأقول : نعم يارب . فيقول : ماشأنك ؟ وهو أعلم فأقول : يارب وعدتنى

الشفاعةَ . فشفِّعْنى فى خَلْقك واقضِ بينهم . فيقول: قد شفَّعتك . فأرجع فأقف مع الناس ، فبينا نحن وقوف إذ سمعنا حِسًّا من السماء شديدا فهالَنا ، فينزل أهلُ سماء الدنيا فيأخذون مصافَّهم ، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلَىْ من نزل من الملائكة ومثلى من فيها من الجن والإنس حتى يأخذوا مصافَّهم، حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى فى ظُلَل من الغمام ويحمل عرشَ ربك فوقهم يومئذ ثمانية وهم اليوم أربعة ، أقدامهم فى تخوم الأرض السفلى والأرض إلى حجزهم والعرشُ على مناكبهم لهم زَجل من تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذى المُلْك والملكوت ، سبحان الحىّ الذى لا يموت سبحان الذى يميت الخلق ولا يموت ، سُبُّوح قُدُّوس ، سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة والروح فيضع الله كرسيَّه حيث شاء من أرضه ثم يقول : يامعشر الجن والإنس إنى قد أنصتُّ لكم منذ خلَقْتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأنظر أعمالكم ، فأنصتوا ، فإنما هى أعمالكم وصحفكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه . ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق مظلم ثم يقول الله عز وجل : « وامتازوا اليومَ أيها المجرمون . ألم أعهَد إليكم يا بنى آدم ألّا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين » إلى قوله : « هذه جهنم التى كنتم توعدون[1] » فيميزُ الله الناس وتجثو الأمم ، فيقضى بين خَلْقه إلا الثقلين الجن والإنس فيقضى الله بين الوحش والبهائم، حتى إنه ليقيد الجمَّاء من ذات القَرْن ، فإذا لم تبق تبعة عند واحدة لأخرى يقال لها : كونى ترابا فعند ذلك يقول الكافر : « ياليتنى كنت ترابا » .

فيقضى الله بين العباد ، فيكون أول مايقضى فيه الدماء فيأمر الله كلَّ من قُتل فيحمل رأسه تَشْخب أوداجُه ، فيقول : يارب سَلْ هذا فيم قَتَلنى ؟ فلا تبقى نفسٌ قتلها قاتل إلا قُتل بها ولا مَظْلمة ظُلِم بها إلا أُخذ بها ، وكان فى مشيئة الله عز وجل

(١) سورة يس ٥٩ ـ ٦٣ .

إن شاء عذّبه وإن شاء رحمه ، ثم يقضى بين من بقى من خلْقه حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها المظلوم من الظالم حتى إنه ليكلِّف شائبَ اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلِّص اللبنَ من الماء ، فإذا فرغ من ذلك نادى مناد يُسْمع الخلائقَ كلهم فيقول : ألا ليَلْحق كلُّ قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله عز وجل فلا يبقى أحد عَبد شيئا من دون الله عز وجل إلا مثِّلت له الآلهة بين يديه ، ويجعل الله عز وجل يومئذ مَلَكا من الملائكة على صورة عُزَيْر ، ويجعل مَلَكا من الملائكة على صورة عيسى بن مريم فيتبع هذا اليهود ويتبع هذا النصارى ، ثم قادَتْهم آلهتهم إلى النار ، فإذا لم يبق إلا المؤمنون وفيهم المنافقون بدأهم الله عز وجل فقال : ياأيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون . فيقولون : مالنا إله إلا الله وما كنا نعبد غيره ، فيكشف لهم عن ساق ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم تعالى فيخرُّون سُجّدا على وجوههم ويخرّ كلُّ منافق على قفاه ، فيجعل الله أصلابهم كصياصى البقر ، ويضرب الله الصراطَ بين ظهرانى جهنم كحد السيف عليه كلاليب وخطاطيف وحَسَك كحسك السَّعْدان ، فيمرّون كطرف العين أو كلمح البصر أو كمرّ الريح أو كأجاويد الخيل أو كجياد الرجال ، فناجٍ مُسَلَّم، وناجٍ مخدوش ، ومَكْدوش على وجهه فى جهنم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فآتى باب الجنة فأستفتح فيفتح لى فإذا دخلت فنظرت إلى ربى عز وجل خررت ساجداً .

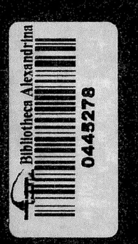
تمّ الكتاب بحمد الله تعالى

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

رقم الإيداع بدار الـكتب ٢٩٥٠ / ١٩٧٥


Bibliotheca Alexandrina
04445278